كليوباترة

سيرتها وحكم التاريخ عليها

تأليف
زكي علي

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

ملتزمة الطبع والنشر
لجنة البيان العربي
٢٣ شارع أمين سامى بالمنيرة

مطبعة لجنة البيان العربي
٢٧ الجامع الإسماعيلى بالمالية
ت ٢٧٠٧٩



كليوباترة السابعة

محتويات الكتاب

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنه ليسعدنى أن أقدم للقارىء العربى ، فى طيات هذا الكتاب ، لمحات عاجلة من حياة شخصية فذة ، هى كليوباترة السابعة التى تولت مقادير هذا الشعب المصرى فى مراحل حاسمة من تاريخه . فتناولتُ عرض بعض المواقف الهامة من تاريخ حياتها ، وسردتُ بعض أعمالها ، وعرّجتُ على سياستها إزاء نفر من عظماء العالم الرومانى فى ذلك الحين بقدر ما يسمح به المجال ، رغبة فى التفسير والتوضيح لما غمض من أسرار حياتها ، وخفى من تصرفاتها فى شئون السياسة والحرب . ولست أدعى أننى قد وفيت الموضوع حقه ، فالمقام هنا لم يكن ليسمح بذلك ، والمجال الذى أتيح لى فى هذه الصفحات كان فى أضيق نطاق . ومع ذلك فإنى آمل أن أكون قد قدّمتُ هنا صورة حيّة لحياة هذه الملكة ، يطالعها القارىء العام فى يسر وسهولة ، فيكشف النقاب عما غمض عليه من حياة هذه الملكة التى يتردد اسمها على ألسنة الناس فى حياتنا اليومية دون أن يعرفوا حقيقتها ، ويتبينوا كنهها ومقاصدها ، وقد عاشت وجه التاريخ بين مادح يثنى عليها ، وقادح يذمها . وقد سلكتُ هنا سبيل التدليل العابر لا الاستقراء المستنفذ ، إذ أن دون ذلك جهوداً ومشقات قد لا يتسع لها وقت القارىء غير المتخصص .

وإنى لأرجو أن أكون قد أثـرْت فى نفس القارىء الرغبة فى التعرف على مزيد من تفاصيل حياتها الحافلة بالأعمال ، ووُفقت فى تشويقه إلى الاهتمام بها وإصدار حكم عادل عليها . ولى عودة إلى هذا الموضوع فى شىء كثير من التوسع والإفاضة فى القريب إن شاء الله .

الفصل الأول
نشأة كليوباترة

تمهيد :

خلدت هذه الملكة اسمها فى سجل التاريخ ، وطبق صيتها آفاق المشرق والمغرب فى العالمين القديم والحديث ، وانبرى المؤرخون والمصنفون فى كل العصور لهذه الملكة بالذات ، يتناولون القصص المحيطة بسيرتها بالسرد والتفنيد ، ويعرضون لأعمالها وأحوالها فى شيء كثير من الإسهاب والتفصيل . وقد انحاز البعض منهم ضدها جرياً على سياسة تقليدية ، استنّها لهم ساسة الرومان وكتّابهم فى العصر الأغسطى ، فأنحوا باللائمة على هذه الملكة ، ورموها بأفحش القول والتبذل ، وأسخنوها بالتجريح ، ونسبوا إليها شيئاً كثيراً من الشرور والآثام . وقد سرد المؤرخ بلوتارخوس جانباً من حياتها ، لعله من أبهج الصفحات التى انبهر لها العالم ، وجاء وصفه لذلك الجانب ضمن حديثه عن حياة بطل رومانى وقائد كبير هو ماركوس أنطونيوس . ثم جرى الكتّاب وراء بلوتارخوس ، وأخذوا يرددون ما رواه من قصص ونوادر ساقها عن حياة هذه الملكة ، فكان الشاعر الإنجليزى شكسبير من السبّاقين إلى ترديد لمحات من حياتها مع يوليوس قيصر ، فلم يخرج فى الصورة التى أبدعها من ثنايا حياة هذه الملكة ، عن التقليد المرعى فى تصوير هذه الملكة بالفاتنة ، وتجريحها بأنها سخّرت جسدها فى تحقيق مآربها ، وأفرطت فى انتهاج هذا السبيل ، ثم جاء الكاتب الروائى « برنارد شو » فى روايته التى أخرجها عن قيصر وكليوباترة ، فأنكر أن كليوباترة أوتيت قسطاً عالياً من التعليم ، وتصورها فى صورة المرأة اللعوب ، قريبة الشبه بالقُطيطة . وإنه ليحق بالطبع لأمثال هؤلاء الكتاب الروائيين من طراز « برنارد شو » وهم الذين عرفوا

بأسلوبهم التهكمى اللاذع أن يصوروا شخصياتهم على النحو الذى يروق لهم، وأن يسبغوا على هذه الشخصيات التاريخية أو الخيالية ما يرونه من الصفات . ولكن الأمر الذى لاشك فيه أن الصورة التى ابتدعها « برنارد شو » ليخرج فيها كليوباترة جاءت غير مطابقة للحقيقة ، وليس لها سند من الواقع ، بل إن الأمر على عكس ذلك، فالظروف التى أحاطت بهذه الشخصية الملكية وضعتها منذ نعومة أظفارها فى مهب الريح ، وكان عليها أن تواجه تجارب قاسية ، إذ تفتحت عينها عقب سن الرضاع مباشرة على فكرة مشوبة بشىء كثير من الغموض ، عن قسوة قلوب الرومان، وغلظة أكبادهم ووحشيتهم. وإن ما أتته هذه الملكة فى شتى مراحل حياتها من ضروب الشجاعة والبسالة فى ميادين السياسة والقتال لينهض دليلا على نقض الرأى المتواتر فى كتابات أولئك القصاصين والروائيين ، الذين تركوا العنان لخيالهم يسبح ، وركبوا فى ذلك متن الشطط .

والد كليوباترة

وفى صدر حياة هذه الملكة ، كان والدها بطلميوس الثانى عشر وكنيته أوليتيس أى الزمار يمثل صورة هزيلة من ملوك البطالمة الضعاف ، يُلاحق قواد الرومان وساستهم بمطالبه ، ويرتمى على أعتابهم كسباً للتأييد والاعتراف به ، وطلباً لتثبيته على عرش مصر ، وكانت الأحداث الجسام تجرى وتتزاحم وقائعها فى محيط العالم الرومانى ؛ فالجيوش إثر الجيوش يسيرها قواد الرومان بعضهم ضد البعض ، تارة لإشباع أغراضٍ ومآرب شخصية ، وتارة أخرى بدعوى أنهم انبروا لنصرة الجمهورية الرومانية وهى على شفا جرف هار وفى دور الاحتضار ، فكانت هذه الجيوش تجتاح بلاد الشرق أو الغرب . وكانت روما تعمل جاهدة منذ أمدٍ بعيدٍ على التدخل فى شئون مصر ، وتنصب الشباك لمختلف دول الشرق عامة ، وتتربص بها الدوائر ، وتقف لمصر بصفة خاصة بالمرصاد . ومن أجل هذا توالت الوفود والبعثات الرومانية على وادى النيل ، وكان لملك مصر بدوره

مندوبون ، يسعون لدى روما لكسب ودها وعطفها واتقاء شرها ، بل إن والد كليوباترة تغالى فى هذا السبيل فأراق ماء وجهه ، وبقى نحو عشرين سنة واقفاً على الأعتاب ، يسعى لأن تعترف به روما ملكا على مصر ، ويسبغ عليه مجلس شيوخها العتيد لقباً فخرياً كان محل زهوه واعتزازه ،فأصبح بذلك الصديق والحليف للشعب الرومانى ، وكان فى تحقيق هذه الأمنية القضاء على نفر من المدعين لعرش مصر . ويرجع الفضل فى نيله أمنيته هذه إلى يوليوس قيصر الذى تقدم باقتراحه هذا سنة ٥٩ ق. م عند ما كان متولياً القنصلية ، بعد أن قبض رشوة باهظة من الملك تبلغ ستة آلاف من التالنتات (والتالنتوم الواحد كان يساوى نحو ٢٤٠ جنيهاً) .

وما كانت حياة هذا الملك فى مصر بمستقرة ، بل إن شعب الإسكندرية طرده من البلاد أكثر من مرة ، لأنه كان يضيق بتصرفاته وتهتكه بوصفه الإله ديونيسوس الجديد ، وبما كان يفرضه على كاهل الناس من أعباء مالية ، اشتط فى جمعها . ونظراً لتقصيره فى مساندة أخيه الذى كان حاكما على قبرص عندما طمعت روما فى ضم هذه الجزيرة ، ونظراً لما ألحقه بمصر من مهانة لسيره فى ركب الرومان واعتماده على زعمائهم فى الحظوة بالتأييد ، أعلن عليه شعب الإسكندرية العصيان العام ، وطرده سنة ٥٨ ق . م ، ففر إلى روما حيث نزل فى ضيافة بمبى أحد الشخصيات الكبرى فى روما إذ ذاك . وقد استدان كثيراً ، وأسرف فى تقديم الرشاوى من قبيل السعى إلى كسب التأييد ، ورده إلى عرشه وتبارى القواد الثلاثة: بمبى وقيصر وكراسوس فى التسابق على أن يكون لأحدهم الفضل ،إما بالذات أو بالواسطة فى إعادة هذا الملك ، ورده إلى عرشه المسلوب ، ولكن مجلس الشيوخ الرومانى كان متردداً ، فامتنع عن الموافقة على استخدام القوة فى تحقيق ذلك ،متذرعاً بأسباب دينية من الكتب السبلينية ، وبقى الوضع على حاله حتى كانت سنة ٥٥ ق . م ،عندما أوحى بمبى إلى أحد صنائعه وهو أولوس جابينيوس (Aulus Gabinius) حاكم الشام بتبنى هذا المشروع ، ووعد بطلميوس أوليتيس بدفع مبلغ باهظ قدره عشرة آلاف تالنتوم لجابينيوس فى نظير هذه المهمة

المحفوفة بالمخاطر . وعلى الرغم مما كان يحظى به هذا الوالى الرومانى من تأييد يجى له فإنه تقاعس وسوّف خوفاً من الزج بنفسه فى مغامرة عسكرية فى الطريق الصحراوى إلى مصر ، وخشية أن تواجهه بعض الصعاب أمام الفرما، ولكن قائد الفرسان لدى جابينيوس وهو شاب فى مقتبل العمر اسمه ماركوس أنطونيوس انبرى للإقدام على كشف الطريق ، وتبعه الجيش ، واستسلمت الفرما ، ودخل جابينيوس الإسكندرية وفى صحبته الملك بطلميوس أوْ ليتيس وبذا رد الملك إلى عرشه ، وترك حامية رومانية لنصرته ، ومضى الملك فى إشباع شهوة الانتقام من خصومه والتنكيل بهم . وكانت إبنته برنيقة فى مقدمة الضحايا نظراً لأنها قبلت من السكندريين أن تُنَصَّب على عرش مصر فى غيبة أبيها ، ولقيت برنيقة هذا المصير الأليم أمام أعين أختها كليوباترة البالغة من العمر إذ ذاك الرابعة عشرة . وبذلك أفسحت برنيقة السبيل لكليوباترة التى ضمنت أن يكون مآل العرش إليها . وقيل فيما بعد إنه فى هذه المرحلة وقع بصر ماركوس أنطونيوس وهو فى الإسكندرية على تلك الأميرة الشابة ، وأنها بهرته واستهوته وهى لا تزال فى مطلع شبابها .

ولا بد أن الذعر تملكها ، واستولت عليها المخاوف فى السنين القلائل الأخيرة من حياة أبيها ، وهى تشهد رجال المال من الرومان وقد ضيقوا عليه الخناق لاسترداد جميع ما اقترضه منهم فى سنى محنته ، فعمد إلى تعيين أكبر دائنيه وهو رومانى يسمى رابيريوس (Rabirius) فى وظيفة رفيعة هى وزير مالية البلاد المصرية أو ديؤيكتيس (Dioecetes) . واستطاع هذا الرومانى أن ينهب البلاد حتى ضاق الناس به ذرعاً ، وقامت حركات عصيانية ، واختل الأمن وأخذ الفلاحون يهددون بعدم الوفاء بما عليهم من التزامات قِبَل الدولة ، وخشية أن يفتك الغوغاء بوزير المالية الرومانى زج به الملك فى السجن ، ثم ما لبث أن دبر أمر إنقاذه وتهريبه إلى روما . وكانت خاتمة أعمال هذا الملك أن يتخذ من الإجراءات ما يكفل ضمان العرش لكبرى بناته وهى كليوباترة ، وكانت تبلغ إذ ذاك من العمر نحو الثامنة عشرة ، على أن تشترك

مع أخيها الصغير بطلميوس الثالث عشر وله من العمر نحو عشر سنوات . فكتب وصية بهذا المعنى احتفظ بصورة منها فى الإسكندرية ، وبعث بأخرى إلى روما ، وفيها أشهد الشعب الرومانى وقادته على أن يعملوا على تحقيق هذه الرغبة الملكية ، فلما توفى فى ربيع ٥١ ق . م كان عرشه الذى تركه لابنيه غير مستقر ، وبقى على هذين الوريثين أن يثبتا للعالم كيف يستطيعان الاحتفاظ بهذا المُلْك الذى أصبح فى مهب الريح ، تعصف به الأهواء من ناحية ، وتطمع فيه روما ، ويسيل له لعاب قادة الرومان من ناحية أخرى .

كليوباترة تتربع على عرش مصر

إن تاريخ حُكم هذه الملكة ملىء بالأحداث الجسام ، بعضها من طابع محلى بحت ، وأغلبها مرتبط بتاريخ العالم الرومانى وما كان يجرى بين قواده من كفاح من أجل الغلبة والسيطرة . وفى طيات تاريخ هذه الملكة يتجلى ما كان يبدو عليها من أحاسيس وانفعالات ، وما كان يُسلط عليها من أضواء ساطعة بين حين وآخر ، فتارة تظهر فى ألفرما ثم فى الإسكندرية وتارة أخرى فى تارسوس بآسيا الصغرى ثم فى بلاد الشام ، وفى آخر المطاف فى إبيروس ببلاد اليونان عند ساحل أكتيوم ؛ وهى فى كل ذلك قد اتخذت من الإسكندرية مقرها الدائم ، تدبر فيه من أمرها ما وسعها التدبير ، وتتولى بنفسها شئون الحكم ، وتنظم خططها وتستقبل السفراء من الرومان وغيرهم وتبعث بأخصائها والمقربين إليها إلى روما وبلاد الشرق لترقب ما يجرى من أحداث جسام على مسرحها . وعلى ذلك تعددت ميادين نشاطها السياسى بقدر اتساع أفقها ومآربها السياسية . وإن عرضاً وافياً لسجل كل هذه الأحداث ليتطلب أن نفرد له أسفاراً عديدة ، حتى يمكن أن نلقى بعض الأضواء الساطعة على كل ما كان يساق من أقوال ، تبارى الكتاب والأدباء القدامى فى سردها ، ونحا نحوهم بعض الكتاب المحدثين ؛ ومن هؤلاء من تجنى على مسلك هذه

الملكة من قبيل المبالغة ، وتشويه السمعة ، والإمعان في إرضاء الإمبراطور الرومانى الأول ، اكتافيوس أغسطس ، خصم كليوباترة اللدود .

وقد صمدت الملكة لما كان يحاك ضدها من دسائس فى محيط البلاط السكندرى فى أول عهد حكمها ، وعقب وفاة والدها مباشرة ، فجمعت إذ ذاك جيشاً على الحدود الشرقية من مصر ، واجهت به قوات أخيها وشريكها فى المُلْك. على أنها وقفت موقفاً أقسى وأشد من هذا عندما أعلن عليها اكتافيوس الحرب ، وتكتل وراءه العالم الغربى باعتباره بطله الذى يريد الانتقام من تلك الملكة الشرقية ؛ ولكنها فى كل هذه المواقف الحاسمة والأحداث الجسام لم تلن لها قناة ، ولم يتسرب إلى قلبها الخوف أو الوَجَل ، وإنما كانت تظهر من المواهب والقدرات ما كان فيه خلاصها ، وإنقاذها من شتى المآزق ، وقد بَهر الكتابَ والمؤرخين ما أوتيته من فطنة وذكاء ، كانا يجنباها الكثير من مواطن الزلل ، ويجعلانها تكسب إلى جانبها فى براعة منقطعة النظير تأييد أكثر من قائد رومانى ، فكان الدكتاتور الرومانى العظيم يوليوس قيصر أول هؤلاء ، اتخذت منه أداة لتحقيق مآربها ، وتثبيت أركان عرشها بقوات الجيش الرومانى وعُدته ، فأبقى بعض الفرق الرومانية بالإسكندرية لتكون حامية ومؤيدة للملكة ، تَرُدُّ كيد الأعداء عنها فى الداخل ، ثم كان ما هو أدهى وأمرّ بأن أوحت إليه بكثير من الأفكار الملكية الهيلينستية وطرازها المطبق فى مصر ، والمنطوى على حكومة بيروقراطية — مركزية — تسير فى يسر وسهولة . ثم جاء من بعده خَلَفُه ماركوس أنطونيوس ، فارتمى فى أحضانها ومضى فى نصرتها وتأييدها بعد أن كان قد بعث فى طلبها لتمثل بين يديه فى تارسوس بآسيا الصغرى ، وتجيب عن تهمة التقصير فى المساهمة فى الحرب التى شنها هو واكتافيوس ضد قتلة قيصر من الجمهوريين ، لتأديبهم على فعلتهم الشنعاء . وهكذا نهج أنطونيوس نهجاً فريداً ، فكان فى حبه عنيفاً ، وفى إخلاصه متفانياً حتى أصبح مضرب الأمثال للناس فى التفانى والمغالاة فى الحب والتضحية بالنفس من أجل حبيبته كليوباترة .

من هذا العرض السريع يتبين مبلغ الصعوبة فى تفهم تاريخ حياة هذه الملكة على حقيقته ، لما فيه من تداخل وازدواج ، بجانب منه من صميم التاريخ المصرى فى إحدى حقبه الحاسمة ، ولكن الجانب الأكبر منه متغلغل فى آفاق أكثر اتساعاً ويمثل مرحلة هامة من تاريخ الجمهورية الرومانية نفسها ؛ وبالطبع كان لكل جانب منهما ظروفه وملابساته ، وما أكثر التداخل بين الجانبين وما أشد تشابك المصالح بين الطرفين ، فالسياسة المصرية فى ذلك الحين كانت تدور فى الفُلْك الرومانى الذى كانت له دخائله ومصالحه البعيدة المرمى ، فقواد الرومان وأساطين ساستهم لم يتركوا مصر وشأنها ، بل أدخلوها فى حسابهم وعولوا على كنوزها وخيراتها فى برامجهم السياسية ؛ والملكة بدورها ، ورثت عن أبيها تقليداً مرعياً ، كان يقضى بالانحياز إلى الرومان والاعتماد على جانبهم فى التأييد الداخلى والخارجى ؛ ثم إن أباها كان قد كشف لها وهى لا تزال فى مطلع حياتها عن كنه هذه السياسة ، وأطلعها على مضمونها ، فهل كان فى وسعها أن تتبع سياسة استقلالية ، وأن تحافظ على هذا الاستقلال بمواردها الخاصة ؟ أم أن ظروف الحال كانت تقضى عليها بأن ترتبط أشد ارتباط بزمرة من القواد الرومان اللامعين ؟ إنها رأت رأى العيان أن مقاليد العالم فى أيديهم وأنه لا مناص لمصر من أن تصانعهم وتسير فى ركبهم ولو إلى حين ؛ وعلى هذا النحو تغلغلت أطوار حياتها فى خضم تلك السياسة العالمية ، وعاصرت حقبة من التاريخ الرومانى كانت حاسمة فى تقرير مصير الجمهورية الرومانية (Res Publica) وهى التى تَعِبَ الرومان نحو خمسة قرون فى تكوينها ، وإرساء قواعدها ونظمها الفريدة والمحافظة على كيانها ، وتوسيع رقعة أملاكها فى حوض البحر المتوسط حتى أصبحت تضم كل بلاد العالم المتحضر إذ ذاك ، والمطلة على حوض هذا البحر ، ثم كانت فعالة بالتالى فى تقرير مصير مصر ، وإنهاء صفحة مجيدة من تاريخها على نحو فريد أخذ بالألباب وشغاف القلوب . وكليوباترة منذ توليها العرش سنة ٥١ق . م إلى أن انتحرت بطريقة روائية سنة ٣٠ فى قصر اعتصمت به فى الإسكندرية ،

كانت تجلس على عرش متأرجح فى خضم أحداث جسام طوال هذه العشرين عاماً التى قضتها ، مؤيدة بجند الرومان ، وما كان فى مكْنتها بوصفها إمرأة ، لها قصورها الطبيعى ، أن تسلك سبيلاً غير الذى فعلته ، وأن تُؤْثر اتباع سياسة إستقلالية بدلاً من الاعتماد على عظماء الرومان وقادتهم فى تأييد حكمها وتثبيت عرشها .

وعقب وفاة بطلميوس أوْليتيس عام ٥١ ق.م تربعت كليوباترة بالاشتراك مع أخيها الصغير على عرش مصر ، فكان حكماً ثنائياً غير متكافىء ، اكتنفته الظروف والصعاب على نحو غير مألوف فأخوها بطلميوس شاب فى العاشرة من عمره وأخته تكبره ، إذ تبلغ إذ ذاك ثمانية عشر عاماً . وما كانت العلاقات بين هذين الأخوين ليسودها الوئام والود ، والبلاط المحيط بهما فاسدٌ ، تغشاه شخصيات متباينة متآمرة ، فمن خِصْيان إلى قواد على قوات من الجند المرتزقة ، إلى كهنة ووزراء ، وكلٌ يعمل لحسابه الخاص . والملك باعتباره قاصراً كان يحيط به ثالوث من الأوصياء ، يتألف من الخصى بوثينوس الذى وُكل إليه أمر الإدارة العامة وبخاصة الشئون المالية ، ومن أخيلاس المتولى قيادة القوات المسلحة ، ثم من ثيودوتس وهو من أهل ساموس وكان رائد الملك ، والمشرف على تربيته وتثقيفه . وسوف نرى ما ما تتمخض عنه ظروف هذا الحال ، وهل كان فى وسع الملكة الشابة أن تقبل الخضوع لحكم هذا الثالوث وبَغْيه ؟ أم تتبع سياسة استقلالية ؟ تتخذها منهاجاً لنفسها . وفى خلال السنين الثلاث التالية أصبح لا مناص من الإجابة على هذا السؤال بطريقة لا تقبل الشك ، فطردت كليوباترة من البلاد فى السنة الرابعة من حكمها ، مثلها مثل أبيها من قبل ، ولكنها لم تستسلم ، بل جمعت جيشاً مرتزقاً بما كان لديها من أموال ، ووقفت فى سنة ٤٨ ق.م بالقرب من الفرما على رأس هذا الجيش على حدود مصر وسوريا ، على أهبة واستعداد للدفاع عن حقوقها وتسوية الحساب مع أخيها وبطانته فى ميدان القتال . إن إرادتها التى لم تكن تفل ، وشكيمتها التى لا تنثنى ، ورغبتها فى أن

تثبت وجودها — كل ذلك كان قد بدا ظاهراً للعيان منذ أول الأمر على نحو جعل هذا الثالوث من رجال البلاط ، يخشى بأسها، ويعمل على التخلص منها فوجهت إلى الملكة تهمة العمل على تدبير أمر الخلاص من أخيها وشريكها فى الملك ، وكان جزاؤها الطرد ، ولكنها حرصت على أن تبقى ملكة (basilissa)على مصر وعملت على الاحتفاظ بملكها وأبهته مهما كلفها ذلك. وكان أخوها الملك الشاب على رأس جيش عظيم جمعه ليحارب به أخته كليوباترة ، التى كان معسكرها على مسافة قصيرة من معسكره .

وصادف فى ذلك الحين أن كان بمپي يحارب يوليوس قيصر والتقى القائدان فى موقعة فرساليا ببلاد اليونان سنة ٤٨ حيث لحقت الهزيمة بالأول وولى وجهه شطر مصر آملا أن يجد فيها الملاذ ، وساعياً وراء الحصول على مساعدة تكون بمثابة ردٍ للجميل الذى كان قد أسداه للملك بطلميوس أوليتيس من قبل ، عندما ساهم فى رده إلى عرشه ؛ ولكن خاب ظن بمپي . وفى هذا الصدد يسرد لنا المؤرخ اللاتيني ليفي والكاتب اليوناني پلوتارخوس بأسلوبه القصصي وبطريقة مؤثرة تلك الفاجعة الأليمة التى حلت بمپي عندما رسا على شاطىء الفرما فى قارب صغير فقتلته يد أثيمة بإيعاذ من رجال الحاشية المسيطرين على الملك ، طمعاً فى كسب رضاء قيصر الذى كان يتعقب أثر غريمه بمپي حتى ساقتهما المقادير إلى مصر . وبحسب ما جاء فى پلوتارخوس لم يسع قيصر عندما شاهد خاتم بمپي ، وتعرف على نقش الأسد المحفور على هذا الخاتم ؛ إلا أن يذرف دمعاً هتوناً على غريمه الذى خر فى ميدان الخديعة والخيانة . وبعد ذلك واجه قيصر الوضع الراهن فى مصر بشجاعة ، وقبض على ناصية الأمور فيها، وبذل جل اهتمامه فى تصريف شئون البلاد[1] .

---

(١) قيصر ، الحرب الأهلية (Bellum Civile) فصل ١٠٧.

الفصل الثاني

كليوباترة ويوليوس قيصر

في هـــذه المرحلة الدقيقة من حياة كليوباترة ، اعتملت في رأسها شتى المشاعر ، فهي امرأة في مقتبل العمر ، أوتيت قسطاً لا بأس به من الجمال ، على الرغم من أنفها الطويل المحدودب وفمها الكبير ، وفوق ذلك فإنها كانت على قدر كبير من الذكاء والجاذبية والمعرفة بحسن استغلال الظروف السانحة . إنها كانت تعرف الشيء الكثير عن قيصر الذي كان يبلغ من العمر إذ ذاك اثنين وخمسين سنة ؛ ولا ريب أنها سمعت عن غرامياته ومغامراته ، وميله إلى النساء ، كما سمعت عما أظهره من مقدرة فائقة في أعمال السياسة وشئون القتال ، وما كسبه من انتصارات باهرة . ومع أن هذا القائد الروماني كانت تتوج هامته كل هذه الانتصارات ، وغزواته لقلوب كثير من النساء ربما أثارت عجب امرأة شابة مثل كليوباترة ، فإنه قبل كل شيء روماني بالنسبة لها ، بينما هي سليلة بيت مقدوني مجيد ، ويجري في عروقها دم ملكي إلهي .

جالت بخاطرها مثل تلك الأفكار ، وأخذت تداعب خيالها آمال كبار ، ولكنها لم تنس أبداً في تصرفاتها معه الاحتفاظ بهيبتها وسمو مركزها . وها هي الأقدار وحدها قد ساقت هذا البطل الروماني العظيم إلى مصر ، وألقت به في طريق كليوباترة وهي إذ ذاك في محنة قاسية ، تقود جيشاً وهي امرأة ، لا حول لها ولا طول ضـــد أخيها وشريكها في الملك وبطانة السوء المحيطة به . فماذا يضيرها أن تجد الخلاص من أزمتها التي ألمت بها على يد قيصر ؟ إنها دبرت أمرها ، وأحكمت خطتها ، وأغنانا بلوتارخوس وديوكاسيوس بأن رويا لنا قصة فرارها على نحو روائي من المعسكر الخاص بها في الفرما إلى الإسكندرية ، فركبت قارباً صغيراً في ظلام الليل الدامس متسللة دون أن يلحظها أحد من حرس خصومها ، وفي صحبتها رجل صقلي كان محل ثقتها وهو أبوللودوروس ،



يوليوس قيصر

ورست فى ميناء الإسكندرية الكبير ، وحملت إلى القصر الملكى فى طيات بساط أحكم رفيقها لفاته ونشرت هذه الطيات أمام قيصر ، فخرجت منها الملكة التى كانت تبلغ من العمر إذ ذاك الواحد بعد العشرين ، ومثلت أمام قيصر المشدوه فبهرته فى الحال ، واستهوته بجرأتها وجسارتها .

وكان المعاصرون لكليوباترة يعرفون جيداً أن قوة جاذبيتها هى فى مواهبها العقلية ، وطباعها ودماثة خلقها . وفى حين أن أحداً من أسلافها من ملوك البطالمة وملكاتهم لم يستطع أن يقنع نفسه بضرورة تعلّم اللغة المصرية، بل إن البعض منهم أهمل كذلك اللهجة المقدونية نفسها، فإن كليوباترة أوتيت ملكة وموهبة مرموقة فى هذا الشأن فتعلمت الكثير من اللغات الأجنبية ؛ وبالإضافة إلى اللغة المصرية، واللهجة المقدونية ، واللغة اليونانية ،كانت تعرف لغة الأثيوبيين والعرب والتروجليدتيين، فضلاً عن لغات شعوب آسيا الغربية بما فى ذلك السريانية والميدية والآرامية ، واستطاعت بفضل هذه المقدرة اللغوية أن تستغنى عن المترجمين ، وأن تجرى أحاديثها وسبل تخاطبها فى يسر وسهولة ، فكانت تنتقل من لغة لأخرى فى براعة تستهوى الأبصار والأسماع وتستحق الإعجاب ، وفوق ذلك فإن نبرات صوتها كانت أشبه بصوت القيثارة ، له رنين مختلف النغمات . وقيصر الذى عرف بتأنقه البالغ فى الأسلوب الكتابى (elegentia summa scribendi) وبتعمقه فى المعرفة والعلم بأصول الفنون والعلوم ، على قدر معرفته بالسياسة وشئون القتال ، لا بد أنه أنس فى حديثها والاجتماع بها لذة وإغراءاً ، فهى امرأة حاضرة الذهن ، تألق فى شخصها ما بقى لتاج البطالمة من روعة ، وانتهجت لنفسها سياسة خاصة ، فكان هذا مدعاة لأن تستهوى قيصر بما عرف عنه من حب المغامرة والمقامرة .

كان وصول كليوباترة إلى الإسكندرية على هذا النحو المفاجىء ومحاولتها أن تكسب تأييد سلطان الرومان فى شخص قيصر ، سبباً فى غضب السكندريين وسخطهم الشديد . ولما استدعى قيصر فى اليوم التالى بطليوس

لإصلاح ذات البين ، وإعادة الأمور إلى مجاريها بين الأخ وأخته ، جن جنون هذا الأخ عندما وقع بصره على أخته وخرج ثائراً وسط الجماهير المحتشدة أمام القصر الملكى ، وألقى بالتاج من فوق رأسه ، وهو يصيح بأنها الخيانة، فثار الجمع ، وهدد الغوغاء بمحاصرة القصر ، وخرج إليهم قيصر ليعمل على تهدئة خواطرهم ، ووعدهم بتنفيذ رغباتهم . وفى جمع للسكندريين حضر قيصر بوصفه ممثلاً للشعب الرومانى ،وقرأ عليهم وصية الملك الراحل ، وقضى بأن يتزوج الملك من أخته كليوباترة ، وأن يشترك الاثنان فى الحكم بمصر تحت حماية الرومان ووصايتهم ؛ واقترح كذلك بحسب ما جاء فى « ديو » أن يسمح لبطلميوس الأصغر وأخته الصغرى أرسينوى أن يقوما بالحكم فى قبرص ، وهى إذ ذاك فى حوزة الرومان بعد أن كانت قد سلخت من أملاك مصر منذ عشر سنين مضت، وبذلك ردت الجزيرة إلى الملك البطلمى على يد ذلك الغازى الرومانى الذى كان قد لقب منذ قليل بالدكتاتور ، وأصبح المتصرف وحده فى شئون الرومان وأملاكهم . وقد تم الاحتفال بزواج الملك الشاب وكليوباترة فى حفل بهيج ، وبذا تحقق لكليوباترة أول نصر لها ، فالإمبراطورية البطلمية توقف تدهورها وانهيارها ، وبقى أن نرى هل تستطيع كليوباترة أن تحقق رسالتها فى إعادة المجد الغابر والعظمة التى كانت لهذه الدولة على أيام بطلميوس فيلادلفوس ويورجتيس الأول فى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد .

حرب الإسكندرية بين قيصر والشعب السكندرى

على أن موقف هذا الحامى الرومانى لعرش كليوباترة ما لبث أن أصبح محفوفا بالمخاطر ، ففى أثناء مقامه فى القصر الملكى ، محاطاً بسلالة بطلميوس أوليتيس وهم أربعة ، اتخذ من كبراهم محظية له . وعندئذ عمدت الأخت الصغرى ، أرسينوى ، إما بدافع الغيرة من سلطان أختها كليوباترة ، وإما بتحريض من بوثينوس ، مربى الملك ورائده ، إلى الفرار مع خصيها المسمى جانيميديس ،

ولحقت بالجيش المرابط فى الفرما حيث نودى بها ملكة على البلاد المصرية [1].
وعلى الرغم من أنها كانت تبلغ إذ ذاك سبعة عشر عاما ، فإنها أصرت على الإشتراك فى تولى قيادة الجيش مع أخيلاس ، ثم ما لبثت أن غدرت به ودبرت قتله ، وانفردت بتولى القيادة ، ونصّبت خصيها على رأس القوات المحاربة ، فضاعف من أعطيات الجند وهباتهم ، أملاً فى كسب رضاهم ، ولكن قسوته جرّت عليه كراهيتهم ، وسرعان ماضاق الجند ذرعاً بما كان يبدو على ملكتهم الشابة من تقلب الأهواء ، وفى العبارة اللاتينية التالية إشارة صريحة إلى ما كان يساور جموع الجند من ضيق بتلك الملكة الشابة (multitudinem confectam taedio puellae) فبعثوا إلى قيصر يطلبون إليه إعادة ملكهم . وكان قيصر قد احتفظ به فى القصر ليكون تحت تصرفه وقد استجاب قيصر لمطلبهم ، وسمح للملك الشاب بأن يلحق بهم بعد أن زوده بالنصح والإرشاد . وسواء أكان قيصر قد اتخذ هـذا الإجراء بدافع الطيبة (bonitas) وحُب الخير ، أم أن هناك دوافع أخرى فإن تصرف قيصر ينم عن حصافة وبُعد نظر ، وينطوى على حركة بارعة ، إذ كان يأمل أن يشتد التنافس بينه وبين أخته الصغرى أرسينوى . وبذلك تخف حدة القوة الضاربة لدى العدو . وقد أشار إلى هذه الواقعة مؤلف كتاب حرب الإسكندرية (Bellum Alexandrinum) المنسوب إلى هرتيوس (فصل ٢٤)، فقال إن بطليموس بعد أن ذرف دموع التماسيح ملحاً فى الرجاء بأن يسمح له بالبقاء فى صحبة قيصر ، وثب لتوه بعد إطلاق صراحه متنكرا لتلك الدموع ، ومضى يشن حرباً شعواء ضـد الرومان بعد أن أقصى أخته أرسينوى وخصيها جانيميديس عن قيادة الجيش . فأخذ يُشدّد الحصار على الإسكندرية ، وقاسى قيصر الشىء الكثير من جراء هذا الحصار وتعرض لأشد الأخطار ، فسُدت القناة الرئيسية التى تمد الإسكندرية بمياه الشرب من النيل ، وحولت المياه الملحة إلى الأفرع التى تأخذ من هذه القناة وتمد السكان بالمياه ، ولكن

(1) Cassius Dio. XLII, 39; Caesar, Bellum Civile III, 112.

قيصر كان أوسع حيلة فلم يتسرب اليأس إلى قلبه ، وأمر على الفور بأن تحفر آبار بجوار شاطىء البحر ، علماً منه بأن القاعدة العلمية تقضى بأن مياها عذبة لا بد متفجرة من هذه الآبار المحفورة بالقرب من الشاطىء ، وقضى رجال قيصر الليل كله فى حفر هذه الآبار التى انبثقت منها على الفور مياه عذبة(١) . ثم أخذ يقيم المتاريس فى شوارع الاسكندرية الضيقة ، وعمد إلى اتخاذ موقف دفاعى إلى أن تصله الإمدادات الأولى من آسيا عَبْر الشام ، وقوامها عدد من ناقلات الجند والفرقة السابعة بعد الثلاثين ، وعندئذ اتخذ موقفاً هجومياً. وقد أظهر قيصر ضروباً كثيرة من سِعَة الحيلة وإحكام الخطة والموهبة العسكرية ، فغامر ذات مرة بحياته، غير آبه بها وعام البحر مسافة تبلغ مائتى ياردة ، وكان العدو يقتفى أثره ، ووقعت عباءته العسكرية فى أيدى خصومه . وقد أنقذ موقف الرومان وصول إمدادات أخرى بمقادير كافية فى ربيع سنة ٤٧ ق.م ، وكانت هذه تتألف من أهالى آسيا الصغرى وسوريا بالاشتراك مع ثلاثة آلاف من اليهود يقودهم ميثريداتيس البرغامى. واستولى هذا الجمع على الفرما عنوة، وتقدم صَوْب منفيس دون أى عائق ثم سار بحذاء الفرع الغربى للدلتا ميمماً شطر الإسكندرية ، فكان وصول هذه القوات إلى مشارف المدينة إيذانا بتغير موقف الجانبين المتقاتلين وقلب خططهما رأساً على عقب. وقد عَوَّل بطلميوس وهو على رأس جيشه على الإسراع لملاقاة هذا الجيش الزاحف والإلتحام به قبل أن يتصل بقيصر ، ولكن هذا التدبير أفسده قيصر بأن رسا ليلا على الشاطىء غربى الإسكندرية ، وتابع مسيره وزحفه إلى أن التقى بميثريداتيس فى الوقت المناسب ، وانقض الجانبان على المعسكر المصرى ، ففر

---

(١) حرب الإسكندرية ، الفصلان ٦ ، ٨؛ يقدم لنا هذا النص اللاتينى بينة من طراز فريد فيصور لنا حالة الإسكندرية ومبانيها وشوارعها ومساقيها وأن المدينة كانت بمأمن من أخطار الحريق لاستخدام البلاط والأحجار والعقود المسقوفة وتجنب الأخشاب . والوصف على روعته وجديته ومايتصف به من أصالة، يمتاز بأنه يحكى لنا حالة المدينة وما كان يمتاز به أهلها من ذكاء وحيوية وقدرة فائقة على الابتكار ، ومع كل هذا فقد لازمها الحظ العاثر فى حربها ضد يوليوس قيصر الذى هزمها رغم ضعف موارده الحربية وقلة المواد الغذائية وقطع موارد المياه العذبة من النيل عنه، وبذلك وطد مركز كليوباترة وأمن جانبها .

المصريون إلى سفنهم الراسية فى النيل يحتمون فيها ، واكتظت أعدادهم ، واختل توازنهم ، وغرق الكثيرون منهم ، وقد أبلى بطلميوس بلاءاً حسناً ، ولكنه غرق فى النيـــل ، وانتشلت جثته وجرى عرض درعه الذهبي على شعب الإسكندرية ليكون شاهداً حسياً على وفاة الملك . وعندئذ أسبغ قيصر مُلك البلاد على الأخ الأصغر ، وله من العمر إذ ذاك أحد عشر عاماً ، بالاشتراك مع كليوباترة فحكما بوصفهما الإلهين المحبين لأبيهما[1] . وقد حافظت كليوباترة فى هذه المرحلة الدقيقة من الحرب على ولائها لقيصر وبقيت فى رعايته ، أما أرسينوى فقد بعث بها قيصر إلى روما باعتبارها أسيرة لعرضها فى موكب نصره ، كما أن فى إبعادها إزالة سبب من أسباب قيام الإضطرابات من أجل توليها العرش ، وتأمين ظهر كليوباترة ، وضمان سواد السلم والطمأنينة فى هذه البلاد التى أصبحت بالنسبة له أثمن من أن يسمح بتعرضها للأخطار مرة أخرى . وأبقى ثلاث فرق رومانية تحت إمرة جندى قدير هو روفينوس (Rufinus) لتحمى عرش كليوباترة . وما كانت هذه لتخشى شيئا بعد أن تخلصت من الثالوث المؤلف من بوثينوس وثيودوتس وآخيلاس بالقتل ومن بطلميوس بغرقه ومن أختها أرسينوى بإبعادها إلى روما لتلقى حتفها هناك إثر عرضها فى موكب نصر قيصر ، وهى مكبلة فى السلاسل والأغلال. وطالما كانت كليوباترة تحظى بتأييد أعظم الرومان شأناً فى عصره فلا خوف عليها . وكانت كليوباترة إذ ذاك (يناير سنة ٤٧) تحمل جنينا من قيصر ، وركبت فى صحبته سفينة فخمة (دهبية) إلى أعالى النيل بقصد النزهة والترويح عن النفس بعدما ألمّ بهما من جهد وعناء . وقد بالغت فى الاحتفاء بقيصر وتكريمه ، وإظهار معالم العظمة والفخامة التى اشتهر بها البلاط السكندرى ، فكانت هذه « الدهبية » مثلا رائعاً على حب البطالمة فى إقامة المنشآت الضخمة [فطولها ثلثمائة قدم وعرضها خمسة وأربعون قدما وارتفاعها ستون قدما] . وقد أتيح لقيصر أن يجوب البلاد فى هذا الفلك المشحون ، وأن يشاهد معالمها ويتفقد

---

(١) حرب الإسكندرية ، الفصلان ٣١ و ٣٣ .

أحوالها، ويتعرف على معالم الجهاز الإدارى البيروقراطى السائد فيها، وقد نسق على الطراز الهيلينستى منذ عصر فيلادلفوس فأصبح مضرب الأمثال فى الإبداع والاتقان . وإنه لما يسترعى النظر أن الكتاب القدماء كفوا عن تزويدنا بالتفاصيل عن مبلغ مالقيه قيصر من حفاوة فى أثناء تجْواله فى أرجاء مصر عقب انتهاء حرب الإسكندرية ، مع أنه لما جاء ذكر حَفَلات المرح التى أسهم فيها ماركوس أنطونيوس مع كليوباترة فيما بعد ، بالغوا وأسهبوا فى وصفهم دون أن يقفوا عند حد . ولعل مرجع هذا التباين الغريب فى الحالين من حيث القصور فى الناحية الأولى ، والإفاضة إلى حد الإغراق فى الناحية الثانية ، هو إيحاء من اكتافيوس ، باعتباره وريث قيصر وربيبه ، فكان يرى أن فى العلاقة بين أبيه بالتبنى وبين كليوباترة التى أصبحت خصماً لدوداً له ، ما يشينه ويسىء إليه إذ أن ابنها من قيصر يعتبر وصمة عار فى جبينه ، ولذلك كان حريصاً كل الحرص على أن يمحو من أذهان معاصريه بقدر المستطاع ذكرى هذه العلاقة المشينة ، حتى ينساها الناس أو يتناسوها فتبقى فى خلفية الصورة الماثلة فى الأذهان .

وإن رحيل قيصر من مصر ، ومراحل خطواته التالية ليمكن تأريخها فى شىء كثير من الدقة ، فاتخذ سبيله عن طريق الشام إلى آسيا الصغرى حيث التحم فى زيلا بينطش فى ربيع ٤٧ ق . م بالملك فارناكيس وأنزل به هزيمة منكرة فى أقل من أربع ساعات ، وقد بعث إلى روما بنبأ هذا النصر الباهر فى عبارة لاتينية مشهورة هذا نصها (Veni, vidi, vici) وترجمتها « حضرت فرأيت فانتصرت» ، وقد جرت مثلاً بين الناس على مبلغ الإعتداد بالنفس . وكان هذا النصر فاتحة سلسلة من الانتصارات التى أنزلها بأنصار بمپى وأذنابه فى أفريقيا وأسبانيا ، وسوف نرى فى خِضَم هذه الأحداث هل يصبح لقاؤه بكليوباترة فى الإسكندرية مجرد حلقة براقة عابرة فى سلسلة انتصارات هذا القائد العظيم ؟ أم أنه سيمضى فى طريقه معها إلى النهاية

لا يرعوى ولا يأبه بالنتائج ، فيخص الملكة بمنزلة رفيعة فى برنامجه ، ويضفى عليها من مراتب التكريم أعلى منزلة .

ومرة أخرى كان القدر كريماً مع كليوباترة فوثق العلاقة بينها وبين قيصر بأن ولدت له إبناً فى صيف عام ٤٧ ق.م، وقيل إن هذا الابن كان شديد الشبه بأبيه من حيث الخلقة وإنه كان يمشى مشيته عندما شب وكبر[1]. ومن البيِّن من العبارة الواردة فى الفصل التاسع بعد الأربعين من حياة قيصر لبلوتارخوس أن قيصر كان قد رحل إلى سوريا قبل أن تضع كليوباترة هذا الطفل الذى أسماه السكندريون قيصرون ، أو قيصر الصغير (Caesarion) ، تيمناً باسم أبيه . وقد اكتنفت حياة هذا الابن الكثير من الصعاب نظراً لأن المستقبل الذى كان يُعد له ، كان مخالفاً لغيره من أمراء أسرة البطالمة . إنه كان يُربى على أنه وريث قيصر الذى أصبح بعد موت ابنته « يوليا » من غير عقب . ونظراً لما كان يؤهل له هذا القيصر الصغير من دور خطير ، ولما كان ينتظر أن يقوم به فى المسرحية السياسية المرتقبة ، وما حل به من مصير أليم لقيه فى مقتبل حياته بقتله ، فإنه لا عجب أنه حتى فى العالم القديم انبرى بعض الأطراف المعنيون بهذا الأمر ، ومنهم أكتافيوس وريث قيصر بالتبنى ، وأخذوا يشككون الناس فى بُنوة قيصرون ، ويثيرون الغبار حول صحة مولده ، ويتساءلون هل كان قيصر والده حقاً ؟ واستناداً إلى بعض العبارات المشوبة بكثير من الغموض مما ورد فى خطابات شيشرون لصديقه أتيكوس بشأن الملكة كليوباترة ومُقامها فى روما نحو سنتين من صيف ٤٦ ق. م إلى ربيع ٤٤ ق.م وما كانت تظهره من كبرياء وغطرسة ، فإن العالم الفرنسى كاركوبينو (Carcopino) انبرى لتناول علاقة قيصر بكليوباترة ، فقسا عليها فى مقاله الذى نشره بإحدى المجلات العلمية[2] فأرّخ بالفعل مولد قيصرون فى أبريل

---

(1) Suetonius, Caesar 52; Plutarch, Caesar XLIX.

(2) Carcopino, César et Cléopatre, Études d'Archèologie Romaine, 1937, pp. 37—78.

من عام ٤٤ على أبكر الفروض ، أى عقب موت قيصر ، ثم أضنى نفسه فى التخريج والاستنباط للبرهنة على استحالة أن يكون قيصر هو والد هذا الطفل على أساس حساب تقريبى عن وجود قيصر فى روما ، ولكن الحقيقة التى لا مراء فيها أن قيصرون ولد فى حياة قيصر ؛ وشاهدُنا على ذلك أن أنطونيوس قرر فيما بعد فى مجلس الشيوخ الرومانى أن قيصر اعترف ببنوة هذا الطفل . وهذا التصريح من جانب أنطونيوس يدل، على أقل تقدير ، على أن الطفل ولد فى حياة قيصر . هذا فضلا عن أن إقامة الملكة فى قصر قيصر على ضفاف التيبر وفى ضيافته بالذات ، وسماحه بإقامة تمثال لها من الذهب فى معبد ڤينوس جينتريكس ، جدة العشيرة اليوليوية ، ينفى هذه التهمة المغرضة. وفى تصرفات قيصر إزاء الملكة ، وما ردده شيشرون من شائعات بأن الملكة حامل من قيصر مرة أخرى ، ثم ما اتخذته كليوباترة من مراسم دينية ونقوش رسمية على المعابد ، كل هذا ينهض دليلا على صحة نسب قيصرون ، ثم إن ابتهاج الملكة وإعلانها على الملأ هذا النبأ السعيد له دلالته ، فصَوَّرت ابنها فى هيئة حورس إلى جوار أمه إيزيس وهما يُعبدان، ثم ظهرت عملة ، سكت فى قبرص ، وقد نقشت عليها صورة كليوباترة وهى مرتدية شارات أفروديتى — إيزيس وتقوم بإرضاع إبنها قيصرون ، وبذلك أسبغت على مولد هذا الطفل طابعاً رسمياً له شأنه . على أن الكُنية أو اللقب القيصرى الذى اختارته له أمه له مغزاه . وما لم يكن قيصر هو والده حقاً فإن هذه التسمية تصبح غير مستساغة ، وغير مفهومة على الإطلاق ، ولا يعقل أن يسمح قيصر بأن يُنسب إليه ابن شخص آخر غير معروف ، ولا يتسق هذا مع ما نعرفه من دعوة قيصر للملكة فى صيف عام ٤٦ ق. م بأن تحضر إلى روما وفى صحبتها ابنها بالطبع .

مقام كليوباترة فى روما

(من صيف ٤٦ ق. م — أبريل سنة ٤٤ ق. م)

بناءً على دعوة من قيصر لحقت كليوباترة به فى روما فى صيف عام ٤٦ ، وفى صحبتها ابنها الرضيع قيصرون، وأخوها الصغير وزوجها الملك بطلميوس الرابع عشر . ومن المحتمل أن مولد ابن كليوباترة هو الذى قرر مصير هذا الملك الصغير الذى مات أو لقى حتفه مسموماً ، إما فى روما أو بالاسكندرية عقب عودة الملكة بقليل بعد مقتل قيصر . وقد اتخذت الملكة مقامها فى قصر القيصر محاط بالحدائق الغناء على ضفاف التيبر وحرصت على الاحتفاظ ببلاط وحاشية فيه ، ووفدت عليها أهم الشخصيات وأخذت تتردد على قصرها ، وشاركت هى فى رسم الخطط العالمية الجارية ، وأتيحت لها فرصة الاطلاع على ما كان يجرى من أحداث فى روما وفى خارجها ، بل إن دورها فى توجيه السياسة الرومانية العالمية كان ملحوظاً ، ويدها كانت المحركة من وراء ستار لدفة الشئون . ذلك كله يمكن استنباطه من مجرى الحوادث ، وإن لم تقم عليه أدلة قاطعة. وعلى ذلك انبرى بعض المؤرخين والكتاب ، وتناولوا تلك الحقبة القصيرة وهى فترة مقامها فى روما بالتحليل والتفصيل ، وأخذوا ينقبون عن البواعث الكمينة والمشاعر الدفينة التى كانت وراء هذه الزيارة فى نفس كل من قيصر وكليوباترة ، بل عن سر هذا المقام الطويل بين ظهرانى الرومان الذين أخذوا يتساءلون عما إذا كانت السياسة هى الدافع الأول له ، أم أن دواعى الحب ولواعج الغرام وغصة الفراق هى التى دفعت قيصر لتوجيه هذه الدعوة لكليوباترة ، غير عابىء بمشاعر الرومان ومتحدياً لهم بإسكانها فى قصره .

ونظراً لما لهذه الفترة من أهمية وما صاحبها من تطورات أليمة ، انتهت بفاجعة اغتيال قيصر نفسه فى منتصف مارس سنة ٤٤ ق. م ، فإنه يَرُوق المؤرخ أن يتلمس الأسباب ويناقش الشواهد والأدلة التى قامت فى حقبة

تستحق منا بعض التحليل . ومما لا ريب فيه أن الملكة شعرت بحرج شديد عقب اغتيال قيصر فعجلت بالرحيل من روما للتخلص من هذا الحرج . وعملت على تأمين وصولها إلى مصر خشية أن تتطور الأمور إلى أسوأ في جو مشحون بالتكهنات في روما ، وقد ردد الكاتب والخطيب شيشرون بعض الأصداء من هذا الجو فيما كان يبعث به من رسائل إلى صديقه أتيكوس ، يبث فيها مشاعره ، ويعبر عن آرائه ، وينفث دعاية مسمومة ضد الملكة في غير حرج . وإنها لحقبة حاسمة من حياة كل من يوليوس قيصر وكليوباترة مع أنها لا تعدو السنتين (من سبتمبر «يوليه» سنة ٤٦ — أبريل سنة ٤٤) . وعلى نحو ما قيل كانت الملكة فيها لا تكف عن إسداء النصح والتحذير لقيصر مما كان يدبر له في الخفاء ، وما كان يحاك ضده من دسائس ومؤامرات ، واستطاعت في خلال هذه الفترة أن تشهد عياناً وعن كثب الأحداث الجارية ، واتصلت بالأشخاص المقربين لهذا الرجل العظيم في السنتين الأخيرتين من حياته ، وشهدت حفل النصر الذي أقامه هذا القائد المظفر ، والموكب العظيم الذي سارت فيه أختها الصغرى أرسينوى وملوك آخرون وهم مُكبلون في السلاسل والأغلال وأعلن به قيصر على الملأ أنه أنهى حرباً أهلية أضنت روما وكادت تزلزل كيانها . وفوق ذلك فإن مقامها أتاح لها الوقوف على أسرار الخطة الطموحة التي كان هذا السياسي يبغي أن يستبدل بها النظام التقليدي لحكومة الجمهورية الرومانية ، وإحلال نظام آخر محله ، يكون من صنع يده هو ومن تدبيره . ولربما كان هذا الذي يفكر فيه قد اقتبسه مما شاهده أو سمعه عن الملكية المصرية الهيلينستية ذات الطابع البيروقراطي ، على اعتبار أن هذا النظام مُجرَّب في مصر ، وأثبتت التجربة صلاحيته في وادي النيل . وفي آخر المطاف شهدت الملكة في روما الحدث الأليم المفجع الذي حل بهذا البطل في ١٥ مارس سنة ٤٤ق.م في أحد أبهاء مجلس الشيوخ الروماني عند ما مزقت أحشاءه ، وهو في عنفوان قوته ، خناجر المتآمرين ، وعلى رأسهم بروتس وكاسيوس ، ونجم عن ذلك إشاعة الفوضى في العالم الروماني من جديد ، وتزعزع مركز كليوباترة مرة أخرى .

وهنا قد يتساءل المرء عما يمكن أن يكون هناك من علاقة بين كل هذه الأحداث ، وبين مقام كليوباترة فى روما ، وهل كان لذلك المقام أثر مباشر على تتابع الحوادث والتعجيل بوقوعها ، وما هو الدور الذى كان قيصر يزمع تخصيصه الملكة فى برنامجه ومشروعه نحو عالم جديد، وهل كان الحب الخالص أم السياسة ودواعيها هى الحافز على دعوة الملكة للحضور إلى روما على هذه الصورة الغريبة ؟ ـ تلك وأشباهها أسئلة عميقة لا سبيل إلى سبر غورها ، والتعرف على كنهها . وقد اختلف المؤرخون فى معالجتها ، فمنهم من نحا نحوا فيه تطرف ومغالاة ، فأنكر تماماً وجود أى أثر للشاعر الشخصية لدى قيصر ، مؤكداً أنه لم يقم أى وزن إلا للعوامل السياسية البحتة ، فكان من رأيهم أن دعوة قيصر لكليوباترة لتقيم فى روما ، كان رائدها أن تكون تحت سمعه وبصره فى روما ، بل تحت رقابته وأنه كان يريد أن يؤمن ظهره عندما يحين حين ذهابه إلى الشرق لتحقيق مشروع طالما داعب حلمه وهو إخضاع الفرس . وهؤلاء يبررون ظنهم هذا بأن كليوباترة باعتبارها امرأة لم تعد بالنسبة له ذات أهمية خاصة ، لما عرف عن قيصر بعد ذلك من أنه كانت له صلات ومغامرات مع نساء أخريات ، منهن زوجة « بوجود » ملك ماوريتانيا (مراكش) فى أثناء حملة قيصر الاسبانية سنة ٤٦ /سنة ٤٥ ق.م ثم يمضون فى التدليل على وجهة نظرهم ، بأن مهام كثيرة للدولة وأعباءها كانت تقع على كاهل قيصر باعتباره قائداً وسياسياً وهذه كانت تستلزم فى أحيان كثيرة تغيبه عن روما ، وبالتالى بعده عن كليوباترة مدى فترات طويلة ، ففى نوفمبر سنة ٤٦ق م كان فى طريقه إلى أسبانيا ولم يعد إلى روما إلا فى سبتمبر سنة ٤٥ق.م وعلى ذلك فإن زيارة كليوباترة إلى روما لو صح أن الهدف منها كان لتحقيق أغراض ومآرب شخصية بحتة لدى قيصر ، فإن الوقت الذى اختير لها لم يكن موفقاً ولا سعيداً .

على أن مثل هذه الاعتبارات وأشباهها من الأقاويل التى ليست بذات أهمية ، لا يجب أن تصرفنا عن أخذ بعض الحقائق فى الاعتبار عند تقدير ما كان لمقام كليوباترة فى روما من أهمية ، والنظر إليه فى ضوئه الصحيح . وإذا

قصَرنا البحث فى هذه الزيارة على وجهة النظر الخاصة بالتعرف على مدى صواب هذا العمل ، وعما إذا كانت دواعى الحكمة السياسية هى التى أملته. فإن هذه الزيارة، بما أثارته من نقد شديد ضد قيصر ، لم يكن أمرها مفهوماً ولا مستساغاً ؛ ولكننا عندما نتصور قيصر على أنه أصبح سيد العالم أجمع ، وقد اختمرت فى ذهنه فى سنى حياته الأخيرة صورة جديدة لنظام الحكم، وساورته أفكار عن الملكية الهيلينستية الإلهية ، فعندئذ فقط ندرك مدى التداخل والتشابك الغريب بين لواعج الحب وعوامل السياسة وأن هذه كلها حفزته كيما يتخذ هذه الخطوة الجريئة.

وإن منظر كليوباترة وفى صحبتها زوجها الصغير ثم إبنها قيصرون وقد أحاط بهم رهط ضخم من الأغوات والأتباع وبطانة من رجال السياسة والقلم ، قد أثار الرومان، وأخذوا يتساءلون على مضى الزمان عن مغزى كل ذلك . ومما زاد فى شكوك الناس أن الملكة قد اختارت أن تعيش فى روما عيشة الملكات الحقة ، مما كان له أثر قوى فى نفوس الرومان الذين ألفوا مشاهدة الملوك الأجانب ،وأمراء الشرق وهم يقيمون بين ظهرانيهم لفترات،وكان بطلميوس أوليتيس نفسه والد كليوباترة ، أحد هؤلاء ولكن زيارة كليوباترة كانت ذات طابع فريد، وحظيت باهتمام خاص. وعندما احتفى قيصر فى سبتمبر (يوليه) سنة ٤٦ على نحو باهر بما كسبه من فتوح فى بلاد الغال ومصر ، وما حققه من انتصارات على فارناكيس وجوبا ، ملك ماوريتانيا ، تجدد بذلك الاهتمام الذى كان قد أثير فى نفوس الناس ، بقيام حرب الإسكندرية، وما صاحبها من مغامرات . وإن عرض تمثال إله النيل ، وصورة الفنار المقام فى فاروس ، ومنظر الأميرة أرسينوى المنكودة الحظ وهى تسير فى موكب النصر ، وما أثارته فى نفوس النظارة من أسى — كل ذلك بعث الهواجس فى قلوب الرومان . وأخذ الجند يلمحون فى أغانيهم الفجة إلى أن الملكة قد أوقعت قائدهم فى شباك غرامها ، وأصبح اسمها وحديثها تلوكه الألسن وتندر الناس بما كانت تعيش فيه من بذخ غريب ، وساعدهم قيصر فى تثبيت ظنونهم هذه.

حتى لم يترك مجالاً لأى شك فيما يتعلق بمنزلة كليوباترة من نفسه ، وما تعنيه بالنسبة له ، بما أسبغه عليها من ألقاب ، فأصبحت صديقة الشعب الرومانى وحليفته ، وبذلك تم إقرار تصرفاته فى الاسكندرية ، وما اتخذه من قرارات بشأن مستقبلها ، وأسدل الستار بإسباغ صفة دستورية على مركز الملكة التى أصبحت تتمتع بحقوقها كاملة ، وتشغل المركز والمنصب الذى تعب والدها فى شرائه بالأموال ، وبإراقة الكثير من ماء الوجه . ومن الأمور التى كان لها مغزى خاص أن قيصر أولاها تكريماً وتشريفاً لذاتها عند احتفائه بالنصر الذى كسبه ، وتكريسه سوقاً عرفت باسمه (Forum Julium) أقام فى وسط ساحتها معبداً لڤينوس جنيتريكس ، ربة الأسرة اليوليوية ، وعلى مقربة من تمثال هذه الالهة أقام تمثالا ذهبياً لكليوباترة . وقد تضمن هذا مغزى أبعد من مجرد تحية شخصية أراد أن يسديها لامرأة تعلق بها ، وإنما كان عملا أملته حكمة سياسية ودينية ، وهو من نوع الأعمال المألوفة فى مصر والممالك الهيلينستية بوجه عام ، حيث كان الحكام والملوك يؤلهون . ولكن فى نظر الرومان كان السماح بإقامة تمثال للملكة أجنبية (regina) فى معبد ڤينوس بالذات أمراً بغيضاً ، وفيه تحد لشعورهم . ونذير بوقوع الكثير من مخاوفهم ووساوسهم .

وليس هناك من سبيل إلى التكهن بما كان يطمع فيه قيصر ويهدف إلى تحقيقه وهل كان يروم تحقيق الملكية ، ولكن الشكوك كانت تحوم حوله فى هذا النطاق ، ولسنا ندرى على سبيل اليقين مبلغ تأثير كليوباترة عليه فى هذا الصدد . ولكن الأمر الذى لا ريب فيه أنها باعتبارها رمزاً يمثل الملكية الهيلينستية كانت فى أغلب الظن عوناً له على السير فى هذا السبيل ، بدلا من أن تكون عائقاً له عن التردى فى هذه الهاوية . وإنه لمن العسير علينا التكهن بنوايا شخص من طراز قيصر ، مع ما عرف عنه من سعة الحيلة، ورحابة الصدر واتساع الأفق ، والجزمُ على سبيل اليقين بما يمكن أن توقظه فترة إقامته فى مصر من مشاعر ، وبخاصة أننا نعرف أن الثقافة الهيلينستية كانت قد غزت

على أى حال — منذ أمدٍ طويل — المجتمع الرومانى وأصبحت مسيطرة على عقول الطبقات الحاكمة والعناصر المستنيرة فى روما . ونظراً لأن قيصر كان ضليعاً فى علوم الفلك والرياضة ، فإنه عُنى فى أثناء مقامه فى الإسكندرية بموضوع التقويم وحسابه متأثراً فى ذلك بعالم سكندرى يسمى سوسيجنيس، كان يشتغل بالرياضيات . وكان من ثمار ذلك التقويم اليوليوى المشهور الذى ابتدعه قيصر فى أول يناير سنة ٤٥ ق.م ، ولهذا الإصلاح التقويمى مصادره وأصوله المصرية ، كما أن ألقاب التكريم التى أُسبغت على هذا الدكتاتور يمكن بوجه عام تتبع أصولها فى العرف الهيلينستى والتقليد الذى جرى عليه .

وتمادى الناس فى غلوائهم وأخذت الشائعات تنسب إليه أعمالاً وأقوالاً تلمس الناس فيها نواياومآرب أخرى، فقيل فيما بعد إنه كان من المتفق عليه عقب رحيل قيصر ليلحق بجيشه أن يتقدم أحد نقباء العامة وترابنتهم (Tribuni) واسمه هالفيوس سِنّا (Helvius Cinna) بلائحة خطيرة للعرض على مجلس العامة الرومانى ، يسمح بمقتضاها لقيصر عقد زيجات أخرى شرعية من أجل ضمان نسل وذرية له، وذلك نظراً لأن زواجه من كالبورنيا لم يُسفر عن عقب له، وبالطبع كان هذا التشريع المرتقب لصالح كليوباترة، إذ يُتيح لها الفرصة كيما تصحح وضعها مع قيصر بعقد الزواج عليه حتى يصبح لابنه منها منزلة شرعية ويكون وريثاً له،أو قد تنجب له الملكة ابناً آخر. وهناك شائعة أخرى قالت بأن قيصر كان ينوى نقل مقره من روما إلى الإسكندرية أو إلى تروادة .

وفى مستهل عام ٤٤ تأزم الموقف السياسى بدرجـــة ملحوظة على أثر العثور فى الكتب السبلينية المقدسة على نبوءة تتفق مع مآرب قيصر ،وتلائم مطامعه الخاصة وتقول بأن الحرب ضد الفرس والبارثيين (Partbians) يمكن أن تكلل بالنجاح إذا كان على رأس الجيش الرومانى الذى يخوضها ملك. وفى ضوء هذه النبوءة صيغ اقتراح يخول لقيصر أن يلقب نفسه ملكا فى أى وقت بشرط أن يكون هذا فى خارج إيطاليا ، وكان مقرراً أن يعرض هذا الاقتراح على السناتو الرومانى فى ١٥ مارس ، ولكن خناجر الجمهوريين

خلّصت العالم الرومانى من أطماعه فى نفس هذا اليوم فخر صريعاً ، وبذلك خلق للملكة مركزاً حرجاً ودقيقاً للغاية وجعل مقامها فى روما محفوفاً بالمخاطر فعجلت بالرحيل والفرار (fuga reginae) على حـــد قول شيشرون فى إحدى رسائله ، وعادت إلى مصر سالمة ، ترقب بعين الحذر ما تتمخض عنه الأحداث فى روما وفى خارجها . وبذلك طويت على هذا النحو الفجائى صفحة من حياتها كانت حافلة ومليئة بالآمال العريضة .

الفَصْلُ الثَالِث

كليوباترة وأنطونيوس

يرتبط الشق الأخير من حياة كليوباترة ارتباطاً وثيقاً بحياة بطل رومانى آخر هو ماركوس أنطونيوس ، ولطول مدته والطابع العالمى فى أحداثه طغى هذا الشق على سابقه ، وحظى بنصيب أكبر من الدراسة والتفصيل . وتعددت مواقف التلاقى والتوافق بين مصلحة هذين البطلين حتى بات من العسير أن نعرض لأحدهما دون الآخر . وإن من يتصدى لتأريخ هذه الحقبة من حياة كل منهما وتبويب صفحاتها الخالدة ليلقى بعض العناء والمشقة فى تبين كنه الحقيقة سافرة ، نظراً لما شاب تلك الحياة من تداخل بين العوامل السياسية والعسكرية والعاطفية . فالجانب العاطفى فى حياة أنطونيوس أصبح بارزاً بصورة كانت مضرب الأمثال فى روعتها وبهائها حتى أصبح هذا الجانب من حياته وعلاقته بكليوباترة يحظى بشهرة أعظم من الجانبين السياسى والعسكرى وإن كان أقلها أهمية . ولعل السبب فى ذلك أن أضواء ساطعة سلطت على مدى أجيال طويلة على هذه الناحية فضخّمت الأخطاء ، وبالغت فى الأعمال والأهواء التى كانت تصدر عن هذا البطل ونفخ فى بوق دعاية سيئة مغرضة، قصد بها تشويه سمعته فى نظر الرومان، حتى تعذر أو كاد يصبح من المتعذر أن تتجلى الحقيقة مجردة عن الغرض أو الهوى وخالية من التهويل والمبالغة .

أما بالنسبة للملكة كليوباترة فإنه أصبح من المتعذر كذلك أن نفرق بين الجانب السياسى والجانب العاطفى فى حياتها ، فتداخلت شخصيتها كملكة قابضة على ناصية الحكم مُحِبّة للسيطرة ، فى حياتها بوصفها إمرأة جياشة النفس بالعواطف ، وسَطَت هذه فى بعض الأحيان على الجانب السياسى وتغلبت عليه حتى ضاعت معالمه ، وأصبحت علاقاتها مع أنطونيوس بارزة وتحتل مركز الصدارة فى مقدمة الصورة الباقية فى سجل التاريخ .



مارکوس أنطونيوس

تفيض بوصف ما كان يجرى من صخب فى الحفلات والموائد والندوات، وما كان ينظم من استقبالات ومهرجانات ، فضاعت معالم الأشياء وسط كل ذلك وتعذر استخلاص الحقيقة ، لأن الكثيرين من الأوربيين جروا على منهاج تقليدى ، توخوا فيه المبالغة فى إبراز الجانب العاطفى ، وحرص نفر منهم على إشباع غيِّه و نَفْثِ سمومه وحقده على كليوباترة، باعتبارها إمرأة شرقية تطلعت إلى السيطرة على روما ، وعملت على إذلال أبناء تلك الدولة. ومن واجب الإنصاف ألا تنساق وراء هذا النفر فى غلوائه هذا ، وإنما نفند المعلومات والإشارات الواردة على ألسنة الشعراء والأدباء والكتاب قبل موقعتى أكتيوم ونيكوبولس أى قبل انتحارها، ثم ما قيل عنها بعد ذلك فى العصر الأغسطى وما تلاه من عصور ، فنرفض قبول كل ما ورد على ألسنة هؤلاء ، وما كانوا فيه متأثرين بالهوى وتوجيه رجال السياسة والقائمين على الحكم فى صدر عصر الإمبراطورية الرومانية ، فأغلب هذا صادر عن بُغْضٍ وهوى ورغبة المنتصر فى تسويء سمعة المهزوم، وإخفاء معالم الحقيقة فى طيات الدعاية المغرضة. والأمر الذى لاريب فيه أن حياة كليوباترة ، والمراحل الأولى من علاقتها بأنطونيوس ، وموقفها منه كبطل رومانى ، ثم تطور هذه العلاقة إلى زواج رسمى ، ووقوفهما معاً جبهة واحدة على رأس بلاد الشرق ضد روما وقوتها المتكتلة فى الغرب — ليست كلها مليئة بالهوى والحب الصارخ ، يتمثل فيه اندفاع المحبين الذين يترددون فى الهاوية ، ويعميهم حبهم عن رؤية الحقيقة مجردة ، ويسوقهم إلى تنكب السبيل القويم.

على أنه توجد فى حياة أنطونيوس وكليوباترة مادة دسمة من المعلومات والتصرفات ، فهذه الحياة المشتركة وحدها تمثل فى مجموعها ملحمة قائمة بذاتها ، وتصور تراجيدية رائعة انتهت بمأساة خالدة. وبقى علينا الآن أن نستخلص بعض جوانب هذه الحياة ، ونفند عناصر هذه المأساة ، محاولين أن نميز بين الغث والسمين فيها ، وخاصة أنها كما قلنا متداخلة الأحداث.

والمشاعر، بعضها فى بعض إلى درجة التعقيد الشديد، وأصبحت بعض جوانب هذه الحياة فى سيرة كل منهما مكسوة بأغلفة سميكة، ومحاطة بالأسرار، فى حين أن البعض الآخر قد افتضح أمره. وهناك أكثر من سر دفين فى هذه الملحمة المزدوجة، حَمَله كل من البطلين معه إلى قبره، ومن ذلك سر فرارهما من ساحة القتال فى أكتيوم على رأس الأسطول المصرى وعودتهما إلى الإسكندرية، وسر الوصية التى قيل إن أنطونيوس كتبها موصياً بأن يدفن فى الإسكندرية، وافتضح هذا السر على يد أكتاڤيوس، وضاع صوت أنطونيوس فى سبيل الدفاع عن نفسه وسط الضجة التى أقامها أكتاڤيوس فى العالم الغربى، وهناك سر انتحار كليوباترة بعد أن خابت آمالها ونواياها فى أن تجنب نفسها عار السير فى موكب أكتاڤيوس فى شوارع روما على نحو ما فعلت أختها أرسينوى من قبل فى موكب يوليوس قيصر، وفى أن تكون الإسكندرية عاصمة العالم الجديد - كل هذا وغيره من الأسرار الدفينة التى حيرت العالم، قد حملها البطلان إلى قبريهما. وإن كل الشواهد لتدل على أن مصرية كليوباترة وشعبيتها كانت قوية، وأن روحها القومية كانت عالية أنزلتها من نفسها فوق كل اعتبار وأن هذه الملكة كانت تلقى تأييداً شاملاً من العناصر المصرية التى وقفت إلى جانبها، وأيدتها فى السراء والضراء، فثارت لثورتها، وعضدتها فى محنتها[1]. وليس هنا مجال الدفاع عن مسلكها والتصدى لتبرير كل ما فعلته أو الإعتذار عنه (apologia) وإنما يفرض علينا واجب الإنصاف ألا نقسو فى الحكم عليها كما لا نبالغ فى حرق بخور المدح لها، وإنما نقف موقفاً يتسم بالحكمة والروية والانصاف.

وفى حياة كليوباترة إزاء أنطونيوس مواقف حاسمة، استبقت بمركز دقيق أوقعها فيه اغتيال يوليوس قيصر وموته على هذا النحو الفجائى وكان

---

(١) ومن الشواهد على ذلك ماذكره العالم و.ل. وسترمان فى مقال عنوانه « البطالمة وجهودهم فى العمل على تحسين أحوال رعاياهم » وهو منشور سنة ١٩٣٨ بالانجليزية فى مجلة أعمال مؤتمر البردى الخامس الذى عقد فى اكسفورد سنة ١٩٣٧. وأيد هذا الرأى العالم سير إدريس بل فى كتابه عن « الهيلينية فى مصر » آخر الفصل الثانى ترجمة زكى على.

ذلك يستلزم منها أن تشد أزر كل من أنطونيوس وأكتافيوس ، وهما اللذان حملا وحدهما لواء الحرب ، وعبء الانتقام لقيصر من قتلته فقادا الجيوش ضد الجمهوريين ، وانتصرا عليهم فى سنة ٤٣ فى معركة فيليباى ببلاد اليونان. وعقب الانتصار فى هذه المعركة تشتت قوى بروتس وكاسيوس . واتفق أكتافيوس وأنطونيوس على أن يختص أولهما بحكم الغرب ، ويترك لثانيهما التصرف فى شئون الشرق . واتهمت كليوباترة بالنكوص على أعقابها والتردد والتقاعس عن تقديم العون والمساعدة فى هذه المعركة الإنتقامية ، مما استوجب دعوتها للمثول أمام أنطونيوس وهو فى إفسوس بآسيا الصغرى لتجيب عما يوجه إليها من اتهام . وكان لقاؤهما فى تارسوس (طرسوس) بآسيا الصغرى على صورة مسرحية رائعة. ففتح هذا المجال على مصراعية للروائيين والمؤرخين على السواء ، لما فى ذلك اللقاء الذى بدأت به فترة العشق والغرام من مادة روائية تصدى لمعالجتها الكتاب الروائيون . على أن هناك مادة تاريخية وعوامل إنسانية يجد فيها مؤرخو هذا العصر الدوافع البشرية وهى تتصارع .

واستمرت هذه الفترة من ٤٢ حتى ٣٦ ق . م ، تخللتها أوقات كان يقع فيها فتور فى العلاقات ، بل فراق وإعراض كان يمتد إلى سنوات وتنقطع أسباب المودة والاتصال ويُشغل فيها أنطونيوس بحملات كان يشنها على الفرس وأرمينيا ، مؤملا تحقيق البرنامج العسكرى الذى تركه قيصر ، واضطلع به من بعده باعتباره الخليفة الطبيعى له وسيد فرسانه (Magister Equitum) ولكن التوفيق لم يكتب له فى مآربه هذه . وفى صدر هذه الفترة قضى أنطونيوس بعض الوقت فى الاسكندرية مع كليوباترة فى فصل الشتاء بقصد الاستجمام ، ولربما أعدّا خلالها خطة مستقبلهما ، كما تلقن فيها من كليوباترة دروساً عملية فى السياسة إلى جانب العشق والغرام ، فالتقت مصالحهما ، واتفقت مآربهما ، فهو يريد الكنوز والأموال التى ظن أن بمصر معيناً منها لا ينضب ، وهى بالمثل كانت تريد منه أن يعمل على توطيد عرشها ، وتحقيق أغراضها ومطامعها السياسية . ولربما لم يجل

بخاطرها فى ذلك الحين مد سلطانها وسيطرتها إلى روما ، والعمل على إذلالها. وقد تأثرت حياتها بما كان يظهره أنطونيوس من مواقف البطولة وما كان يلقاه من هزائم . وعلى ذلك كان للجانب العسكرى فى حياة هذا البطل صداه وانعكاساته على كليوباترة ؛ فما لبث هذا القائد العظيم بعد أن ذهب إلى الشرق الذى آل إليه حكمه واعتبر منطقة نفوذ له ، وأخذ يجمع الأموال ، ويشتط فى فرضها على سكان آسيا الصغرى ، ويُعد العدة للحملة المرتقبة على فارس — وكان الرومان قد علقوا الآمال الكبار على قيادته وبطولته — أن توالت عليه الهزائم فى الشرق ، وفشل أكثر من مرة فى كسب النصر . فضاعت منزلته ، فى أعين الرومان ، وأخذ ينحاز نحو الشرق أكثر من ذى قبل ، وأفسحت له كليوباترة الطريق وأمدته بما كان يلزمه من أموال ومؤن ومضت شوطاً بعيداً فى نصرته . وإن زواجه من كليوباترة وإعلانه ذلك فى سنة ٣٦ أو ما بعد ذلك بقليل (سنه ٣٣ — ٣٢ ق.م) وتحديه زميله وشريكه فى حكم العالم الرومانى بطلاقه لاكتافيا ، أخت هذا الزميل ليمثل نقطة تحول ظاهر وخطير فى حياة هذا الرجل ، بل وفى حياة كليوباترة نفسها ، فتوثقت الصلات بينهما وارتبطت مصالحهما ووحدت الزوجية بين مآربهما، وأصبحت مصلحة مصر لها المقام الأول فى تفكيرهما .

وبقى أن نعرض لتفاصيل هذه الأحداث فى شىء من الإسهاب لنتبين مراحل تطور العلاقات ونفند ما يساق من أقوال ، ظاهر فيها التلوين والتوجيه .

ماركوس أنطونيوس وحكومة الشرق :

وفى دراسة حياة كليوباترة وماركوس أنطونيوس ، وعلاقة الأخير بالشرق عامة ، وبسوريا ومصر خاصة ، لابد لنا من التعرض لحكم الوالى الرومانى المسمى جابينيوس (Gabinius) على سوريا عام ٥٧ ق. م وذلك لأن مدة ولاية هذا الحاكم تعتبر على جانب عظيم من الأهمية فى تاريخ حياة أنطونيوس، وبالتالى فى تاريخ حياة كليوباترة، فقد كان الأخير قائداً لقوة الفرسان

عندما زار سوريا وواجهته مشاكلها التى قُدّر أن يتصل تاريخها بالجزء الأخير من حياته أشد اتصال ، وأن تلعب دوراً هاماً يقرر مصيره النهائى .

ولما عُيّن جابينيوس حاكماً على ولاية سوريا مُنح السلطة فى أن يجمع الجيوش ، ويجند الجند لكى يكون على استعداد لخوض غمار الحرب إذا لزم الأمر ، وشاءت المقادير أن تسوق له — وهو فى طريقه إلى البلاد التى عُيّن عليها — ماركوس أنطونيوس الذى كان فى ذلك الوقت فى بلاد الإغريق يتمرن على الألعاب الحربية ، ويتدرب على أساليب الخطابة ليكون بعيداً عن روما والمشاكل التى كان يخلقها له أعداؤه وخصومه فيها ، فالتحق بخدمة جابينيوس ، وصحبه الى الشام. ولقد هيأت له هذه الفرصة التى أتيحت له فى الشـــام من الظروف ما مكنه من أن يدرس بنفسه ، وعن كثب ، تلك المشاكل الكبرى التى استعصى حلها على كبار المفكرين من الرومان ،وكانت الشغل الشاغل أمام روما فى الشرق ،ومن أهمها المسألة المصرية ،كما أنه تعلم على يد جابينيوس ما كان يجب على الحاكم الرومانى فى الشرق تعلمه ،وعرف منه كيف تعالج مثل هذه المشاكل . وزيادة على ذلك ، فقد رأى بعينى رأسه العمل الإنشائى الذى يقوم به حكام الولايات الرومانية ، فاستفاد من كل هذه التجارب والمعلومات التى جمعها فى الشرق أثناء حكم جابينيوس أيما استفادة ، حتى إنه عندما آل إليه حكم الشرق ، بعد مقتل يوليوس قيصر بقليل ، وتعلق به مستقبل مصر وملكتها ، كان على معرفة تامة بشئون الشرق وبلاده ، فاستطاع أن يجول فى ذلك الميدان ويصول .

كانت المسألة المصرية من أعظم المسائل السياسية أهمية فى روما إذ ذاك وكانت تتخذها الأحزاب السياسية بروما ضمن برنامجها ، وتعيرها من الاعتبار ما تستحقه ، واستمرت هذه المسألة تستهوى الأحزاب السياسية وتجد لها أعواناً كثيرين فى روما مدة من الزمان إلى أن سوّيت نهائياً على يد أكتافيوس سنة ٣٠ ق . م ، بضم مصر إلى حظيرة الدولة الرومانية فأصبحت جزءاً مهماً بل وحيوياً فى كيان هذه الإمبراطورية الرومانية

المترامية الأطراف (Imperium Romanum) والتي كان أغسطس أول إمبراطور عليها .

ارتبط أنطونيوس بالشرق ، وحرص على أن يكون من نصيبه فى الاتفاق الذى أبرمه مع زميليه أكتافيوس ولبيدوس عقب الانتصار الذى تم لهم فى موقعة فيليپاى فى شهر اكتوبر عام ٤٢ ق.م. على قتلة قيصر ، والحزب الجمهورى ، وعلى رأسهم بروتس وكاسيوس ، وكانوا قد جمعوا قواتهم فى مقدونيا ، فكانت فيليپاى هذه آخر معقل لقتلة قيصر ، ولكن سوء الحظ لازمهم فهزموا هزيمة منكرة ، ودفعوا حياتهم ثمناً غالياً لجريمتهم الشنعاء . وهكذا تغلب الحكام الثلاثة على أكبر خطر جسيم ، كان يهددهم فى حياتهم ، وذلك بهزيمة أعدائهم ، ولكنهم ما نفضوا أيديهم من الحرب حتى واجهتهم مشكلة تحفها المخاطر من جميع الجوانب ، وتكتنفها الأزمات من كل ناحية . فقد كان العالم كله بعد أن وقع فى فوضى واضطراب ردحاً من الزمن عقب مصرع قيصر يتطلب السلام العاجل ، والانصراف للإصلاح والتنظيم ، وكان الحكام الثلاثة صفر الأيدى ، وخزائنهم خاوية من الأموال والجند يطالبون بمؤخرات رواتبهم ، وهذا خلق مشكلتين منفصلتين تماماً كان لا بد لهم من حلهما حلاً مرضياً ، فكان عليهم تهدئة الحالة فى الغرب ، وإعطاء الجند شيئاً من مؤخرات رواتبهم . أما الشرق فكان لابد من إعادة تنظيمه ، والانصراف لمعالجة مشاكله على وجه السرعة ، أما المشكلة الثانية فهى حاجة الحكام الثلاثة الشديدة ، لمكافأة جنودهم وفى هذا بقاء لكيانهم وحفظ لقواتهم . وكان أنطونيوس فى التقسيم الذى تم بعد موقعة فيليپاى ، الشريك القوى الذى تمكن من أن يُملى إرادته على شريكيه فى تقسيم المسئولية بينهما ، فاحتفظ. وهو الظافر فى فيليپاى بنصيب الأسد من الغنيمة ، وبالجزء الذى ينتظر أن يدر عليه خيراً كثيراً ، ويكفل له مستقبلاً أعظم من مستقبل زميليه ، وبينما كان الشرق أغنى أجزاء الدولة الرومانية ، وكانت مهمة تسوية مشاكله أمراً يجلب ربحاً كبيراً يملأ خزائن حكام الدولة الخالية ، إذا بمطالب الجند

من الجانب الأخير وإفلاس الثلاثة مصدر خطر جعل مهمة تسوية مشاكل الغرب أمراً محفوفاً بالمخاطر لما يتطلبه هذا الموقف، من مصادرة أملاك الرومان فى إيطاليا لإشباع نهم الجند، وإجابتهم إلى طلبهم. ولابد أن كان لهذه الاعتبارات — كلها أو بعضها — قيمتها فى اختيار أنطونيوس للشرق ميداناً له للعمل، وتركه المشاكل الخطيرة بالغرب لزميله أكتافيوس الذى كان أضعف منه صحة، وأقل منه خبرة وحنكة.

ويجب هنا ألا نسلم بما ادعاه بعض المؤرخين الحديثين، الذين غلوا كل المغالاة فبعدوا عن الحقيقة بعداً كبيراً، جعلهم ينسبون إلى أنطونيوس دوافع تافهة كانت العامل الأكبر فى اختياره الشرق، فاتهموه بأنه كان يريد أن يشبع شهواته، وأن يجرى وراء لذاته التى بالغوا كل المبالغة فى وصفها. ويظهر أنه لا بد أن كانت هناك اعتبارات أخرى جدية كانت العامل المرجح فى تصرفه، وتفضيله الشرق عن الغرب. ولقد كان الرومان فى ذلك العصر يعتبرون الشرق أثمن درة فى أملاك الدولة الرومانية، وبه من المدن والحواضر مالا يدخل تحت حصر، ولو أن هذه كلها لم تكن فى الحقيقة مدناً بالمعنى الذى نفهمه، بل قرى متواضعة ذات مجالس خاصة بها؛ ولو قرأنا ما كتبه شيشرون عن غنى وثروة آسيا الصغرى لظهر لنا جلياً أن الشرق كان يمد روما بأكبر وأضمن دخل تعتمد عليه فى أعز شىء لديها، وتدين له بحياتها، ثم أشار مؤرخ إيطالى يدعى فريرو (Ferrero) إلى هذا البَوْن الشاسع بين حال القسمين بقوله «كانت أملاك الدولة الرومانية بأوربا فقيرة حقاً، ويقل السكان بها ولم تكن على جانب كبير من المدنية والرقى إذا قورنت بالشرق العظيم الشاسع الزاخر بالثروة والذى تقدمت به المدنية لدرجة عظيمة، فقامت به مدن صناعية كثيرة، وأسواق تجارية نافعة وطرق عظيمة ومراكز علمية شهيرة، وأراضٍ زراعية خصبة». وفضلاً عن ذلك فلم يقتصر الأمر على أن الشرق إذ ذاك كان أغنى من الغرب، وأكثر سكاناً منه، ولكنه كان أقدم وأعرق منه فى المدنية. ولقد أخذ

بنصيب وافر من مدنية اليونان بعد غزو الإسكندر، واصطبغ بصبغة هيلينستية، وشاع بين أرجائه استخدام لغة « الكوينى » وهى اللهجة اليونانية المتداولة فى آسيا الصغرى والشام ومصر والجزر . وهذا كله جعله جذاباً بدرجة كبيرة، تأخذ بلب الرومانى الذى تعَوَّد أن يعيش عيشة خشنة فى بلاده . وعلى ذلك يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن الشرق كان حقاً مطمح أنظار ذلك الجيل الرومانى ، ومحط خياله وهيـــامه ، ولم يقتصر الأمر على ذلك فإن أنطونيوس كان يعتبر نفسه خليفة قيصر ، ويرى أنه كان لزاماً عليه أن يقوم بتنفيذ مشروع الحملة الفارسية العظيمة ، فلا بد أن يكون قد جال بخاطره إخراج ذلك المشروع إلى حيز التنفيذ بعد تنظيم أمور الشرق ، ومعالجة مشاكله — كل هذه الاعتبارات كان لها قيمتها بلا ريب فى تفكير أنطونيوس عند اقتسامه العالم الرومانى مع شريكه ، وعند تفضيله الشرق على الغرب .

وبعد اتفاقية فيليباى ذهب أنطونيوس ميمماً نحو الشرق فوصل إلى بلاد اليونان ، وكان يحضر الألعاب ويشترك فى المناقشات والمحاورات الأدبية بين العلماء والفلاسفة واشترك كذلك فى بعض الحفلات الدينية وكان يسره أن يُشار إليه بأنه « محب لليونان » و « نصير وصديق للأثينيين » وقد علَّلَ المؤرخ بلوتارخوس هذا المسلك من جانب أنطونيوس بأنه كان ينطوى على حبه للهو واللعب ولكنا نحب ألا نُسلم بصحة ذلك الدافع ، إذ لا بد أن يكون هناك سبب أقوى من ذلك ، حَدَا به إلى الاندفاع فى ذلك السبيل ، وهو أن أنطونيوس رأى مِقْدار أهمية مثل هذه الخطوات فى التأثير فى الرأى العام فى المدن اليونانية بآسيا الصغرى ، التى لم تكن تنظر بعين ملؤها السرور والارتياح إلى أى حكومة تتدخل فى شئونها الداخلية ، وتعبث بحرياتها المكفولة ؛ وهذا الامتعاض من جانب المدن اليونانية فى آسيا الصغرى يخلق مشاكل خطيرة لأى حكومة أو حاكم يسلك هذا المسلك.

وفى ضوء هذا يجب أن نفهم السر فى إقامة أنطونيوس فى بلاد اليونان ، واشتراكه فى حفلاتهم الدينية البحتة ، وأن نفسر ذلك لا لحبه للهو والسرور

وإنما هي السياسة الحكيمة ، والحكمة القوية ، وتلك الحكمة هي اعتراف العالم اليوناني خاصة والشرق عامة به محباً غيوراً على مصالح اليونان ، وبذا يتأثر الرأى العام فى أرجاء الشرق ، وينتصر له ، وهذا مكسب عظيم قدر أن يكون له فائدته الجُلّى بالنسبه له ولكليوباترة عند تطور الحوادث فيما بعد ذلك بقليل .

وفى أوائل فصل الربيع عبر أنطونيوس البحر ميمماً نحو آسيا. وإنه لمن المحتمل أن يكون أنطونيوس قد رسا على مدينة إفسوس التى كانت العاصمة والمقر الرسمى للحاكم الرومانى فى آسيا الصغرى ، وكانت كل السوابق تشير إلى دخول الحكام إلى آسيا عن طريق ميناء إفسوس . وبعد أن قدم أنطونيوس القرابين والذبائح الكثيرة لإلهة المدينة المسماة أرتيمس ، وعفا عن معظم الذين لجئوا إلى معبدها ، أمر بدعوة جميع اليونانيين وملوك آسيا الصغرى التابعين لروما للإجتماع به فى إفسوس ، فهرولوا كلهم مسرعين ، وخروا بين قدميه ساجدين ، ورفعوه إلى مرتبة آلهتهم ، وخرج أهل المدينة عن بكرة أبيهم فرحين مستبشرين ، كلٌ قد اتخذ شعاره الذى يلبسه عند تقدمه لآلهته ، فالنساء مرتديات ملابس أتباع الإله « باكوس » ومثلهم الرجال والأولاد فى زى أشخاص خرافيين للقاء أنطونيوس العظيم ، فكان الناظر يرى الرماح بارزة فى أنحاء المدينة قاصيها ودانيها ، وقد غطيت أطرافها بشجرة اللبلاب ، ويسمع الأهلين فى الطرقات يوقعون على العُود والمزمار والقيثارة إجلالاً لأنطونيوس الذى كان لديهم بمثابة الإله باكوس « إله الفرح والسرور وإله الرقة والإحساس الجميل » . وفى هذه الجموع الزاخرة خطب أنطونيوس خطبة عامة سياسية ، تناول فيها أموراً شتى ، وكشف عن حاجته وحاجة زميليه : أكتاڤيوس وليپيدوس ، الماسة إلى المال لمكافأة الجند الذين اشتركوا فى موقعة فيليپاى ، وأكد لهم أنه لن يطلب منهم أكثر مما ابتزه منهم بروتس وكاسيوس ، أعنى ضريبة عشر سنين ، تجبى فى سنة واحدة ، ولكن لما توسل إليه السامعون ، وطلبوا إليه الرأفة بهم ، وخاصة أن قَتَلة

قيصر قد أوصلوهم إلى درجة من الفاقة والفقر قد بلغت حد المسغبة ، أثاروا رحمته وعطفه بعد جهد جاهد فقَبِل أن يُنْقِص الإتاوة إلى ضريبة تسع سنين ، وأمهلهم فى دفعها سنتين . وهنا تثور فى الإنسان عوامل الاستغراب والدهشة ، إذ كيف أستطاع أولئك الذين نضب مَعِينهم لما ابتزه منهم بروتس وكاسيوس، ولم يتركاهم إلا وهم على شفا جُرف هار ، يكاد يفترسهم الفقر وتودى بهم الفاقة ، أن يجيبوا طلبات ذلك الطاغية المتعسف الغليظ القلب ، الذى لم تعرف الرحمة إلى قلبه طريقاً . ولم تنفذ إليه توسلات القوم وتضرعاتهم ، فأصر على طلباته ، ولم يتنزل إلا عن قليل منها لا يسمن ولا يغنى من جوع — ولقد تقدم أنطونيوس فى آسيا الصغرى يلقاه الملوك والملكات ، مقدمين له العطايا والهبات ، راجين أن تشفع لهم هذه عنده . وكان يحيط به جمع من المغنين واللاعبين فكانت حاشيته أشبه بحفل من أتباع الإله باكوس ، إله الخمر والطرب والسرور ، منها بحاشية حاكم رومانى . ولقد أشار المؤرخ بلوتارخوس إلى ذلك بقوله « إن الحال بلغت درجة لا يحتمل معها الصبر ، ولا يستطيع الإنسان السكوت عليها ، إذ كانت تبعثر الأموال والثروات فى أتفه الأمور مع ما كان عليه الأهلون من فقر مدقع ، وكانت كل آسيا الصغرى أشبه شىء بالمدينة التى وصفها الشاعر سوفوكليس فى شعره ، « قد ملأ البخور السماء ، وتردد فى الجو صدح الغناء ، وكان بجواره نوحُ البكاء »[1] . وإن المؤرخين الحديثين يبنون على ماساقه بلوتارخوس عن أنطونيوس فى استقباله فى إفسوس ، حكمهم بأنه كان رجل شهوات ، لا يهمه إلا الإنغماس فى الملاذ ، والاجتراع من مناهلها . ولكن نظرة فاحصة إلى ماجاء فى بلوتارخوس نفسه على ألسنة المطربين والغوانى والطهاة الذين كانوا فى حاشيته تكشف لنا من وراء تلك الأغشية اللاهية عن صورة واضحة لخطة سياسية وإدارية كان يسعى جهد نفسه فى سبيل تنفيذها . وإن ذلك الاستقبال العظيم ، الذى تجلى فيه خضوع الآسيويين

---

(١) بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، فصل ٢٤ .

طائعين مختارين ، تودداً لأنطونيوس إذ صار لهم الحاكم العتيد ، كان أمراً طبيعياً ، خصوصاً فى بلاد الشرق حيث تعود الناس ، فى كثير من العصور ، أن يصل بهم الاحترام لسيد البلاد إلى درجة تقرب من العبادة ، ولذا كان الحاكم دائماً موضع إجلالهم واحترامهم ، يسبغون عليه من عبارات التجلة والتقديس ما يصل فى كثير من الأحوال إلى حد التأليه .

وبمجرد انتهاء أنطونيوس من عمله فى إفسوس بدأ يطوف فى الأقاليم التى كانت تحت حكمه ، ولقد دوّن لنا المؤرخ أبيان[١] بياناً دقيقاً عن الأماكن التى اشتملت عليها رحلته ، فذكر فريجيا وميسيا وجالاشيا وكاپادوشيا وسيليشيا وسوريا الحالية أو فلسطين وأضاف المؤرخ اليهودى يوسيفوس إلى هذه البلاد بيثينيا بآسيا الصغرى . ولقد كان أنطونيوس فى هذه الرحلة يأمر بإصلاح المبانى العامة ، وببناء الطرق والحصون ، وفض الخلافات الحزبية بين المتنافسين على العروش . وتوجد بالأصول والأسانيد التاريخية إشارات قليلة إلى أعمال أنطونيوس القضائية فى الشرق ، ويشير پلوتارخوس[٢] إلى أن هذه القرارات القضائية كانت عادلة وحكيمة . ومما ذكره پلوتارخوس فى هذا المقام أنه عند وصول كليوباترة إلى طرسوس بآسيا الصغرى ، كان أنطونيوس جالساً على منصة بسوق المدينة يقضى بين الناس ، ويوزع العدل بين المتقاضين . وفى مكان آخر من پلوتارخوس يقول إنه بينما كان يوزع العدل بين الناس ، الذين أتوا يحتكمون إليه ، جاءه كتاب من كليوباترة قد كتب على عقيق .

ولسنا هنا بمحاولين الدفاع عن مسلك أنطونيوس الشخصى ، عن قصد وتعنت من أنفسنا ، راغبين فى تبييض صحيفته الشخصية أو متعمدين أن نحرق له بخور المدح والثناء ، فنحيد عن جادة الصواب . بل إننا نجد من الإنصاف له أن ننظر إليه بمنظار غير ذلك المنظار الأسود القاتم الذى نظر به إليه من سبقونا

---

(١) أبيان ، ٥ ، ٧ .

(٢) پلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، فصل ٢٣ .

من مؤرخيه، متأثرين بالدعاية السيئة التي شنها عليه أكتافيوس أغسطس فيما بعد».
ويكفي أن نلقي نظرة عاجلة على سياسته العامة في الشرق إلى وقت قيامه بحملته على الفرس ، وقبل أن يتورط في علاقته بكليوباترة ، وتتخذه أداة لتنفيذ مآربها، وتحقيق برنامجها ، لنجد أن سياسته كانت تطابق لدرجة كبيرة سياسة أغلب الحكام الرومان الذين سبقوه ؛ وكانت هذه السياسة تدور حول تأسيس حكومة قوية تشد أزره ، وتكون متكأة قوية له في زحفه شرقاً على الفرس. وكانت مصر وعلى رأسها كليوباترة ضمن برنامجه هذا كسند له في الاعتماد على مواردها ودعائم الحكم في وادي النيل . وعلى هذا النحو كانت فرص النجاح أمامه قوية ، وأمله أدنى إلى التحقيق لو أنه تأنى وصبر ولم يتورط في استباق حوادث الزمان . إن أنطونيوس كان يعوزه الصبر اللازم للقيام بعمل دقيق وصعب، كذلك الذي بدأه ولم يوفق لإتمامه على أكمل وجه . فبينما نجده مغرماً بالمشروعات الخلابة ، التي تسترعي أنظار الناس ، وتستهوي أفئدتهم ، وتثير الدهشة في نفوسهم ، نجده تنقصه العزيمة والجهد الدائم والصبر الطويل ، الذي يحتاج إليه تنفيذ هذه المشروعات ، قد استهوته الخطوات الأولى من برنامج قيصر في الشرق ، وأقدم على تنظيم عظيم لأملاك روما في الشرق ووضع إدارتها على أساس متين، كيما تكون مركزاً قوي الدعائم ثابت الأركان يعتمد عليه في إمداده بالذخيرة والمال في أثناء قيامه بحملته على الفرس ، ولذا بدأ أنطونيوس أعمال التنظيم وتوزيع الممالك على الأمراء الموالين له ، وكان يقضي الساعات الطوال يستمع إلى ما يحمله رسلهم . ومضى في سبيله لا يقف في طريقه شيء ولا تكأده عقبة ، ففرض الضرائب واشتط في جبايتها ، وسوى الخلاف بين الأمراء والملوك في الشرق، وكان عمله يبشر بنجاح عظيم ويرجى منه الخير الكبير لو صمد له وثابر عليه، ولكنه كان يعوزه - كما قلنا آنفاً - الصبر والمقدرة على متابعة عمله هذا ، ووضع الأساس المتين لبناء شامخ شاهق كان يطمح في تشييده . وزاد الطين بلة أن كليوباترة عندما اعترضت طريقه ، غلب على أمره إذ عول عليها وعلى مصر

ومواردها، فكان لها فى حسابه وخططه المقام الأول، وعوّلت مصر بدورها عليه فى تحقيق آمالها، ووجدت فيه الملكة أداة طيّعة لتنفيذ أطماعها، ولكنه أثبت أنه مُخيب لكل هذه الآمال العريضة.

أنطونيوس والمسألة المصرية ولقاؤه بكليوباترة :

ولم تكن مصر ممثلة بين الملوك التابعين لروما الذين سارعوا بالحضور لتقديم فروض الولاء والطاعة لأنطونيوس فى إفسوس. وليس من اليسير علينا الآن تعرف الأسباب التى من أجلها تَغَيَّبَتْ كليوباترة، ولقد تميز أنطونيوس غيظاً لتغيبها. وصمم على أن يدعوها للمثول بين يديه لتجيب عما يوجه إليها من تهم، وهى: تقديمها المساعدة للمؤتمرين بقيصر وقاتليه، وعدم إرسال مساعدة للذين اقتصوا من هؤلاء القتلة، مع أنها تدين لقيصر بعرشها على مصر وأنجبت منه ابناً هو قيصرون الذى كان محط آمالها. وقد وكل أنطونيوس إلى ديليوس القيام بمهمة إحضارها، وإنه لمن الممكن أن نصدق الرواية التى يسوقها بلوتارخوس وهى أن ديليوس هذا أكد لها حُسن نيات سيده، وأسرّ إليها أن تذهب إلى سيليشيا على الطريقة الهومرية «فى أحسن زى لها»[1]. وكانت كليوباترة على جانب عظيم من الفتنة والجاذبية الشخصية. ولقد صممت آخر الأمر على تلبية ندائه فأعدت الهبات والزينات، وجمعت من الأموال ما يليق بمملكة غنية كمصر، وكانت تعرف من قبل ميله الغرامى إليها، ولابد أن تكون قد عرفت الشىء الكثير عن أخلاقه من قيصر، وعرفت فيه الآن حاكماً مطلقاً فى الشرق، وكان أعظم شخصية فى الدولة الرومانية، يتسابق فى خطب وده الملوك والأمراء، لأنهم يرون فيه الحاكم فى المستقبل على جميع الدولة الرومانية. وفوق ذلك كان معروفاً بقوة البنية، واعتدال القامة، ولذلك صممت كليوباترة على أن تكسبه لنفسها، وبَنَتْ تحقيق مطامعها، وأمانى أسرتها، وإخراجها إلى حيز الوجود على مساعدته؛ ولكنها مع تصميمها على

---

(١) أن تلبس أحسن حلة لديها كما فعلت هيرا فى ملحمة الإلياذة وهى ذاهبة للقاء زيوس على جبل « ايدا ».

الذهاب إليه ، ورغبتها فى كسبه إليها ، أظهرت إهمال دعوته التى وجهها إليها وتجاهلت الكتب التى وصلتها من أصدقائه تستعجل مقدمها ، وفى آخر الأمر حملت فى جبعتها لأنطونيوس من الهدايا والكنوز ما يتناسب وسمعة البلاد المصرية من الغنى، وسافرت إلى طرسوس من أعمال سيليشيا أوقليقية بآسيا الصغرى . وهنا نقتطف من پلوتارخوس وصف رحلة كليوباترة فقد قال[١] .

« ركبت الفلك المشحون بهداياها ، فأخذ يمخر بها عباب الماء ، يلمح فى الجو مؤخره الذهبى ، وقد ارتفعت شراعه إلى أعنان السماء ، ومجاديفه الفضية تهتز فى صفحة الماء وفقاً لأصوات الأراغيل والمزامير والقيثارات ، والملكة متكئة على وسائدها ، قد ضربت عليها قبة منسوجة من خيوط ذهبية ، تحاكى فى زينتها وروائها إلهة الجمال ڤينوس ، يطوف بها ولدان بهيو الطلعة ، بهيجو المنظر ، يشبهون رسل إلهة الجمال ويروحون عليها أحياناً بمراوح حريرية قد تماسكت أجزاؤها بخيوط من ذهب . والجوارى من حولها غاديات رائحات ، يحكين فى منظرهن عرائس البحار ، بعضهن يمسكن بسكانها ، والأخريات يتجاذبن أرسانها ، وأريج العطر يفعم الأنوف ، ونشره قد ملأ الجو ، فانبعث ذلك إلى الشاطئين ، فجاءت الجموع الذاخرة تهرع إليه ، فوجدت فوق ذلك متعة السمع والبصر ، وقد اختلب ذلك المنظر قلوب بعضهم فساير السفينة فى مجراها ، بينما البعض الآخر جاء مسرعاً ليقبس بنظره قبسة من ذلك الجمال الذى احتوته جارية فى اليم . حتى لقد ترك الناس سوق المدينة قاعاً صفصفاً وانفضوا من حول أنطونيوس ، وكان قد جلس لإقامة العدل بينهم ، ليشبعوا نظرهم من ڤينوس ، إلهة الجمال التى هبطت إليهم من السماء فى صورة كليوباترة الحسناء ، التى استضافها باكوس إله الفرح والسرور — كل ذلك من أجل خير آسيا العام » .

---

(١) پلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، فصل ٢٦ .

ولقد نجحت حيلة كليوباترة ، إذ أن أنطونيوس بدلاً من أن يطلبها للمثول بين يديه ، لتجيب عما يوجه إليها من تهم ،اضطر أن يرسل إليها لتتناول معه طعام العشاء . وكان جوابها على ذلك أن دعته إلى مائدتها ، مبينة له أن الأجدر برجولته أن يجيب هو دعوتها ،وهنا نترك الكلام للشاعر الانجليزى شكسبير الذى لخص الموقف أحسن تلخيص فقال على لسان أهينوباربوس (Enobarbus) « إن أنطونيوس الذى عرف بالمحافظة على اللياقة والمجاملة، ولم يجر على لسانه أن قال لامرأه « لا » زين نفسه وأحكم هندامه ، وخرج إلى الوليمة بزينته فرأى ما بهر نظره،وأصاب شغاف قلبه ، ثم جلس إلى مائدتها، وقد أسلم إليها أعز ما يملك الإنسان » وقد خلد لنا سقراط الرودى وصف هذه الوليمة التى أقامتها كليوباترة فى كتابه الثالث من الحرب الأهلية ، ونقلها عنه آثينايوس فى كتابه الرابع من موائد الحكماء[1] فقال : إن جميع أدوات الوليمة الملكية التى أقيمت تكريماً لأنطونيوس كانت من الذهب الخالص ، والآنية مرصعة بالجواهر أتقنتها أيدى صناع مهرة ، وكانت الجدران مغطاة بستائر من الدمقس والحرير المزركش ، وقد علقت عليها قطع مصنوعة من الأرجوان والخيوط الذهبية ،لتكون بهجة للناظرين . ولقد دعت كليوباترة أنطونيوس وصحبه المخلصين لهذه الوليمة ، فبهروا كلهم بجمال وغنى هذه المعروضات ، ولما انتهت هذه الحفلة ألحت عليه هو وحاشيته أن يعودوا للعشاء معها فى اليوم التالى ، وكانت الوليمة الثانية أفخر من الأولى ، حتى إن الآنية التى استعملت فى الوليمة الأولى ضؤلت بجوار مثيلاتها التى استعملت فى المرة الثانية . وعند انتهاء الحفلة أهدت إليهم وإلى غيرهم ممن حضروا الأسرّة والنمارق التى جلسوا عليها ، والآنية التى وضعت أمامهم . أما كبار المدعوين فلقد قدمت إليهم الخيل المطهمة،وأرسلت أمامهم العبيد والأحباش يحملون المشاعل . وفى اليوم التالى احتفل أنطونيوس باستقبالها ، وبذل جهداً جاهداً كبّد فيه مدينة طرسوس من النفقات ما لم تقو عليه ، رغبة منه فى أن تولم وليمة تسامى، فى

---

(١) Athenaeus, Deipnosophistae, IV, 147 – 148.

الأبهة والعظمة، الوليمتين السابقتين اللتين أقامتهما كليوباترة له ، ولكن البون الشاسع بين المحاولتين كان ظاهراً للعيان ، فوليمته تعد مشوبة بالخشونة والسذاجة إذا قرنت بسابقتيها ؛ ولم يتأخر هو نفسه عن أن يكون أول من يعترف بقصوره وعجزه، ويسخر من محاولته ·

إلى هنا ينتهي حديثنا عن المقابلات الأولى ، ومنها نرى أنها لم تكن سوى مجاملات بتبادل الدعوة إلى الطعام والمباهاة بتعدد ألوانه ، وأن تكون أدواته مظهراً للترف والغنى والبذخ . ولننتقل بعد ذلك إلى الحديث عن معاملة كليوباترة لأنطونيوس التي كانت تختلف عن معاملتها لقيصر، لاختلاف الرجلين في النشأة والمشرب ، فكانت ملاحظات أنطونيوس وسخريته ونوع تهكمه من نوع ما يصدر عن الجند ، وليست مما هو خليق بالندماء وجلساء الملوك والملكات الذين تشف أحاديثهم ونوادرهم عن براعة وصقولة في اللفظ لا تدانيها براعة ، ولقد أدركت كليوباترة بمهارة فائقة مدى الفارق، وتنزلت إلى المستوى الذي كان عليه أنطونيوس ، فأكسبتها هذه المقدرة شهرة طبقت الآفاق ، واستحقت بجدارة اللقب الذي أسبغه عليها مؤرخو الإفرنج « محظية الملوك» لأنها بذت جميع النساء في المهارة في معاملة الرجال. ولقد نجحت كليوباترة في خطتها ، وتبدلت الحال إذ « صار أنطونيوس » كما يقول المؤرخ ديوكاسيوس « نصيرها والمدافع عنها، يذب عنها التهم ، مع أنه كان يريد أن يوقفها موقف الاتهام ، ويقف منها موقف الحكم » ، ولكن المؤرخ أبيان [1] يخالفه في ذلك ، ويؤكد أن أنطونيوس لامها في الواقع على عدم اشتراكها في الانتقام لقيصر من قتلته ، وأنبها على عدم اعتذارها ، ولكنها دافعت عن نفسها بقولها إنه كان في عزمها أن تقدم المساعدة ، وأنها بالفعل أرسلت أربعة فرق بقيادة دولابلا (Dolabella) وأنها هي شخصياً لم تعر كلام كاسيوس — وهو أحد القتلة — أدنى اهتمام ، ولم تلب طلبه ، وأنها بدأت وأبحرت على رأس أسطولها ، الذي عصفت به العواصف ،

---

(١) Appian V, 8—9.

وحطمته الزوابع ، فاضطرت إلى العودة إلى الإسكندرية حيث أصابها المرض، ولازمها حتى عقد لواء النصر النهائى لهم على قتلة قيصر [١].

ويظن بعض المؤرخين أن أنطونيوس عفا عنها انتظاراً لمساعدتها ، التى منته بها فى حربه المستقبلة مع الفرس ، ولكن المؤرخ أبيان اتفق مع جميع المؤرخين الأقدمين فى قوله إن أنطونيوس شُده لذكائها الفذ ، وجمالها الفتان فأصبح أسيرها الذى أخذ على نفسه أن يقوم بكل ما تأمره به ملكته ، بدون اعتبار لجميع القوانين ، سواء أكانت وضعية أم سماوية ، فأمر بأختها المسماة أرسينوى (Arsinoe) التى كانت تعتبر حياتها خطراً على عرش كليوباترة فى مصر أن تقتل مع أنها كانت معتصمة بمعبد الإلهة أرتيمس (Artemis) فى إفسوس، كما أمر بقتل مُدَّعٍ عرش مصر يسمى بطليوس الرابع عشر ، كان قد ظهر فى فينيقيا — ولقد تخلصت كليوباترة من هذين من غير ما جلبة . وإن قتل أرسينوى قد سود صحيفة كليوباترة أبد الدهر ودنس شهرتها ، ويميل المؤرخون إلى أن يتخذوا من قتلها لأختها تكأة للطعن فى أخلاقها ، فيسوقونه مثلاً حياً لقسوتها وحبها للانتقام ، ولكن لا يصح أن ننظر إلى الملكة بهذا المنظار القاتم ، وننصب عليها جام غضبنا ، ويكفى للتخفيف من شناعة ذلك الجرم أن نذكر فى حكمنا عليها ، أنه كانت العادة عند البطالمة رجالاً ونساءً على السواء — ألا يجعلوا للرحمة أى سبيل فى معاملة ذوى قرباهم ، خصوصاً مَن كان يُعد من هؤلاء خطراً دائماً وسلاحاً مشهوراً يهدد عروشهم ، ولقد شاع قتل الملوك ذوى قرباهم ، بل أبنائهم عند اللزوم ، حتى لقد سرى عليهم المثل المشهور « المُلك عَقيم » .

ولم تطل زيارة كليوباترة لمدينة طرسوس أكثر من أسابيع قليلة عادت

---

(١) قيل فى وقت من الأوقات إنها آثرت أن تقف موقف الحياد بالنسبة للطرفين ، وإنها آثرت الانتظار حتى ترى الجانب الراجح فتؤيده وتنصره — أنظر بيڤان فى كتابه عن مصر على عهد أسرة البطالمة ص ٣٧٣ — ٣٧٤ ، وفى هذا الرأى تناقض واضح لما جاءت به الأدلة التاريخية الواردة فى « ديو » و « أبيان » . ويفسر بيڤان دفاع كليوباترة وتذرعها بهبوب العواصف بأنه غير جدى ، ولا يمكن تصديقه ويعتبره من قبيل المهاترات النسائية .

بعدها إلى الإسكندرية ، بعد أن نجحت فى الحصول من أنطونيوس على وعد بأن يلحقها إلى الإسكندرية ، ليقضى فصل الشتاء معها (٤١ — ٤٠ ق . م).

وترك أنطونيوس ساكسا (Saxa) الأسبانى ، الذى كان فى خدمة الدكتاتور قيصر رئيساً على القوات المرابطـــة بسوريا ، وأسرع فى اللحاق بالملكة بالإسكندرية فى أوائل فصل الشتاء من عام ٤١ ق.م ، حيث استقبل استقبالا فخماً فى القصر الجميل المعروف بقصر « لوخياس » فى الحى الملكى (بمنطقة السلسلة بالشاطبى) وهناك أمضى فصل الشتاء ، كفرد عادى يجردعن أُبهة الملك، وصَـولة الحكم، فخلع أوسمة القائد الرومانى ، وزى بلاده الأصلى ، واستعاض عنه بالزى اليونانى والحذاء الأثينى الأبيض ، وكان يقضى مع كليوباترة معظم وقته ، ماعدا زيارات فى حين وآخر ، كان يقوم بها لرؤية المعابد والمدارس ، ويحضر مناقشات العلماء والفلاسفة ، ويقول بلوتارخوس بصدد هذه الزيارة: إن أنطونيوس أمضى وقته فى الإسكندرية فى راحة ، وبذا أفنى أثمن الأشياء القيمة كلها ، وهو الوقت فألف نادياً عرف بنادى « الزملاء الذين لا يحاكون » (amimetobioi) وكان أعضاؤه يحتفون بزملائهم ويبسطون أيديهم كل البسط ، وينفقون عن سعة ، ولقد كشف المنقبون فى مصر عن مخطوطتين يونانيتين ، إحداهما بالإسكندرية ، على قاعدة تمثال لأنطونيوس ، كتب عليه « أنطونيوس ذو اليد البيضاء الذى لا يجارى » : أما الثانية فهى قربان « لأنطونيوس العظيم ذى الباع الطويل ، والبسطة العظيمة فى الرزق » .

وكانت الإسكندرية تموج بمثل هذه النوادى ، التى كانت مكـونة على نسق مثيلاتها فى المدن الحرة ببلاد اليونان وآسيا الصغرى . ولكن بكل أسف لم توجد بمؤلفات بلوتارخوس وآثينايوس وديوفم الذهب سوى إشارات قليلة جداً إلى هذه النوادى السياسية والاجتماعية ، وكان أحد أجداد كليوباترة الأولين ، وهو بطليموس الرابع الملقب « فيلوپاتور » ، يحرص على قضاء معظم وقته مع أعضاء مثل هذه النوادى من الرجال والنساء ، الذين عرفوا

باستهتارهم ومجونهم [١] . ولقد كوّن أنطونيوس وكليوباترة ناديهما على نسق جد الملكة الأكبر «فيلوباتور» هذا ، وسبب تسمية هذا النادي بهذا الاسم أن الملكة كانت تريد ألا يتسرب لذهن أحدٍ مهما تكن ثروته، أنه في مقدوره أن ينافس آخر ملكات أسرة البطالمة ، وأن يحاول مجاراتها في بذل المال للاحتفاء بأصدقائها بترف وإسراف يتناسبان مع ما تستطيع مصر واليونان والفرس وروما تقديمه . وإذا ساغ لنا أن نحكم على ما كانت تحتويه هذه الموائد ـ مما نعلمه عن مثيلاتها التي نسقت على نظامها في عهد الإمبراطورية الرومانية ، ووصفها لنا بترونيوس (Petronius) صديق الإمبراطور نيرون ـ إستطعنا أن نتصور مقدار العظمة والفخامة التي كانت عليها هذه الولائم ، حيث كان الضيوف يجلسون على كراسي من الفضة في بهو عظيم أعدّ للاستقبال ، ولإقامة الولائم في القصر الملكي . ولا حاجة بنا إذاً إلى أن نعيد سرد القصص التي قصها بلوتارخوس عن طهاة القصر الملكي ، وإسرافهم إلى حد يفوق التصور . وفي أثناء سرد بلوتارخوس لأخبار هذه الولائم، لم يفته أن يذكر أن كليوباترة كانت تفكر على الدوام في إبتداع وسائل جديدة تَـقَـرّ بها عين أنطونيوس، وتدخل عليه المسرة ، حتى لا يتطرق السأم إلى قلبه؛ فكانت تصحبه في كل مكان ،وكانت عندما تشعر منه أنه لا يجد ميلاً لسماع محاضرات العلماء أو لرؤية التمرينات والاستعراضات العسكرية ، ترتدي ملابس العبيد ويحذو هو حذوها ، ويصحبها متنكرين في شوارع الإسكندرية يبحثان عن مخاطرات ومغامرات جديدة . ولم يكن تنكرهما لتعرف أحوال الرعية ، بل على النقيض من ذلك كان أنطونيوس يقوم بحيل غير مألوفة ، وألاعيب صبيانية يتبذلان بها ، فكان يترتب عليها في بعض الأحيان أن كانا يعودان إلى القصر « وقد أوسعهما الأهالي سباً » ، بل وفي بعض الأحيان

---

(١) كتب المؤرخ پوليبيوس وصفاً لحياة البلاط في عصر فيلوپاتور هذا وما كان يقوم به طغمة من بطانة الملك ووزيره الماكر سوسبيوس من المؤامرات والدسائس مستعيناً بثالوث مؤلف من أجاثوكليس وأخته الجميلة أجاثوكليا وأمهما أوينانتي. وفي هذا الوصف صورة من ألوان الفساد الذي أخذ يتفشى في بلاط البطالمة (پوليبيوس ، الكتاب الرابع عشر والخامس عشر).

لكماً وضرباً »(1). وفى صدد هذه الفكاهات يعتذر بلوتارخوس للقارىء بقوله « إنه من العبث أن نُحصى ألاعيب أنطونيوس وحيله الجنونية التى لا تدخل تحت حصر وعدّ ، ولكننا لا يصح أن نغفل حادثة منها وهى حادثة صيده » التى نذكر هنا تفاصيلها الشائقة ، وهى تُبين كيف استفادت كليوباترة من سعة صدر أنطونيوس ، وقبوله للنادرة ، ولو كانت تُساق مساق السخرية به . ففى ذات يوم خرج أنطونيوس للصيد ومعه جمع كبير من الناس ، ولما اصطاد سمكة لا تعيش إلا فى مياه البحر الأسود ، ضحك كل من حوله وسخروا منه ، ولكن كليوباترة التفتت إلى الصياد الحزين الكئيب قائلة له « دع أيها القائد شبكة الصيد لنا معشر ملوك فاروس وكانوب الفقراء ، فإن صيدك وقنصك يكونان فى الاستيلاء على عروش الملوك وفتح الأمصار ، وتدويخ المدائن »(2). ولم يكن منظر أنطونيوس وهو منغمس فى ملاذه وشهواته مثيراً لشعور أهل الإسكندرية الذين احتملوه ، وغضوا الطرف عن ألاعيبه؛ ولقد أثار حبه للهو واللعب شفقتهم عليه ، وكانوا كثيراً ما يلاحظون عليه أن كان يكشر عن أنيابه للرومان فيظهر عبوساً قمطريراً فى وجوههم ، حين يطفح وجهه بالسرور والبشر فى الإسكندرية وبين أهلها .

وكانت كليوباترة كجداتها وبنات لحمتها اللائى كن يتسمين باسمها أو بأرسينوى أو بيرنيقة يكوّن سلسلة من النساء الشهيرات — شهد لهن التاريخ بالنشاط وطول الباع فى السياسة ، ذوات أطماع شخصية يعملن جهد استطاعتهن لتحقيقها ، ولم تكن ملكات أسرة البطالمة ، كما هو معروف عن أصلهن المقدونى ، يتورعن عن أن يتآمرن وينصبن شباك المكايد لذوى قرباهم ، وكانت الملكات تشتركن فى السياسة ، وتتدخلن فى شئون الملك كغيرهن من الرجال ، ومن أشهر الأمثلة على ذلك وأولاها أرسينوى الثانية أخت وزوجة بطلميوس الثانى (فيلادلفوس) ، ثم برنيقة [illegible] زوجة

---

(1) بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، فصل ٢٩ .

(2) بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، فصل ٢٨ .

بطليموس الثالث يورجتيس وكلاهما كان له باع طويل فى التآمر ، ونصب الشباك لتحقيق المطامع والأغراض الشخصية ، وكان آخر مثل على ذلك كليوباترة السابعة ، وقد أفاضت ماكردى (Macurdy) فى كتابها عن الملكات الهيلينستيات (Hellenistic Queens) فى الكلام عن سلسلة من هؤلاء ، ابتداءً من أوليمبياس والدة الإسكندر الأكبر إلى كليوباترة آخرتهن[١] ، وكان الدافع الحقيقى لارتكاب جرائمهن والانغماس فى شهواتهن أطماعهن السياسية ، وليست شهواتهن الحسية ؛ ولذلك لا يجوز أن يتسرب إلينا شىء من العجب عند قراءتنا تاريخ آخر ملكات هذه الأسرة ، التى كانت على الدوام ، على أتم استعداد لاستخدام وسائل شيطانية ، فى سبيل تحقيق أطماعها ، لا تتورع عن أن تلوث الجرائم يديها لتبلغ أمانيها ، فكان من الهين عليها أن تتآمر وتدس الدسائس مع قيصر لتوطيد عرشها فى الماضى ، وصممت فى هذه المرة على ألا تترك مصر تسقط فى يد الدولة الرومانية بمثل السهولة التى سقطت بها ممالك الشرق الأخرى . وإن مظاهر العظمة والثروة التى تجلت فى رحلتها إلى سيليشيا ، لم تكن صادرة عن رغبة فى إشباع غرام أجوف ، ومجرد هيام إمرأة خالٍ من المرام والغايات ، بل إنها أحكمت تدبير كل الدقائق والتفاصيل التى كانت نتيجة تفكير سابق ، وتدبير قديم ، كى تقيم البرهان الحسى لأنطونيوس ، قائدها وزوجها ونصيرها المستقبل على عظم ثروة مصر ، فتبهر أنظاره بثروة هذه البلاد ، وصادفَ أن كان ذلك وقت ، أن كان أنطونيوس فى حاجة ماسة إلى المال . وكانت كليوباترة هى الأخرى فى حاجة إلى أنطونيوس لتستعين به فى التغلب على أعدائها من بين الطبقات الراقية فى مصر ؛ وزيادة على ذلك فلقد كان ملوك البطالمة كغيرهم من ملوك الشرق الهيلينستى فى ذلك الوقت ، يتقربون من الدولة الرومانية ويخطبون

---

(١) فى هذا المؤلَّف العلمى تناولت الكاتبة الأمريكية دراسة حياة عدد من هؤلاء الكليوباترات والارسينوات والبرنيقات الشهيرات وقارنتهن بنظيراتهن وبينت أوجه الشبه فى سلوكهن ورمت بعضهن بأنهن كن نمرات ، محبات للسلطان ولا يتورعن عن ارتكاب موبقات بل وركوب متن الشطط فيقتلن أقرب الناس إليهن فى سبيل تحقيق أهدافهن .

ودها ويخشون غضبها وبأسها . أما أنطونيوس فلم يجد آسيا مصدراً لتلك الثروة التى كان يحلم بها — لقد أنهكها توالى الضرائب والغرامات حتى أصبحت فى حالة فقر مدقع . أما مصر فكانت الدولة الوحيدة التى احتفظت حتى ذلك التاريخ باستقلالها الإسمى ، وكانت ذات شهرة عالمية بغناها وكثرة كنوزها ، وكان ملوك أسرة البطالمة الاخيرين يعتمدون على نفوذ الدولة الرومانية . فلما أعتلت كليوباترة عرش آبائها المزعزع الأركان كان لأسرتها ظـــل من ذلك النفوذ القديم ، وكانت تلك الملكة المليئة بالطموح تطمع فى إعادة ذلك المجد التليد ، الذى كان لأجدادها من قبل ، ثم عفا ولم تبق سوى آثاره فتعيد تاريخ أجدادها الأول ، وتجعل من سخرية المُلك المزيف حقيقة تطمئن لها نفسها . ولم يكن تحقيق ذلك الحلم بالأمر المستحيل عليها ، إذ كان لديها من المال ما يضمن تنفيذه ، ولم ينقصها سوى الجند والقائد ، ولذلك كان عليها أن تعمل لروما حساباً فى خططها ؛ فصممت على أن تستخدم روما كآلة فى تنفيذ برنامجها وتحقيق أطماعها ، فخطبت من قبل وُد قيصر عند حضوره إلى مصر ، وفى هذه الفرصة خطبت وُد أنطونيوس الذى وجدت فية شخصاً آخر يمكنه أن يمثل ذلك الدور الذى طمعت من قبل فى أن يمثله قيصر فى برنامجها الإمبراطورى — لذلك أخذت على عاتقها أن يكون أنطونيوس فى صفها ، وأن تؤثر فيه منذ البداية بفتح قلبها له ، وإغرائه بكل ما تملك المرأة من وسائل الإغراء — ثم عرضت عليه فى طرسوس مشروعاً خلاباً يتضمن عقد محالفة بينهما ، ولقد كانت رغبتها أن توقظ شغفه وتريه إمكان جعل مصر مركزاً لحملة عدائية ضد روما : كما أرادت أن تجعله يؤمن بأنه إذا انتصر لقضيتها وقضية ابنها « قيصرون » الذى ولدته لقيصر ، وضعت تحت يده ثروة مصر وكنوزها التى لا تفنى ، فيملأ بها خزائنه الخالية الوفاض ، وكان قد اعترُف بابنها من قبل كشريك لها فى ملك مصر عام ٤٢ ق م ووافق كل من أنطونيوس وأكتافيوس على ذلك ، وكان قد لقب قيصرون كما يأتى « بطلميوس قيصر المحب لأبيه وأمه »[١].

(١) مجموعة النقوش اليونانية (Corpus Inscriptionum Graecarum) رقم ٤٧١٧ .

كان أنطونيوس وهو الخليفة الفعلى لقيصر ، الشخص الوحيد الذى يمكنها إذا ما تحالفت معه من أن يفتح لها هذا الملك العريض ، الذى كانت تصبو نفسها إليه ، والذى كان قتل قيصر السابق لأوانه سبباً فى يأسها أمداً قصيراً من تحقيقه . وعلى ذلك كان لزاماً عليها أن تفهم أنطونيوس المزايا الحقيقية التى تنجم عن اشتراكهما فى العمل، وضرورة مساعدتها له مادياً كيما يتخلص من منافسه ومناظره فى المستقبل وهو عدوه اللدود . فعليها إذاً أن تريه عظم الثروة المصرية التى كانت كلها تحت تصرفها حتى تكسب مساعدته . وإذا ما رأى عملياً مقدار ما عليه البلاد من الثروة كان من غير المعقول أن يرفض القيام بمشروع يصل به إلى الذروة فيقبض على العرش بيديه ، ويصبح هو وكليوباترة وابنها قيصرون ملوك العالم الثلاثة — على ضوء هذه الحقائق يجب أن ننظر إلى مسلك كليوباترة ، ونفسر بذلها عن سعة فى طرسوس وفى المحافل التى أقامتها بالإسكندرية ، فلا ننساق وراء أعدائها ، وننسب كل هذا إلى مجرد التبذير والإسراف والغرور من جانب كليوباترة ، إذ كان كل ذلك فى الواقع صادراً عن أسباب سياسية ، ولا نكون بعيدين عن جادة الصواب أو غالين إذا اعتبرنا أن هذا المسلك كان تمهيداً لعقد تحالف نهائى بينهما عند ما تسنح الفرصة المناسبة لكشف القناع ، واتخاذ هذا المسلك النهائى .

وكان الفرس قد انتهزوا فرصة غياب أنطونيوس ، وذهابه لمصر لقضاء فصل الشتاء ٤١ — ٤٠ ق . م مع كليوباترة ، تاركاً الأمر لپلانكوس فى آسيا الصغرى وساكسا فى الشام ، وهاجموا الرومان فى كل مكان ، واقتحموا المعاقل والحصون فى الشام وآسيا الصغرى ، منتهزين فرصة هيام أنطونيوس وغرامه بالملكة كليوباترة ، وانقضوا على جيوش الرومان التى كانت متخاذلة خائرة القوى ، فاكتسحت جيوش الملك الفارسى أُروديس (Orodes) بمعونة رومانى فار اسمه لابينوس (Labienus) ، أقاليم كثيرة ، كان قد أغضبها سوء معاملة الرومان ، وثقل الضرائب على كاهل أهلها والمغارم التى

كانوا يرزحون تحت أعبائها فاستولى الأعداء على سوريا وفينيقيا ، وفر كل من ساكسا وپلانكوس عاملى أنطونيوس . ويدعى المؤرخون الأقدمون أن أنطونيوس استهان بشئون الدولة فلم ينفض عنه نفوذ كليوباترة ، ولم يسارع لمحاربة الفرس فى الشام وآسيا الصغرى أو لمساعدة زوجته « فُلفيا » وأخيه لوكيوس أنطونيوس ، وكانا قد أثارا حرباً ضد أكتافيوس فى إيطاليا. وفى تعرف الدوافع الحقيقية لتلك الأحداث التاريخية ، كان معظم الكتاب الأقدمين يلقون القول على عواهنه من غير تمحيص للحقائق ، ولا تحرٍ للدقة ، فقالوا إن أنطونيوس كان ناسياً كل شيء ، غارقاً فى بحار حبه لكليوباترة ، حتى لقد أسرف المؤرخ ديو ، فزعم أنه كان « غارقاً فى أدنان الخمر » . وإننا لنعترف بادىء ذى بدء أن أنطونيوس مضى جزءاً كبيراً من وقته فى الإسكندرية فى إشباع شهواته ، إلا أن جاذبية كليوباترة لا يمكن أن تكون السبب الوحيد فى استهانته التى يزعمونها . وإنه لمن السهولة بمكان أن تدحض هذه المزاعم والمآخذ على أنطونيوس بالملاحظات الآتية التى أهملها الرواة الأقدمون ، فمنها أن أنطونيوس لم يلحق بكليوباترة فى الإسكندرية إلا بعد أن كان الخلاف فى إيطاليا بين زوجته وأخيه وبين أكتافيوس قد استفحل ، ومنها أن الحصار الذى ضرب على أنصار أنطونيوس فى بيروسيا بإيطاليا وقع فى منتصف فصل الشتاء ، وقت أن كانت الملاحة فى البحر المتوسط عسيرة ، وهذا يجعلنا نجزم بأن أخبار الحصار لا يمكن أن تكون قد وصلت إلى أنطونيوس إلا فى بدء عام ٤٠ ق . م ، وذلك بعد سقوط هذا الحصن وفوات أوان إرسال أى نصيب من العون والمساعدة. وفوق ذلك فإنه عندما ترك أنطونيوس الإسكندرية لم ير كليوباترة مدة طويلة بلغت نحو أربع سنين ، وهذه حقيقة تكفى للبرهنة على صحة الرأى القائل بأن محبة أنطونيوس لكليوباترة لم تكن سبباً يشغله عن التفرغ للشئون السياسية عندما تدعوه المخاطر إلى التقدم للقائها .

غادر أنطونيوس مدينة الإسكندرية فى أوائل فصل الربيع ، وسافر إلى

صور بطريق البحر قاصداً إنقاذ المدينة ، وتخليصها من يد الفرس ، ولما وجد أن كل سوريا قد سقط فى يد العدو، ترك المدينة تنتظر حظها واعتذر بقوله إن وجوده أصبح ضرورياً فى إيطاليا ؛ ولقد علم بخبر سقوط مدينة بيروسيا وهو فى ميناء بحرية بآسيا الصغرى، فأنحى باللائمة على زوجته «فلفيا» وأخيه لوكيوس وترك « فلفيا » مريضة فى بلاد اليونان ، وركب البحر الأدرياتى ميمماً شطر برنديزى فى إيطاليا ، حيث ألقى مراسى سفنه آخر الأمر على سواحلها ، وأخذ يفاوض فى الصلح مع أكتافيوس ، ونجح بعض المصلحين فى إزالة نوازع التربين قائدى الرومان العظيمين ، وفى هذه المرحلة وصل خبر موت «فلفيا» فاستراح كلا الجانبين لتخلصهما من امرأة مشاكسة :

ولقد تم الاتفاق بين القائدين على معاهدة تعرف باتفاقية برنديزى فى سبتمبر سنة ٤٠ ق . م ، واتفق فيها على تقسيم العالم الرومانى من جديد إلى قسمين تفصل بينهما مدينة «اشقودرة» فيكون من نصيب أنطونيوس كل بلاد الشرق، ويكون نصيب أكتافيوس دالماشيا وإيطاليا وسردينيا وأسبانيا وبلاد الغال ، ووكل إلى أنطونيوس أن يأخذ على عاتقه إخضاع الفرس . ولتوثيق عرى المودة بين الطرفين المتعاقدين قبل أنطونيوس أن يتزوج من أكتافيا وهى أخت غير شقيقة لأكتافيوس وأصبح هذا الزواج ممكنا بعد موت فلفيا التى قيل إنها ماتت حزناً وكمداً لعدم اكتراث أنطونيوس بها وإنصافها والانتقام لها مما أصابها من أكتافيوس. واستطاعت أكتافيا بما أوتيت من جمال محتشم وخلق كريم ومقدرة عقلية أن تكسب قلب زوجها وقتا ما، فلم يرجع إلى كليوباترة وولديها التوأمين لبضع سنين . وبمجرد الانتهاء من عقد المعاهدة مع أكتافيوس اتجه نظر أنطونيوس نحو إخضاع الفرس وطردهم من البلاد التى استولوا عليها فى الشام وآسيا الصغرى ، فعيَّن القواد وبث فيهم روح الحماسة ليبذلوا أقصى ما فى وسعهم لاسترداد الأقاليم التى ضاعت ووقعت فى يد الفرس منذ سنتين ، وقد أمكن تشتيت شمل الفرس وإلحاق الخسائر بهم ، ففروا تاركين الشام وسيليشيا (قيليقية) للرومان ، ولما أعادوا الكرة

لمهاجمة الشام فى السنة التالية أى سنة ٣٨ ق. م ، صدوا مرة أخرى ، واستطاع الجيش الرومانى أن يكسب نصراً مجيداً ، وقد احتفى أنطونيوس فى أثينا بما كسبه هو وقواده من انتصارات ، وأسبغ عليه الأثينيون من ألقاب الشرف ما يتناسب مع المجهود العظيم الذى قام به فى حربه مع الفرس ، ثم أقيمت صلاة الشكر وسارت مواكب النصر إجلالا واحتراماً لأنطونيوس ونفر من قواده ، وفى ربيع عام ٣٧ ق. م ، غادر أنطونيوس أثينا فى طريقه إلى تارنتوم لمساعدة زميله أكتافيوس، ولكن الأخير تلكأ فى مقابلته وتردد فى قبول المطالب التى عرضها عليه . وكان من الجلى أن شيئاً من سوء التفاهم قد دب بينهما ، وقد توسطت أكتافيا فى الأمر بين الإثنين واستطاعت تلك الإمرأة العجيبة على حد قول بلوتارخوس أن تقيم السلام بين زوجها وأخيها عندما كان تحالفهما مهدداً بأن تنفصم عراه سنة ٣٧ ق. م ، فتقابلا بالقرب من تارنتوم ، وقبل كل طرف من الطرفين مطالب الآخر من جند وسفن لتنفيذ برنامجه ، وكتب المؤرخ أبيان أنهما حسما الخلاف فى أهم موضوع كان عالقا . « وبما أن مدة الاتفاق أو الحلف الثلاثى (Triumvirate) التى منحت لهما كانت على وشك الانتهاء ، فإنهما جدداها خمس سنين أخرى بدون الرجوع إلى الشعب الرومانى»[1] . ولما تم الوفاق بينهما افترقا فعاد أنطونيوس إلى الشرق، ورد زوجته أكتافيا إلى إيطاليا من جزيرة كورسيرا[2] ، بحجة أنه لا يجب تعريضها إلى أخطار الحرب الفارسية .

حملة أنطونيوس على بلاد الفرس عام ٣٦ ق. م ودور كليوباترة

ترك أنطونيوس زوجته أكتافيا ومعها أبناؤها . بعد أن غادر إيطاليا عائداً إلى سوريا ، وهو على شيء كثير من الامتعاض ، وكان مسلكه الذى استنه لنفسه بعد ذلك فى الشرق يدل على أنه كان متأثراً بالحوادث ، التى وقعت بينه

(١) أبيان ، الحرب الأهلية ، ٧ ، ٩٥ .
(٢) Dio, XLVIII, 54.

وبين أكتافيوس قبل عودته إلى الشرق مباشرة ؛ إذ كانت حالة أكتافيوس في أثناء مفاوضاته ومساومته مع أنطونيوس سبباً في إثارة كثير من الشك والخوف فى نفسه ، ولم يكن قد نسى الإهانة التى أصابته من أكتافيوس فى تارنتوم، واضطرته أن يلح فى عقد اتفاق لم يكن بأى حال ذا منفعة كبيرة له . وعلى ذلك كانت هذه التسوية غير المُرْضية التى تمت فى تارنتوم،مضافاً إليها ذلك الصلف الذى أظهره أكتافيوس فى هذه الأثناء من الأسباب التى جعلت أنطونيوس يفكر فى إتخاذ أقوم الطرق ليسلكها فى المستقبل ، ولا بد أن يكون قد تأكد أن سلطة مناظره قد ازدادت فى أثناء غيابه عن إيطاليا ، ولعدم مقدرته على جمع الأموال من آسيا التىكانت فى ضيق ، قارب حد الإفلاس . وفوق ذلك فإنأعداء أنطونيوس كانوا علىأتم استعدادلكى ينسبوا عدموجودهذه الأموال لديه إلى انغماسه فى شهواته فى الشرق ، ولقد أدرك الطرفان أن وقوع النزاع والاصطدام وشيك ، ولكن أنطونيوس رأى أن أولى الخطوات التى يجب أن يخطوها ، أن يسترد محبة الرومان له بكسب انتصارات باهرة ، ولكن تنفيذ ذلك المشروع كان يتطلب المال الذى هو فى حاجة شديدة إليه . واضطرته حاجته المالية هذه أن ينزل عن جزء من أسطوله فى تارنتوم لزميله . ولقد كانتهذه المصاعب الماليةالسبب الأكبر فى تحالفه مع كليوباترة ومصر التى كانت أغنى بلاد الشرق فى ذلك الوقت ؛ إذ لم تخربها الحروب الأهلية ، والثورات الداخلية منذ بضع سنين، وقد رأى بثاقب فكره أن هذا التحالف المرتقب سيكفل له أن تضع مصر تحت تصرفه كل مايحتاج إليه من الأموال للإنفاق على جيشه ، وتنفيذ مشروعاته الواسعة النطاق . وتحت سلطان تلك الاعتبارات أرسل رسوله فونتيوس كابيتو (Fonteius Capito) إلى الإسكندرية يدعو كليوباترة إلى مقابلته فى سوريا . أما عنمشاعر كليوباترة إزاءتلك الأحداثالجسامطوال أكثر من ثلاث سنوات ،كان فيها أنطونيوس مُعْرِضاً عنها كل الإعراض تاركا إياها من أجل سيدة رومانية، فإن التاريخ لم يسجل لنا شيئاً عنذلك.

وإنه لا يمكن الجزم بحقيقة نية كل من أنطونيوس وكليوباترة ـ أكان ينوى العودة إلى أحضان كليوباترة ؟ وهل كانت تطمع فى أن يعود إليها بعد أن تركها فى المرة الأولى فى أوائل فصل الربيع عام ٤٠ ق.م ؟ أم تسرب إلى ذهنها أن أنطونيوس هجرها ؟ ولكن لا يمكن أن نتصور كليوباترة حزينة كئيبة وقد استولى عليها الجزع ، واستسلمت لليأس ، ملقية بنفسها داخل قصرها تذرف الدمع الهتون على سفر أنطونيوس . وليس هناك من شك فى أن أنطونيوس الذى كان يعلم علم اليقين أن مساعدتها ذات قيمة ومنفعة كبيرة له فى حربه المستقبلة ، وفى تسوية النزاع بينه وبين زميله على السيادة فى العالم لابد كان يراسلها فى أثناء غيابه ، كما نستنبط ذلك من علاقتهما التى اشتدت أواصرها بعد ذلك ، كما أنه لا بد أن يكون قد حاول أن يبرر لها أن زواجه بأكتافيا كان لغاية سياسية . وبينما كانت كليوباترة تحكم مصر بالاشتراك مع ابنها « قيصرون » ، كانت ترقب باهتمام عظيم حركات الزعيمين الرومانيين ، كما أن من تثق بهم من المصريين الذين كانوا فى حاشية أنطونيوس لابد أنهم أيدوها بالمعلومات أولاً بأول عن التغيرات السريعة والتسويات السياسية التى تمت بين القائدين . وعلى ذلك فإن دعوة أنطونيوس لها لمقابلته فى الشام كانت راجعة إلى اعتبارات سياسية أكثر منها غرامية ، وليس كما يقول بلوتارخوس الذى يعلل مسلك أنطونيوس بقوله « إن ولع أنطونيوس بكليوباترة ، الذى كان قد أنطفأت جذوة نارة وسكن لهيبه بتغلب العقل وصواب الرأى إستجمع قوته مرة ثانية ، وتأججت نيرانه من جديد »[١] . ولو أننا لا يمكننا أن ننكر أن تجديد العلاقات مع الملكة واللحاق بها

---

(١) المؤرخ الفرنسى بوشيه ليكلرك فى كتابه تاريخ اللاجيديين Bouché Leclercq, Hist. des Lagides ، جزء ثان ص ٢٥٢ ؛ جاردهاوسن فى كتابه عن أغسطس وعصره : Gardthausen, Augustus und seine Zeite ص ٢٩١ إذ يقول إنه لا يرى دافعاً آخر غير محبة أنطونيوس للملكة لتفسير مسلكه هذا ، وهو فى هذا الرأى يتبع بلوتارخوس ؛ أما الكاتب الإيطالى « فيريرو » فيرى فى تفسير مسلك أنطونيوس دافعاً سياسياً رمى من ورائه إلى جمع الأموال للصرف على حملته . أنظر الترجمة الإنجليزية لكتابه ، الجزء الرابع ص ٣ .

وربما أثار فى نفس أنطونيوس لواعج الغرام ونزعة الشباب بعد تخلصه من قيود الزوجية بأكتافيا التى كانت هادئة تورث الإقامة معها ووجودها بجانبه السآمة والملل وقد نجم عنها النفور والابتعاد، إلا أنه من الجائز جداً أن نسلم بأن هذه الخطوة من جانبه ودعوته لها للحاق به كانتا ناتجتين عن أسباب سياسية وأسباب شخصية معاً. ومهما كان شعور الاستياء والغضب الذى لابد قد تملكها ، وأصبح دفينا فى قرارة نفسها فإنها كانت تتوق إلى فرصة التلاق والعودة إلى الاتصال بحاكم الشرق على أى نحو. ولقد قبلت كليوباترة الدعوة التى وجهها لها أنطونيوس على يد « فونتيوس كاپيتو » ، وبغير أن تتجه إلى ذلك التأخير الذى تعمدته فى المرة الأولى عند دعوتها لمقابلته فى طرسوس، بل أسرعت فى هذه المرة للحاق به فى مدينة أنطاكية بالشام. وإنه لمن الأسف أن التاريخ لم يسجل لنا مادار بينهما فى مقابلاتهما الأولى ، ولكنه يُظن أن أنطونيوس أكد لها إخلاصه ، وأنه تلمس الأعذار لمسلكه السابق فيما يتعلق بغيابه الطويل ، وزواجه بأكتافيا على أنهما يرجعان لأسباب سياسية. ويظهر أنه لم تكن هناك صعوبة كبيرة فى الوصول إلى شروط اتفاق أبرم بينهما ، كان من مقتضاه أن وهبها بلاداً تعهدت فى نظيرها أن تضع تحت تصرفه كل ثروة بلادها من أجل الإنفاق على مشروعه العظيم ، وهو حملته الفارسية، وعلى هذا الأساس أقطعها الأقاليم الغنية وحقول البلسم حول اليرموك وفينيقيا وكويلى سوريا أوسوريا الخالية المعروفة بسهل البقاع (فلسطين) وإقليم الأعراب النبطيين وقبرص وجزءاً من سيليشيا أو قيليقية. ولقد ترتب على هذه المنح أن غضب الرومان ، واشتد امتعاضهم ، وانتقدوا أنطونيوس مر الانتقاد بسببها. واختلف المؤرخون الأقدمون فيما يتعلق بتاريخ هذه الهبات ، وفيما إذا كانت كلها قد أعطيت فى وقت واحد ، فذكر بلوتارخوس أن هذه الهبات كلها قد منحت عام ٣٦ ق.م قبل الحملة الفارسية[١]. ويتفق معه المؤرخ ديو فى نسبتها إلى عام ٣٦ ق . م ، ولكن بعد الحملة

---

(١) بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، فصل ٣٦

الفارسية عقب عودة أنطونيوس إلى الإسكندرية [١]. أما المؤرخ اليهودى يوسيفوس فقد قسم هذه المنحة ، فخص الجزء الذى منح من شمال بلاد العرب والبرموك ويهوذا وفينيقيا الى عام ٣٤ ق . م، عندما دعى هيرود إلى لاوديكيا ليبدى أسباب مقتل أرسطوبولوس [٢] . ولقد انقسم المؤرخون الحديثون فى الرأى فقبل شيرر (Shurer) قول يوسيفوس بينما قبل جارد هاوسن وبوشيه ليكلرك قول بلوتارخوس أما كروماير (Kromayer) فقد نسب هذه الهبات إلى سنة ٣٦ ق. م قبل الحملة الفارسية ونسب الاختلاف بين ديو وبلوتارخوس إلى إهمال ديو فى تأريخ الحوادث التى حدثت فى هذه السنة وترتيب وقائعها [٣].

وإن مصر باستعادة هذه الأراضى والبلاد ، قد رُدت لها أملاكها التى كانت لها أيام ملوك البطالمة الأولين ، وبخاصة على عهد كل من بطلميوس الثانى وبطلميوس الثالث . وكان الرومان قد استولوا على بعضها فى عهد ملوك هذه الأسرة البطلمية المستضعفين ، ولذلك تستحق كليوباترة أن تغبط نفسها على هذا النصر ، إذ استردت أملاك مصر ومجدها الذى كان لها أيام أعظم أجدادها وهو بطلميوس الثانى (فيلادلفوس) . ولقد كان استرداد هذه البلاد جزءاً من السياسة المصرية ، ولذا يعتقد المؤرخ « جارد هاوسن » أن هذه الهبات كانت السبب الذى من أجله ابتدأت كليوباترة ميقاتاً جديداً فى حكمها . ويوجد على عملة سُكت بعد ست سنوات من تاريخ هذه الهبات وجه كل من أنطونيوس وكليوباترة ، ومعهما العبارة الآتية :

« فى حكم الملكة كليوباترة وفى السنة الحادية والعشرين التى هى أيضاً

---

(١) ديوكاسيوس (Dio Cassius, XLIX, 32)

(٢) يوسيفوس ، تاريخ اليهود ، قسم ١٥ ، ٢٤ ، ١ — ٢

(٣) جاردهاوسن، «أغسطس وعصره» ص٢٩٢ ؛ بوشيه ليكلرك ، تاريخ اللاجيدين جزء ثان ص ٢٥٥ ؛ كروماير فى مجلة هرميز (Hermes) عدد ٢٩ ص ٥٧١ — ٥٨٥ وتجد آراءه ومقترحاته ممحصة ومدروسة فى دائرة المعارف الألمانية Pauly—Wissowa فى مقال له عن هيرود .

السنة السادسة من حكم الإلهة ». ومما يؤيد نظرية « جارد هاوسن » السابقة ما سجله التاريخ من أن كثيراً من الملوك فى الشرق جعلوا استيلاءهم على أقاليم جديدة مبدأ لتاريخ جديد ، يحيون به ذكرى فتوحهم ، ويثبتون به لدى الأجيال مفاخرهم. ولقد استنبط بعض المؤرخين الحديثين أن ذلك البدء التاريخى ليس سببه إضافة أملاك إلى الدولة فقط ، بل سببه تخليد لذكرى تلك الزيجة التى تمت بينهما فى أنطاكية عام ٣٦ ق م. فبدأت الملكة تعد ذلك التاريخ بدء عهد جديد فى تاريخ حكمها وأن هذه الهبات ما هى إلا مهر زواجها. ويظن المؤرخ الإيطالى « فيريرو » الذى برهن بمهارة فائقة على صدق الرأى القائل بزواجهما فى هذه المرحلة أنه قد كان هناك منهاج واسع النطاق قد أُحكم ترتيب أجزائه بدقة فائقة ، فيكون معنى ذلك الزواج وضع وادى النيل تحت الحماية الرومانية ، وجعل كنوز البطالمة كلها تحت تصرف أنطونيوس ، ينفق منها فيما يشاء وكيفما شاء ، ولكن يسوق بعض العلماء الحجج التى يدحضون بها الرأى القائل بأن الملكة تزوجت أنطونيوس نهائياً فى هذه المرحلة ، وسوف نعود إلى موضوع هذه الزيجة وكل ما يتعلق بها فى مكان آخر من هذا الكتاب[1] .

لقد كان أنطونيوس يعلم حق العلم أنه بقيامه بالحملة الفارسية التى فكر فيها قيصر من قبل ، سوف يُقوى مركزه وينشر مهابته فى الشرق ، ويجذب إليه قلوب الرومان فى الغرب. ولقد كان أنطونيوس وهو الظافر فى فيليباى ينتظر أن يوفق فى مشروعه ، وأن يتوج اسمه بلقب « قاهر الفرس ». استهواه ذلك الخيال الرائع ، فخيل إليه أنه فاتح الفرس ، وأن الرومان سينادون به بطلهم المنشود وقائدهم المغوار وليثهم الهصور ، وبذلك يأفل نجم أكتافيوس ويختفى اسمه تحت لألاء صولته ، ومظاهر قوته ، وبذلك

---

(١) لترون Letronne, Recueil des incriptions grecques et latines de l'Egypte. ص ٩٠ من الجزء الثانى؛ وفيريرو ، الجزء الرابع من الترجمة الإنجليزية ص ٦ — ٨ .

تَصَوَّر أن الحملة الفارسية إذا كللت بالنجاح – ولم تجل بنفسه خالجة ريب فيه – كانت عاملاً كبيراً فى جلب محبة الرومان ، وإمداده بالرجال والمال والكنوز التى تلزمه لهزيمة منافسه ونظيره فى الغرب . وفوق ذلك يجد من ذلك الفتح المبين معيناً يستمد منه مدداً من المال وقوة الرجال .

جمع أنطونيوس جيشاً مكوناً من عشر فرق وعشرة آلاف من الفرسان، وتقدم إلى الأمام بجيشه تصحبه كليوباترة حتى وصل إلى مدينة زوجما (Zeugma). وعندها تركته الملكة فى منتصف مايو تقريباً ، وفى هذا المكان حاول التغرير بخصمه ، فأوهمه أنه يريد عبور الفرات ، ثم تقدم مختاراً الطريق الذى اتبعه بعد تفكير طويل مسترشداً فى ذلك بالخطط التى تركها له قيصر ولكنه أساء الاختيار ، وقاسى الأهوال واضطر إلى التقهقر ، ولم ينج من مضايقة العدو له فى أثناء تقهقره وسيره داخل أرمينيا فى طريقه إلى الشام ؛ وفى أثناء المرحلة الأخيرة من تقهقره كانت أمام فلول جيشه ثلوج الشتاء شبحاً مخيفاً فتك بهم ، وبلغ من ماتوا فى هذه المرحلة الأخيرة من زحفه داخل أرمينيا إلى الشام ثمانية آلاف . وينسب المؤرخون الأقدمون عودة أنطونيوس إلى الشام إلى ميله الشخصى فى أن يكون بجوار كليوباترة ، ويظن بعض المؤرخين الحديثين أن هذا هو السبب الوحيد الذى يمكن أن يعللوا به عودته إلى الشام وسط هذه الصعاب ، وهناك رأى مخالف لذلك، ويعلل مسلك أنطونيوس بخوفه من خيانة أخرى ومكيدة يوقعه فيها ملك أرمينيا . وعلى ذلك لا يمكننا أن نجزم بيقين أدفعه إلى العودة إلى الشام خوفه من خيانة جديدة إذا بقى بأرمينيا ؟ أم أن عشقه المُلح لكليوباترة هو الذى حمله على التعرض لأخطار جديدة بزحفه إلى الشام ، وكانت قد بدأت ثلوج الشتاء فى التساقط والنزول ؟ وقبل أن ينتهى فصل الشتاء وصل إلى الشام جزء من ذلك الجيش العرمرم الذى بدأ زحفه فى الربيع السابق بشجاعة لا يعرف لها مثيل . وفى القرية البيضاء بين صيدا وبيروت انتظر أنطونيوس وصول كليوباترة التى حضرت ومعها من الملابس والأموال ما ساعد أنطونيوس

على تخفيف ويلات الجند الذين قسّم بينهم الأموال التى قدمتها كليوباترة بعد أن أضاف إليها من أمواله الخاصة . وكان يقضى الوقت فى انتظار فترة حضورها على أحر من الجمر ، يحتسى الخمر ويترقب وصول المركب التى تحمل الملكة ومعها الملابس لجنده ليستبدلوا بها أسمالهم البالية .

ولقد عاد أنطونيوس إلى الإسكندرية ، وأحدث من التغييرات فى الحكام والملوك ماجعله يظهر للعالم الرومانى أجمع كأنه ملك شرقى عظيم يملك فى قوته أن يعين ملوكاً ويخلع آخرين ، واعترف رسمياً أثناء هذه الإقامة ببنوة الطفلين التوأمين الإسكندر وكليوباترة ، ثم بطلميوس الصغير المسمى فيلادلفوس منه . وقد اختلف كل من بلوتارخوس وديو فيما يتعلق بتاريخ هذه الحادثة الأخيرة فيقول الأول : إن ذلك الاعتراف ببنوة هذين التوأمين تمّ فى زوجما فى سنة ٣٦ ق.م [١] ، أى قبل الحملة الفارسيـــــة فى حين يؤرخ ديو ذلك الاعتراف للتوأمين ولبطلميوس الصغير الذى ترجح ولادته فى أثناء الحملة الفارسية فى سنة ٣٦ أيضاً ، ولكن يخالفه فى تأخير الاعتراف حتى بعد الحملة . ويظهر أن ذلك الاختلاف بين المؤرخين القديمين لم يتسبب عن إهمال فى التدقيق من أحدهما ، بل تسبب عن أن ديو كان يريد أن يجعل الاعتراف شاملا لثلاثة الأخوة ولذلك يرجح أن يكون هذا الاعتراف قد تمّ فى الإسكندرية لا فى زوجما .

وهكذا تبددت آمال أنطونيوس فى النصر وانهارت فى سنة واحدة قضاها فى حملته الحربية ، وفشلت تلك الحملة الفارسية فشلا واضحاً ، وخاب مشروع قيصر على يدى تلميذه وخليفته . ولو أنه خصص وقتاً أطول للقيام بهذه الحملة وكان فى وسعه أن يولى ظهره لمنافسه أكتافيوس لمدة طويلة تتيح له أن يضطلع بمهام هذه الحملة على الوجه الأكمل لتبدل الحال غير الحال . ولربما إذا كان قد ترك لنفسه العنان ، وغامر بنفسه فى حملة طويلة الأمد وصعبة المراس فى فارس ، كان وجد أن الشرق برمته قد خرج من قبضة يده

---

(١) بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، فصل ٣٦ ؛ ديو قسم ٤٩ ، ٣٢ .

كما حصل فى الغرب . ولذلك كان لزاماً عليه أن ينجح فى الحال إذا كان فى الإمكان أن ينجح مطلقاً ، ولكنه قد فشل فى هذا كله فكان هذا أول عثرة عثرها ، فلج به العثار من بعد إلى الخسران المبين — وكانت نتيجة هذه الحملة أن عاد أنطونيوس أدراجه لا كالقائد الذى عقدت له ألوية النصر ، وكلل جبينه بأكاليل الغار محملاً بالغنائم والأسلاب من الشرق البعيد . بل عاد قائداً مخذولاً اقتصر نجاحه فى قيادة جيشه المهزوم إلى الوراء ونجاته من خراب تام . واقتصرت مهارته فى أنه أحسن الفر ، وإن لم يحسن الكر ، فقد استطاع أن يعود ببقية جيشه سالمة . ولما حاول أن يعيد الكرة بإعداد حملة أخرى على بلاد الفرس ، كانت حماسته فيها مفلولة بذلك الانهزام ، وتردد خشية أن تتكرر المأساة ويعاد تمثيل رواية الفاجعة الأولى مرة ثانية . وإنه لمن الجائز أن يسوق النقاد القول بأن جيش أنطونيوس كان أحد الجيوش الكبيرة جداً التى جهزتها روما ، وأنه كان أولى به فى الأحوال العادية أن يتقدم على الأقل نحو عاصمة الفرس ، إن تعذر عليه إخضاعها ولكنه لا يصح أن يعزب عن بالنا أن أنطونيوس كان يقوم بمحاولته هذه وسط ثورة وليس لديه من المال ما يكفى ، ولا بين يديه من الرجال سوى من تيسر جمعه فى أثناء الحروب الأهلية . وفوق ذلك كان فى أشد الحاجة إلى بضعة انتصارات باهرة يثبت بها مركزه ، ويؤكد ولايته على الشرق . ولربما إذا كان لديه مال أكثر ، ووقت أطول يريح فيه جنده فى أرمينيا فى السنة الأولى ، ثم يغزو ميديا فى السنة التالية ، ثم يحاول بعد ذلك غزو الفرس ، كان الحال أحسن ولقى من النجاح ما كان يأمله . ولكنه كان فى حاجة ماسة إلى إحراز النصر فى أقل وقت ممكن ، وذلك لأنه كان مضطراً أن يكون على دوام الاتصال بما يجرى من الأحوال فى إيطاليا وفى الشرق ، وهذا يفسر عدم قدرته على توفير الوقت الكافى لمشروع كان يحتاج إلى ثلاث أو أربع سنين حتى يضمن نجاحه وفى هذه الحالة الأخيرة لم تكن لتساعده الأموال التى كانت تحت تصرفه ، ومن الجائز أن يرفض جنده الاشتراك فى حملة يطول أمدها بهذا القدر . وعلى ذلك يكون فشله راجعاً من بعض الوجوه إلى خطأ

فى وضع خططه الحربية ، ومن جهة أخرى للحالة السياسية التى كان عليها العالم الرومانى والتى تطلبت السرعة فى اتمام غزوته وفى تقهقره . ولقد لخص المؤرخ ممسون الموقف بقوله « إنه مما لاريب فيه أن هذه الحملة كانت آخر بريق مضىء فى نجم أنطونيوس دالٍّ على شجاعته ومقدرته ، ولكنها كانت من الوجهة السياسية عاملا كبيراً فى هدمه وبخاصة أنه فى الوقت نفسه كان أكتافيوس قد أنهى حرب صقلية على وجه مرض ، وهذه أكسبته السيطرة فى الغرب وجلبت له ثقة أهل إيطاليا ومحبتهم فى الحال والمستقبل »[1].

(١) ممسون (Mommsen) فى الترجمة الانجليزية ، جزء ثان ص ٣١ .

الفصل الرابع

الإسكندرية تشهد الاحتفال بالنصر على أرمينيا سنة ٣٤ ق.م وتوزيع هبات إقليمية على أبناء كليوباترة

حملة أنطونيوس على أرمينيا

فى ربيع عام ٣٥ ق.م تجددت الآمال فى القيام بحملة جديدة على فارس ، وغادر أنطونيوس مصر ، معلناً فى الظاهر رغبته فى القيام بحملة فارسية ثانية ، وهو فى الواقع يبغى أن يأخذ ملك أرمينيا على غرة منه ، ويقبض عليه ، ولقد صحبته كليوباترة فى رحلته إلى الشمال . وإذا كانت هى التى أصرت على اصطحابه ، فلقد برهنت الحوادث على بُعد نظرها وفراستها ، فما لبثا أن وصلا إلى الشام حتى وصل إلى مسامع أنطونيوس الخبر المزعج بأن أكتافيا كانت فى طريقها للحاق به ؛ وإنه لمن الجائز أن يكون أكتافيوس قد رغب فى أن يخلص أنطونيوس من أسر كليوباترة ، ويعيده إلى زوجته الشرعية ، كما تمنى أن يضمن صداقته ، ولو على الأقل فى ذلك الوقت . ولكن المؤرخ بلوتارخوس يرى أن أكتافيوس الذى سمح لأخته أن تزور زوجها كيما تحرجه ، وتضطره أن يتخذ مسلكاً يبين نياته ، ويكشف عما فى قلبه : فإذا لم يحسن لقاءها كانت الإهانة وسوء المعاملة التى لاقتها على يد زوجها الضال الظالم عاملا كبيراً ، وسبباً قوياً فى بتر العلاقات بين القائدين ، وذريعة يتكئ عليها أكتافيوس فى إعلان الحرب على منافسه . ولكن هناك من المؤرخين الحديثين من يخالف هذا الرأى ، ويسوق الحجج على أن أكتافيوس كان فى ذلك الحين على وشك أن يبدأ فى حملته على « إلليريا » أو ساحل دالماشيا ، وبطبيعة الحال كان شديد الرغبة فى أن يسود السلام بينهما ، ولقد أظهر حسن نيته نحو منافسه بكتمانه خبر هزيمته الفاجعة فى حربه مع الفرس ،

وبإقامته الاحتفال بانتصارات أنطونيوس الوهمية . فأرسل أخته ومعها نحو ألفين من الجند ليكونوا حرساً خاصاً لأنطونيوس ، وأرسل معها ملابس لجيشه ، ودواب للنقل ومقداراً من المال ، ولكن أنطونيوس أرسل فى الحال خطاباً إلى أكتافيا يأمرها أن تعود أدراجها إلى إيطاليا ، لأنه ذاهب إلى ميديا . ولما أرسلت أكتافيا أحد أصدقاء أنطونيوس ليسأله عما تفعل بالجند والمدد ، قَبِلَ أنطونيوس هداياها — وإن الباحث المدقق ليمكنه أن يلمس يد كليوباترة تلعب فى الخفاء ، وتحرض أنطونيوس على اتخاذ مسلكه هذا ، فلا يمكن أن نعلل خيبة أكتافيا بغير أن نسلم بتحريض كليوباترة ودسها لها ، وقد استولى عليها الرعب والخوف من محاولة أكتافيا بسط نفوذها على أنطونيوس ، وخافت لقاءهما . فصممت كليوباترة أن تغريه بأن يولى وجهه مُعرضاً عن أكتافيا ، وحرّضته على أن يعود إلى الإسكندرية ، حيث يكون أولاً أبعد ما يكون عن يد أكتافيا ، وثانياً بعيداً عن كل ما يغريه بالقيام بحملة فارسية ثانية ، ليس من الحكمة وحسن الاختيار البدء بها فى هذا الوقت الحرج . ولقد اتخذت كل الحيل التى كانت فى وسع امرأة ماهرة مثلها حتى تؤثر فى رجل بمثل خلق أنطونيوس ، الذى لم يكن عنده من قوة الإرادة والعزيمة بمقدار ما كان عنده من تهور واندفاع وشهوات مُلحة جامحة . ولقد صورها بلوتارخوس بأنها كانت تدعى الموت من حرقة الحب لأنطونيوس ، ولزمت الحِمْيَة فى الأكل ، فهزل جسمها ، وفارقتها طبيعتها المرحة الطروب ، وتصنعت الحزن والمرض ، ولم تكن لتشكو مطلقاً ولكنها حرصت دائماً على أن يبلغ رجال حاشيتها أخبارها وقتاً بعد آخر لأنطونيوس ، فيعلموه بمرض المليكة ، وبأنها لا محالة ميتة إذا فارقها . ويظهر أن رجلا من أهل « لأوديكيا » قدم لها مساعدة جدية فى حيلتها هذه .

ولقد كان المقصود من تمثيل هذا الدور وفق رأى بلوتارخوس صرف أنطونيوس عن مفارقة المليكة ، ومنعه من الإلتقاء بزوجته أكتافيا ، ثم منعه كذلك من الزحف على ميديا . على أنه من الصعب أن نصدق القول بأن

أنطونيوس قد خُدع حقيقة ، وصرفته هذه الحيلة النسائية وحدها[١] ، كما أنه ليس من المعقول أن نقول بأن حيلة كليوباترة هــــذه كانت السبب فى الإعراض عن مشروع حملة كانت كليوباترة نفسها تعتقد أن الفرصة سانحة لها . ولكن فرائص أنطونيوس كانت ترتعد بعد تجربته القاسية فى العام السابق من ذكر حملة فارسية ثانية بدرجة أكبر مما كان يبدو عليه من مظاهر الرباطة والقوة . ومن المحتمل أنه لم يكن آسفاً عندما وجد الصعوبات تعترضه فى طريقه ، فوجد أن استعداداته لم تكن تفى بالغرض، وأن الوقت كان قد أزف ، ولم يكن يستطيع المخاطرة بنفسه فى بلاد العدو فى فصل الشتاء ، وكانت ذكرى حوادث العام السابق لا تزال عالقة بذهنه . وعلى ذلك أعرض عن مشروع حملته وعاد مع كليوباترة إلى الإسكندرية ، حيث مضيا فصل الشتاء (٣٥ – ٣٤ ق . م) .

وفى فصل الربيع التالى رغب أنطونيوس أن يسترد هيبته التى كانت له فى الشرق قبل حملته الفارسية ، وكان ينسب فشله الذى كان سبب ضياع شهرته إلى ملك أرمينيا الذى حرمه ، بخيانته، من أى أمل فى إحراز النصر . وعلى ذلك كان أنطونيوس ينوى معاقبة هذا الملك بمجرد سنوح فرصة مناسبة . ولكى يخدع « أرتاواسديس » ملك أرمينيا ، أرسل له « ديليوس » مقدماً يسأله الموافقة على عقد قران ابنته بالإسكندر ابن كليوباترة من أنطونيوس . وفى الربيع كان أنطونيوس على أبواب نيكوبوليس أو مدينة النصر ، ومنها أرسل رسولاً لملك أرمينيا ينبئه برغبة أنطونيوس فى الاجتماع به شخصياً ، ولكن الملك ارتاب فى الأمر ، ولم يحضر بشخصه وعندئذ زحف أنطونيوس بنفسه على رأس جيشه مسرعاً نحو « أرتاكستا » ، وهناك خدع الملك ، وأغراه حتى حضر إلى معسكره حيث كُبِّل فى أصفاد من سلاسل

---

(١) يقول المؤرخ الفرنسى بوشيه ليكلرك فى كتابه « تاريخ اللاجيدين » الجزء الثانى ص ٣٦٩ إنه ليس هناك ما يبرر تسميتها بالمثلة الكوميدية ، وفى اعتقاده أن لعبتها هذه لم تجز حتى على أنطونيوس ، وسواء أكانت تحبه أم لا فإن إذلالها ، والخوف من ضياع ملكها بتحويله إلى ولاية رومانية كان فيه الكفاية لتبرير بكائها فأقنعته أو أغرته بالعودة إلى الإسكندرية .

فضية . ولقد استولى أيضاً على كنوزه ، ونهب أراضيه ، وهزم إبنه الذى كان قد أعد العدة لمقاومة أنطونيوس بعد أسر أبيه ففر يجر أذيال الخيبة إلى پارثيا . وبذا تم إخضاع كل أرمينيا ، وقبل أن يترك أنطونيوس البلاد خطب « يوتاپى » الابنة الوحيدة لملك ميديا لابنه الإسكندر ، وبذا أظهر نيته فى أن يهب هذه المملكة لابنه ويوسع رقعة نفوذ كليوباترة فى هذه البقعة من آسيا . وبعد الحملة الأرمنية التى لم يقاس فيها أنطونيوس أية مشقة أو يتعرض لأخطار جسيمة ، أدرك الناس أن النتائج التى وصل إليها أنطونيوس لا تشرفه فى شىء ، وأن الحملة الأرمنية لم تكن سوى غارة للنهب والسلب ، شنها أنطونيوس على صديقه وحليفه بالأمس . ولما عاد أنطونيوس إلى الإسكندرية كان الفرح والسرور يملآن قلبه لما أحرزه من انتصارات ، ويغمره الزهو بما تجمع لديه من أموال[1] . وفى طريق العودة كانت تحت تصرفه أموال كثيرة ، وجموع غفيرة من الأسرى الذين كان من بينهم كل أفراد الأسرة المالكة . وعلى ذلك كانت لديه كل الوسائل التى تخول للقائد المنتصر الحق فى أن يقام له حفل النصر المألوف فى روما (triumphus) ؛ ولم يكن ينقصه من هذا كله سوى المدينة التى يصح له أن يعقد بها هذا الاحتفال ، وهى بالنسبة للرومانى روما بالطبع . ولما كانت هذه فى قبضة يد مناظره الذى أغضبه بسوء معاملته لأخته أكتاڤيا ، فقد أصبح لزاماً عليه إذا أراد أن يحتفى بانتصاره أن يبحث عن مدينة أخرى غير روما ليقيم فيها معالم انتصاره ، ولكن لم يسبق من قبل أن أقام قائد رومانى احتفالا رسمياً خارج روما إذ كان مجرد التفكير فى إقامة ذلك الاحتفال خارج روما بعيداً عن بال أى رومانى . ولكن كانت الإسكندرية فى ذلك الوقت العاصمة الحقيقية للنصف الشرقى للدولة الرومانية ؛ إذ كانت مدينة تفوق روما نفسها فى العظمة والبناء ، وكان من الجلى أنها المدينة الوحيدة التى يمكن أنطونيوس أن يتخذها عوضاً عن روما لسير موكبه الرسمى . وعلى ذلك

(١) Orosius VI, 19, 4 :— qua elatus pecunia

دخل الإسكندرية دخول المنتصر الظافر وسار فى موكب نُسّق على نمط المواكب العظيمة التى لم يسبق أن شوهدت بمدينة أخرى من قبل غير روما والكابيتول .

الإسكندرية تشهد موكب النصر

سار أنطونيوس إذاً فى شوارع الإسكندرية متحدياً روما وأكتاڤيوس معاً باحتفاله بانتصاره فى عاصمة أجنبية بطريقة شديدة الشبه بالاحتفالات التى كانت من قبل وقفاً على روما ، عاصمة العالم القديم . ويظهر أن الموكب بدأ من القصر الملكى فى لوخياس (Lochias) ، حى السلسلة بالشاطبى برمل الإسكندرية ، وسار فى الطريق الكانوبى ، الموصل إلى أبى قير (Canopus) والذى كان مكتظاً بالنظارة على جانبى الطريق ، ومنه سار إلى معبد سيرابيس الكبير (أوكوم الشقافة الآن بحى كرموز) فى الجهة الغربية من الإسكندرية . ولا بد أنه كان حفلا كبيراً لا يقل فخامة وعظمة عن نظرائه فى روما ، أم المدائن والأمصار فى ذلك العصر ، حيث كانت تسير فى « الطريق المقدس » (Via Sacra) إلى معبـــد الإله چوپيتر (Jupiter) على تل الكاپيتول . ويظهر أنه كان على رأس الموكب شرذمة من الجنود الرومانية ، يحملون دروعاً منقوشاً على كل منها حرف الكاف الذى يقال إنه كان رمزاً لكليوباترة ، كما أنه يحتمل أن يكون رمزاً لقيصرون [باعتبار أن الحرف الأول من هذا الاسم ينطق بالكاف باللاتينية] والمطالبين بحقه الشرعى فى تركة أبيه قيصر . ولقد ركب أنطونيوس كما يركب القائد المنتصر فى عربة النصر تجرها أربعة من الجياد الشهباء المطهمة ، ومن أمامه سار ملك أرمينيا الحزين ، مشياً على الأقدام مكبلاً فى سلاسل وأغلال ذهبية ، ومعه بقية أسرته ؛ ومن خلف العربة سار موكب طويل من الأسرى الأرمنيين ووراء هؤلاء سارت العربات محملة بالغنائم والأسلاب ، وأخرى بها مناظر رمزية تصف أرمينيا ، وفى المؤخرة سارت فرق الجند من حلفاء الشرق والملوك التابعين

وكوكبة من الفرسان فى المؤخرة ، وعند وصول الموكب إلى السرابيوم ، نزل أنطونيوس من عربته وصعد إلى المعبد وسط التهليل والتكبير من جانب المشاهدين ليقدم القرابين المعتادة للإله سيرابيس ، الإله المصرى الذى ابتدعه الملك بطلميوس الأول ليكون حلقة إتصال بين المصريين واليونانيين ويشترك الجميع فى عبادته فتَتَسلسُل قيادتهم . ولو كان أنطونيوس فى روما لاتجه وجهة أخرى ولقدَّم مثل هذه القرابين للإله جوبيتر فى معبده القائم على تل الكابيتول . ولقد تبع ذلك منظر غريب لا يمت للرومانية بصلة أو حتى بشبه قريبٍ أو بعيدٍ ، إذ شيدت منصة أمام السرابيوم مكسوة كلها بالفضة ، وعلى هذه المنصة كان يوجد عرش ذهبى ، جلست عليه الملكة كليوباترة لابسة رداءًا مستقيما ضيقاً ، كذلك الذى تلبسه الإلهة إيزيس ، تنتظر تقديم عبارات الولاء والخضوع من الظافر وأسراه . ولقد أحضر أنطونيوس إلى قدميها الأسرى من العائلة المالكة بأرمينيا . ولكن الملك أرتاواسديس أبى أن يحييها كما يُحيَّى الآلهة ، كما امتنع عن أن يقوم بشىء فيه إذلال له أمامها ، واقتصر على مخاطبتها باسمها . وكانت العادة فى روما فى نهاية مثل هذه الحفلات أن يقتل الأسرى من الملوك وأسَرهم بعد أن يكونوا قد ساروا فى مثل هذه المواكب ، ولم يكن أرتاواسديس متوقعاً غير ذلك ، خصوصاً بعد أن رفض أن يلقى بنفسه طريحاً بين قدمى الملكة ، ولكنه وأسرته زجوا فى غياهب السجون فى عاصمة البلاد المصرية . وبعد انتهاء الموكب ، أقيمت وليمة كبيرة لجميع سكان الإسكندرية .

توزيع الهبات الإقليمية على أبناء كليوباترة

وفى عصر ذلك اليوم أقيم حفل ثانٍ فى أرض الملعب الثقافى الرياضى المعروف بالجمنازيوم ودعى إليه أهل الإسكندرية ليشاهدوا منظراً آخر أشد عجباً من سابقه ، ولقد أقيم على منصةٍ فضية مرتفعة عرشان ذهبيان

لكل من أنطونيوس وكليوباترة وأربعة عروش أخرى أصغر من الأولين لأولادهما . ولما التأم الجمع جلس على هذه العروش أنطونيوس وكليوباترة وقيصرون الذى كان يبلغ من العمر حينئذاك ثلاث عشرة سنة ونصف سنة والتوءمان الإسكندر هيليوس (الشمس) وكليوباترة سيليني (القمر) وكان كل يبلغ ست سنوات وبطلميوس الصغير الذى كان عمره سنتين . ولقد أعلن أنطونيوس رسمياً أن كليوباترة هى « ملكة الملوك » ، وأن قيصرون الذى شهد بأنه ابن يوليوس قيصر « ملك للملوك » ، وأعلنهما حاكمين بالاشتراك على مصر وسوريا الحالية (فلسطين) وقبرص . ولقد أشار المؤرخ « ديو » إلى الدوافع التى جعلته يفعل ذلك بما يأتى « لأنه أعلن أن الأولى كانت فى الحقيقة زوجته ، والثانى كان إبناً ليوليوس قيصر ، وصرح بأنه كان يتخذ هذه الإجراءات من أجل قيصر ، ولو أن غرضه الحقيقى كان إلحاق اللوم والعار بأكتافيوس قيصر ،الذى كان دعيًّا لقيصر ، ولم يكن ابناً حقيقياً له »[1] — ولقد أقطع أبناءه من كليوباترة بلاداً فسيحة ليحكموها . فعيَّن بطلميوس الصغير ملكا على فينيقيا وسوريا وسيليشيا ، ومنح الإسكندر هيليوس أرمينيا وميديا وكان مصير الأخيرة آيلا إليه لأنه زوج ابنة ملكها الحالى كما ولاَّه على پارثيا (الفرس) بمجرد غزوها المرتقب ، أما كليوباترة سيليني فقد وهبها سيرينيكا (برقة) . ولقد ظهر أمام الجمع المحتشد ولداه : الإسكندر وبطلميوس مرتديين ملابس الممالك التى تُوجا بتيجانها ، فكان الإسكندر لابساً رداءًا ميديًّا ، وفوق رأسه تاج قدماء الفرس الطويل أما بطلميوس فكان مرتدياً رداء المقدونيين . فلبس وشاح المقدونيين القدماء والقلنسوة المطوقة بالإكليل على الطريقة التى اعتادها أخلاف الإسكندر . وفى نهاية الاحتفال أحاط بالملكين الصغيرين بعد تحية والديهما حرس مؤلف من الشعوب التى قدر لهما أن تكون محكومة بهما . ويختلف المؤرخون الأقدمون مثل پلوتارخوس وديو بصدد الألقاب التى منحها أنطونيوس

---

(١) Dio, XLIX, 41

لأبنائه ، فيذكر ديو أن كلاً من كليوباترة وقيصرون حظى بلقب ملكة الملوك، وملك الملوك على التوالى ، أما پلوتارخوس فيقول إن كلاً من قيصرون والإسكندر وبطليوس منح لقب ملك الملوك ، ومن المحتمل أن يكون أبناء أنطونيوس قد منحوا نفس اللقب الذى مُنحه قيصرون ووالدتهم. وفى الشرق متسع لكثير عن أطلق عليهم لقب «ملك الملوك» .

وفى أثناء هذا الاحتفال بانتصار أنطونيوس ، رأى أهل الإسكندرية مدينتهم قد ساوت روما . وفى الاحتفال الثانى الذى تمَّ فيه إعلان قرار أنطونيوس الخاص بعطايا الإسكندرية وجدوا مصر قد حُولت إلى مملكة رئيسية، تجمعت حولها ممالك شبه مستقلة، يحكمها أبناء الملكة الثلاثة ، وكانت هذه الإمبراطورية تمتد من الفرس شرقاً إلى طرابلس غرباً . وإنه لتغيير غريب عما كانت عليه مصر فى أيام بطلميوس أوْليتيس ، والد كليوباترة . وكانت كل مطامعه مقصورة على ألا تكون مصر إيالة رومانية صراحة وعلانية ، وإن كان قد سمح لنفسه بأن يؤيد عرشه جيش احتلال رومانى ، وولى على مالية البلاد وزيراً للمالية من الرومان يعرف باسم رابيريوس پوستوموس (Rabirius Postumus) فكان هذا التصرف سُبَّة فى جبينه ومدعاة لثورة السكندريين ضد الإثنين[1] . وعلى ذلك استطاعت كليوباترة بأسلوبها ودهائها وحسن تدبيرها أن تعيد إلى مصر إمبراطورية عظيمة ، إشتملت على كل ما كان لأسرة البطالمة من قبل من أملاك ، مضافاً إليها بعض أجزاء أخرى من أملاك الدولة الرومانية . وكان مظهر الوحدة فى هذا الملك العظيم ممثلاً فى الشخصين المقدسين: أنطونيوس فى صورة «ديونيسوس» أو «أوزوريس» وكليوباترة فى صورة «إيزيس» ، اللذين كان يحيط بهما نسلهما المقدس : الإسكندر «هيليوس» وكليوباترة الصغيرة «سيليني» . ولقد لخص المؤرخ «ماهافى» (Mahaffy) هذا الموقف بقوله «إنه من

(١) كشف لنا شيشرون فى صدد دفاعه عن رابيريوس بوستوموس الكثير من الأستار عن شخصية هذا الفارس الرومانى الذى قدم للمحاكمة فى روما بسبب إقراضه الأموال لملك مصر وابتزازه الأموال وقبوله الرشوة . أنظر Cicero, Pro C. Rabirio Postumo.

الواضح الجلى أن تكون السياسة التقليدية لأسرة البطالمة قد أملت على كليوباترة كل هذا التصرف ؛ إذ أنها كانت تطمع فى العالم اليونانى وامتلاك كل ما كان لمصر فى الماضى وبقى فى حوزتها أمداً طويلاً »[1] . وإنه ليحق لكليوباترة أن تهنىء نفسها على ذلك الانتصار السياسى العظيم الذى أحرزته لمصر .

وإنه لمن الصعب أن نُحلل مسلك أنطونيوس ، وأن نكشف عن الدوافع الحقيقية التى جعلته يقتطع من بلاده الأصلية معظم أملاكها فى الشرق تقريباً ثم يقسمها بمثل هذه الطريقة التى سلكها ، ولقد لحقه من اللوم أشده لاحتفاله بانتصاره على أرمينيا بتلك الصورة الهزلية ، التى كانت أضحوكة الإحتفالات الكابيتولية فى الإسكندرية ، وكان ذلك الاحتفال مساوياً لإعلانه انحطاط المدينة العظيمة «روما» سيدة العالم القديم وزوال تلك العظمة التى انفردت بها فلم تشاركها فيها مدينة أخرى ، وأصبحت لا نظير لها بين المدائن فى ذلك الحين ، فكيف يتنكر لروما ابنها ، وكان المنتظر منه أن يكون باراً بها وحريصاً على رفعة شأنها . ولقد نظر الرومان إلى مسلك أنطونيوس ، هذا بالإضافة إلى منحه هبات لأولاده بأشد ما يكون من السخط والغضب ، ونظروا إلى تصرفه هذا على أنه تصرف غير رومانى ، ويدل على سياسة شخصية معينة فى الشرق . ولقد انتقد المؤرخ الفرنسى « بوشيه ليكلرك » سياسة أنطونيوس فى الشرق بقوله « إنه لمن المؤكد أنه أغفل بدرجة لا يمكن وصفها بغير الجهل ، وعدم التبصر — روح العصر الذى كان يعيش فيه ، ومبلغ قوة الرأى العام ، واتجاهه الذى تحداه بحماقة ، وقصر نظر فاقا الحد »[2] .
ولقد ظهرت فى هذه المرحلة نيات أنطونيوس الحقيقية المتعلقة بإيجاد مملكة شرقية . وإنه لمن الممكن أن نصدق ما يقوله بعض المؤرخين من أنه كان يريد تشييد إمبراطورية شرقية تنافس إمبراطورية الغرب ، ويكون لكليوباترة فيها الدور الرئيسى ، بل هى محور النظام الذى بانت أماراته وطلع به أنطونيوس على العالم فى غير مواربة ولا تمويه . على أن نفراً من المؤرخين الحديثين ينسبون احتفاله بالنصر فى الإسكندرية ، وإسباغه الألقاب على كليوباترة.

(١) ماهافى ، تاريخ مصر ، ص ٢٤٩ — ٢٥٠

(٢) بوشيه ليكلرك — تاريخ اللاجيديين — البطالمة — جزء ثان ص ٢٧٥

وأبنائها منه ، ومن قيصر ، إلى حب أنطونيوس الظهور والمفاخرة اللذين تلقنهما من كليوباترة أكثر من أن ينسبوا هذا كله إلى وجود دوافع حقيقية ، تسير بها سياسة يمليها العقل وبعد النظر ، وظنوا كذلك أن هباته الإقليمية كانت راجعة إلى أنه كان قائداً منتصراً ، دفعه تيار الحوادث وحب الشهرة والطموح إلى العلا ، إلى درجة استولت عليه فيها عزة الانتصار ورعونة الظفر — ومع أننا لا نصر على عده رجلاً سياسياً عظيماً ، فيه ذكاء فذ متقدم على عصره ، فمن الممكن أن نفسر سياسته على ضوء ينير لنا منطق الحوادث فى هذا العصر . ولابد أن يكون أنطونيوس قد قصد بهذه المملكة الرومانية — الهيلينستية التى خلعها على كليوباترة وأبنائها، وجعلها إرثالهم — أن تقوى وتثبت أركانها ، وتتخذ أساساً فى النزاع المرتقب الذى أصبح وشيك الوقوع بينه وبين أكتافيوس ولا سبيل إلى تحاشيه . وعلى ذلك كانت هذه السياسة وسيلة لغاية ؛ فقد كان أنطونيوس يأمل أنه عندما يتقوى أركان دولته فى الشرق ، وتصبح كل مصادر الثروة به تحت تصرفه هو أو تصرف كليوباترة من ورائه ، يتم له النصر فى كفاحه المستقبل مع منافسه العتيد ، وعند ذلك يتم توحيد الجزء الغربى من الدولة مع الشرقى ، يزينهما التاج على رأس أنطونيوس وكليوباترة .

وفى أواخر عام ٣٤ ق.م أرسل أنطونيوس إلى نفر من أصدقائه المخلصين فى روما بياناً يذكر فيه فتوحه التى نفذها فى بلاد أرمينيا ، ويصف فيه المهرجان العظيم الذى أقيم فى الإسكندرية ابتهاجاً بظفره . ثم ذكر فى رسالته هذه ما اتخذه من تدابير ، وما منحه من هبات . ولقد طلب إلى عاملين من أصدقائه هؤلاء أن يطلعا مجلس الشيوخ الرومانى على رسالته هذه فى أقرب فرصة ممكنة ، وأن يحصلا على موافقته على هذا التغيير الذى أحدثه بتوزيعه العروش فى النصف الشرقى من الإمبراطورية . ومن ذلك نفهم أنه كان يرغب فى الحصول على موافقة السناتو الرومانى على هباته ، آملا بذلك أن يلقى فى روع الرأى العام بروما أن التغييرات التى أحدثها ماهى إلا تغيير شكلى فى

تنظيم الولايات الشرقية ، وإن هي إلا إستمرار للسياسة الرومانية التي كانت تتبعها روما على الدوام في الشرق ، وهي خلق ممالك أسيوية ، يكون ملوكها في منزلة الحلفاء أو الأصدقاء (socii et amici) ثم فك عُرى هذه الممالك وإعادتها من جديد . وفي أثناء العام الثاني أعني عام ٣٣ ق.م نجد أنطونيوس يحاول الحصول من روما التي لطمها في كبريائها ، والتي سخر بسلطتها ، وداس على كرامتها ، ونثر في الريح هيبتها ، على موافقتها ممثلة في مجلسها الأعلى ، وهو السناتو على هباته التي منحها بالإسكندرية لكليوباترة وأبنائها . وقبل إعلان التقرير الرسمي على الملأ في روما تواترت الإشاعات على ألسنة الناس تحمل ذلك الخبر العظيم ، الذي قابله عامة الرومان بامتعاض عظيم . وفي الدوائر الرسمية بلغ السخط والحنق على مسلك أنطونيوس أشده . أما في الدوائر الموالية لأنطونيوس فقد ساد القلق والخوف على سمعة أنطونيوس ، وأخذ المخلصون له يفكرون في وسيلة يخلصونه بها من كليوباترة ، ومن حبائلها التي ظنوا أنها تنصبها له . وإن في إتفاق كل من المؤرخين پلوتارخوس [1] وديو [2] في أن التقرير الرسمي لم ينشر في مجلس السناتو ما يؤيد القول بأن الرأي العام بلغ الغاية من الإمتعاض وعدم الرضاء . وكان من بين أعمال أنطونيوس في الإسكندرية تصرف واحد أصاب أكتاڤيوس في موضع الحس منه ، وكان أكبر أسباب غضبه ، وذلك هو اعتراف أنطونيوس بقيصرون إبناً شرعياً لقيصر . ولقد كان غضب أنطونيوس على أكتاڤيا وردها على أعقابها تتعثر في أذيال الخيبة والفشل ، ثم ما كان من أمر تعلقه وإرتباطه بكليوباترة ، ثم تصرفه الأخير بالإسكندرية ، وإغداقه على أولاده منها النعم والهبات — كل هذه أمور جعلت أكتاڤيوس يوقن أن أنطونيوس ينوي شراً ، وأنه لن يتردد في أن يعلن عندما تلوح له الفرصة أن أكتاڤيوس مغتصب لميراث قيصر . وكان الأمل إذاً في بقاء السلم بينهما أضعف ما يكون في هذه المرحلة ، إذ تبدد كل رجاء

---

(١) بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، ٥٥

(٢) ديو ، فصل ٤٩ ، ٤١

فى تسوية الخـــلاف بينهما ، وأصبحت الحرب قاب قوسين أو أدنى ، وخصوصاً أن أنطونيوس قد تعلق بكليوباترة التى كان أحب شىء إليها أن تُسْقِط حق أكتافيوس فى وراثة قيصر ليحل محله فى هذا الحق ابنها منه وهو قيصرون - لذلك كان من مصلحة أكتافيوس أن يقيم العراقيل ضد أنطونيوس، ورغبته فى إبرام أعماله فى الشرق ، وأن يقضى على سمعته فى الشرق بتحريض السناتو حتى يرفض الموافقة على تصرفاته به .

ولقد انتهز أكتافيوس بشغف عظيم فرصة الأثر السىء الذى أحدثته تصرفات أنطونيوس بالإسكندرية ، لكى يثير الرأى العام بالغرب فى وجه منافسه ، ولكى يمثل دور المدافع عن مصالح روما وتقاليدها. وبهذا أخذ تيار الرأى العام فى الانحياز شيئاً فشيئاً إلى صف أكتافيوس ، فقد كان يصور أنطونيوس تصويراً معيباً فيشبه باللص الذى يسلب أملاك بلاده ليقدمها لقمة سائغة لامرأة مصرية . وفى الحال بدأت تتواتر الروايات بين الناس ، وفيها يصور أنطونيوس بملك شرقى يعيش فى الإسكندرية غارقا فى ملاذه وشهواته ، وأشيع عنه أنه ثمل دائماً وقيل إن الملكة تستطيع أن تذهب عن نفسها أثر الخمر بخاتم سحرى من الياقوت ، يزيل عن لابسه غُمَّة الخمر ، ويعيده إلى رشده أو صوابه . وفى هذا المعنى يقول الشاعر والكاتب اللاتينى فلوروس (Florus) « إن كليوباترة طلبت من القائد الثمل أن يعطيها ملك الدولة الرومانية ثمناً لحبها ، فوعدها ذلك كما لو كانت مهمة إخضاع الرومان أسهل وأقل مشقة من إخضاع الفرس ... ناسياً بلاده واسمه ولباسه الرومانى وشارات حكمه . وبذلك انحط إلى الدرك الأسفل فى فكره وشعوره وردائه فأصبح ذلك الوحش الذى فى يده صولجان ذهبى ، وبجانبه سيف مقوس مرصع بالزمرد والياقوت . وملابسه الأرجوانية قد زينت بالجواهر العظيمة وعلى رأسه تاج وقدصار ملكاً خليقاً بالملكة التى أحبها حباً جمـاً »[1]. ويذكر ڤيلّيوس (Velleius) أيضاً وهو مؤرخ

---

(١) فلوروس ، ٤ ، ١١ . عاش هذا الشاعر والكاتب فى عصر الإمبراطور هادريان وكان صديقاً له .

رومانى، استهتار أنطونيوس وانغماسه فى الملاذ ومسلكه فى الإسكندرية فى ذلك الوقت، فيصوره للناس بأنه كان يمثل فى الإسكندرية دور الإله «ديونيسوس»، ويضع فوق رأسه إكليلا من اللبلاب، ويلبس رداءاً أصفر من الذهب، وقد قبض بيديه على صولجان، ثم يعمد إلى ركوب عربة كالتى يركبها الإله «باكوس» (إله الخمر)[1]. ولا يقل المؤرخ «ديو» عن هذين الكاتبين الرومانيين فى تأثره بالعواطف، وانسياقه وراء مرضاة الرأى العام، فصور لنا أنطونيوس وقد أصبح أسيراً لكليوباترة، يقبل منها تولى وظيفة بلدية متواضعة هى وظيفة رئيس الندوة الثقافية الرياضية وهى الجمنازيارك، ويحيط الملكة بحرس من الجند الرومان ويُسمى مركز رئاسة الجند «بالقصر» وصوره كذلك بأنه يُرى لابساً ملابس لاتتفق وعادات بلاده[2]. وإنه ليظهر لنا أن كل هذه الأراجيف حملة مدبرة للحط من شأن أنطونيوس، وتشويه سمعته وسمعة كليوباترة بالتالى. ولاشك أن أنطونيوس لم يلق الإنصاف الذى يستحقه من أقلام الكتاب والمؤرخين الذين عاشوا فى صدر عصر الإمبراطورية الرومانية، ونهج الكتاب من بعدهم على اتباع هذا الأسلوب المرعى فى كيل التهم، وتشويه سمعة أنطونيوس والملكة من ورائه. وإنه لمن الأسف الشديد ألا توجد وسيلة لتمييز الخبيث من الطيب من هذه الروايات، واستخلاص الحقائق مما عراها من دَخَلٍ وزغلٍ، واستخراج الحقائق الناصعة من وسط ذلك المحيط المظلم من التهم التى يكيلها المؤرخون الرومان جزافاً لعدو إمبراطور الدولة الرومانية الأول.

ومع هذه الحملة المدبرة على أنطونيوس، كان لايزال له كثير من الأعوان والمتعلقين به يعتقدون أنه هو الشخص الوحيد الذى يمكنه بمـــا أوتى من قوة وعزم أن يعيد الجمهورية الرومانية إلى عهدها الأول. وكان يوجد من

(١) فيليوس، ٢، ٨٢ — عاش هذا المؤرخ فى عصر الإمبراطور تيبريوس وكتب موسوعة فى التاريخ الرومانى.

(٢) ديو، ٥٠، ٥

بين المتحمسين لمذهب يوليوس فريق يدين بالرأى القائل بأن قيصرون أحق من أكتاڤيوس بأن يكون الوارث لقيصر، وأن إنتماء أكتاڤيوس لقيصر لم يعتمد إلا على إجراءات قضائية أصابت الشكل دون الجوهر، ولم تصب الصميم، لأنه سبق إلى تسجيل الوصية الأولى، وأخفى الوصية الثانية التى قيل إنها تنسخ هذه الوصية فى جوهرها. ولقد قيل إن قيصر كتب وصية أخرى بعد الأولى، وفيها يترك قيصرون وارثاً له، ولكنها أخفيت بعد موته. وإذا جاز لنا أن نصدق «ديو» فى زعمه هذا، فإن إعتراف أنطونيوس بأن قيصرون هو الوارث الشرعى لقيصر كان الدافع الأكبر الذى جعل أكتاڤيوس يصر على الإلتجاء إلى الحرب، ولم تصادف محاولة أكتاڤيوس فى أن يثير الرأى العام ضد أنطونيوس كل ما كان يرجوه من النجاح؛ إذ أظهر رجال السياسة شيئاً كثيراً من التحفظ والحذر المقرونين بمقدار غير قليل من الجبن. ولربما كان هذا الشعور ناتجاً عن عدم محبة الشعب الرومانى لأكتاڤيوس، أو لأن الرأى العام لم يقتنع تماماً بأن أنطونيوس أصبح ملكاً شرقياً. ولم يسلم بأنه أصبح كما يصوره أعداؤه آلة فى يد كليوباترة، تستخدمه فى أغراضها إلى غير ذلك من التهم التى كان لا يتورع منافسه عن أن يلصقها به. وهذا يبين لنا أن أنطونيوس مع كل ما عمله قد إحتفظ بولاء جنده له وبولاء كثير من أتباعه فى مجلس الشيوخ وفى إيطاليا نفسها. وكان يظهر لهؤلاء جميعاً أن لديه جيشاً عظيماً وقوة لا تقهر، وأنه يملك أموالا وثروة لا تفنى. وكان مركزه كملك شرقى أعظم بكثير من مركز أكتاڤيوس الذى ظهر ضعف قواته بشكل جلى فى مفاوضاته التى تبعت رسائل أنطونيوس للقنصلين المنتخبين لعام ٣٢ ق.م؛ وكان أكتاڤيوس يصبو من صميم قلبه أن ينشر على الملأ رسائل أنطونيوس آملا بذلك أن يُشَوِّه من سمعة منافسه عند وقوف الشعب الرومانى على محتوياتها؛ ولكن القنصلين كانا يعلمان باتجاه شعور الرأى العام، وتكهنا بالنيات، التى كانت تجول بخاطر أكتاڤيوس خافا من النتائج الوخيمة، التى

تعود من حصوله على طلباته ، وأخيراً اتفقا فيما بينهما على أن تبلغ محتويات هذه الرسائل كما هى. على أن أكتافيوس لم يُطق صبراً فأعلن على الملأ معارضته لسياسة أنطونيوس فى الشرق عندما انتخب قنصلا للمرة الثانية فى أول يناير سنة ٣٣ ، إذ أسرع بالعودة من حروبه فى اللّيريا لتسلم مقاليد هذه الوظيفة ، وعندما ترأس مجلس الشيوخ بصفته القنصل الجديد خطب خطبته الأولى حسب العادة التقليدية ، وفيها تناول السياسة العليا للدولة ، وهاجم لأول مرة أنطونيوس منددا به وسرد حكاية هيامه فى الإسكندرية وشفعها بالانتقاد اللاذع. وبعد مضى فترة قصيرة على هذه الحملة الشعواء فى مجلس الشيوخ وهى التى يمكن اعتبارها مبدءاً للعداوة الرسمية ، استقال أكتافيوس من منصب القنصلية وعاد إلى ميدان القتال فى الّليريا . وعلى ذلك أصبحت أغراض ونوايا كل من الزعيمين واضحة جلية فى هذه المرحلة، وأصبح مجرى الحوادث لعام ٣٣ ق.م يدل على أنه من الصعب جداً تجنب وقوع الحرب بين نصفى الدولة الرومانية ، وإعلان القطيعة بين روما ومصر . وإن ترتيب وقوع الحوادث ومقدار مالدينا من معلومات فيما يتعلق بالنزاع فى الدور الأخير ، لعلى قدر عظيم من الضآلة والتعقيد والإرتباك على نحو ما وصفها المؤرخون الأقدمون لدرجة أنه من المستحيل على الحديثين أن يصلوا إلى كنه الحقيقة على سبيل اليقين ، وعلى ذلك اضطروا أن يلجئوا على الدوام إلى إعمال الحدس والتخمين فى تفسير تصرفات كل من أنطونيوس وكليوباترة من ناحية وما ألمّ بهما من صعاب .

الفصل الخامس

الدور الحاسم فى علاقة أنطونيوس بكليوباترة

فى ربيع عام ٣٢ زحف أنطونيوس إلى أرمينيا ، آملا فى الظاهر أن يهزم الفرس ، وأن يعيد هيبته المضاعة ، وكان يظن أن غزو أرمينيا فى السنة السالفة ما هو إلا مقدمة لازمة لاتخاذها قاعدة حربية للحملة الفارسية ، ولكن لا يستطيع الإنسان الجزم بأنه كان لا يزال فى نيته غزو بلاد الفرس ؛ وإن أعماله عند وصوله إلى أرمينيا لتدل على أحد أمرين : إما أنه تبين له أنه لم يعد يقوى على تحمل هذا العمل ، ولم يشعر برغبة فى تكرار التعرض للأهوال التى صادفها فى تقهقره السابق ، وإما أنه رأى أنه لابد له أن يتدبر أمر قواته إستعداداً لتنفيذ أمر آخر . وكان أنطونيوس قانعاً بعقده تحالفاً مع ملك ميديا ، الذى وعد أن يساعده ضد أكتافيوس ، نظير أن ينال جزءاً كبيراً من أرمينيا العظمى ، وجزءاً من جند الرومان ليكون جبهة قوية فى وجه الفرس ، وفوق ذلك فإن الأميرة الصغيرة يوتابى خطيبة الإسكندر بن أنطونيوس تركت فى رعاية أنطونيوس على أن تتعلم فى الإسكندرية . وعقب إنهاء المفاوضات ، وعقد الاتفاق مع ملك ميديا وجه أنطونيوس وجهه شطر الغرب ؛ ولكى يعد عدته للحرب المستقبلة مع أكتافيوس أمر كانيديوس كراسوس أن يذهب على رأس قواته البرية إلى إفسوس ، وكذلك أمر الفرسان الذين حصل عليهم من أرمينيا أن يلحقوا بهذه القوات ، وطلب إلى حلفائه أن يرسلوا جندهم إلى إفسوس . أما عن التفاصيل المتعلقة بالطريق الذى اتبعه أنطونيوس فى عودته من هذه الرحلة ، فليس من السهل معرفته ؛ إذ أن ترتيب الحوادث الزمنية التى ذكرها المؤرخون الأقدمون غير دقيق فبعض الحوادث مقدمة عند مؤرخين ومؤخرة عند آخرين ؛ وإذا كان أنطونيوس قد ذهب إلى إفسوس كما يزعم معظم المؤرخين ، فلابد أنه كان

يتولى قيادة جنده بنفسه إلى هذا المكان . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، إذ الواقع كما أشرنا يدل على أنه ترك مهمة القيادة إلى كراسوس . وإنه ليس من السهل التكهن بالسبب الذى من أجله أسرع إلى الإسكندرية ، وخصوصاً أنه كان مضطراً لأن ينتظر حضور كليوباترة التى أرسل فى طلبها . ويرى المؤرخ الفرنسى بوشيه ليكلرك أن الحملة على ميديا لا يمكن أن تكون قد احتاجت إلى وقت طويل ، إذ أن أنطونيوس كان يبغى من ورائها تحقيق أغراض سياسية فبعد إتمام مهمته عاد مسرعاً تاركا قيادة جنده لكراسوس وقد زوده بالأوامر لكى يزحف نحو بحر الأرخبيل ، ولذا وجد لديه متسعاً من الوقت لتوصيل بوتابى خطيبة الإسكندر إلى الإسكندرية [1] . ومن ذلك إستنبط هذا المؤرخ الفرنسى ذلك السبب الوجيه لزيارته للإسكندرية فى هذا الوقت قبل ذهابه إلى إفسوس ، ومضى يسوق لتدعيم ذلك الإستنباط حججاً قيمة ولكنها غير حاسمة فى الموضوع وغير مقنعة إقناعاً تاماً . وقد ذكر غيره من المؤرخين أن أنطونيوس ذهب رأساً من ميديا إلى إفسوس ، وسواء اتبعنا هذا الرأى أم ذاك فإن الأمر متعلق بالتفاصيل البحتة التى يتعذر الوصول إلى رأى حاسم فيها .

ولقد ظهرت صورة أنطونيوس وكليوباترة معاً على النقود التى سُكت فى وقت يحتمل أن يكون بعد تجمع الجند فى إفسوس مباشرة ، أى بعد سنة ٣٣ ق . م وكان سكها هذا تخليدا لذكرى فتح أرمينيا . وعلى هذه النقود سجل لقب كليوباترة الجديد « ملكة الملوك » . وإنه لمن الممكن أن نستنبط من هذه النقود التى تحمل صورتيهما معاً أن أنطونيوس كان من قبل قد احتفل بزواجه بكليوباترة . ويشير بعض الكتاب الحديثين إلى أن مُقَدَّم السفينة الذى صور على ظهر هذه النقود تحت رأس كليوباترة « يثبت تلك المساعدة التى قدمتها لأنطونيوس بإعداد أسطول حربى » وأن هذه العملة قد سكت فى عام ٣٢ ق.م ؛ ولكن لسوء الحظ لا تدل تلك العملة التى يعتمد

---

(١) بوشيه ليكلرك ، تاريخ اللاجيديين — البطالمة ، جزء ثان ص ٢٨١ — ٢٨٧

عليها نفر من العلماء فى إثبات دعواهم دلالة قطعية على تاريخ زواجهما. ويشير بلوتارخوس فى هذا الخصوص إلى أن أنطونيوس بزواجه إمرأتين فى نفس الوقت قد فعل فعلة لم يقدم عليها رومانى من قبل، كما يشير إلى أنه طرد زوجته الأولى الشرعية من بيته ثم اجترأ على ما هو أشد من ذلك وأنكى فطلقها كيما يرضى إمرأة أجنبيـــة تزوجها متحدياً بذلك قوانين الرومان وتقاليدهم ومشاعرهم[1].

ولقد اتفق الكاتبان يوتروبوس (Eutropus) ويوسبيوس (Eusebius) مع بلوتارخوس فى الرأى، فأثبتا أن أنطونيوس تزوج من كليوباترة، وطلق أخت أكتافيوس (repudiata sorore Caesaris)، ولو جمعنا هذه الحقائق التى أتفق كل من بلوتارخوس ويوسبيوس ويوتروبوس على صحتها وأضفناها إلى تلك البينة التى تقدمها العملة المسكوكة لأمكننا أن نسلم باحتمال حصول الزواج قبيل طلاق أكتافيا. وإذا جاز لنا أن نستنبط رأيا من كل هذه الاحتمالات لقلنا إن هذا الزواج قد تم فى الجزء الآخير من عام ٣٣ ق م أو فى عام ٣٢ ق.م. وقد انبرى مؤرخان حديثان هما كروماير وفريرو[2] لإثبات دعواهما بحجج تقول بأن هذا الزواج قد تمّ فى عام ٣٦ ق.م، ونحن نسلم بأنه ليس من الممكن أن نأمل فى اتفاق كل المؤرخين فيما يتعلق بهذا الزواج النظرى ما لم تظهر براهين جديدة من المصادر القديمة تؤيد بدرجة لا تحتمل الشك والجدل كل ما يتصل بهذا الزواج وتاريخ عقده. ولكننا مع ذلك لا يمكننا أن نقبل رأى فريرو وكروماير لما فى ذلك من تجاوز كثير للحقائق التاريخية وتسليم بأمور لا تؤيدها حجج دامغة مستندة إلى أسانيد قديمة صحيحة. وإن فى عدم وجود إشارات إلى هـذه الواقعة الهامة فى كتابات المؤرخين الذين كانوا

---

(١) بلوتارخوس، مقارنة بين ديمتريوس وأنطونيوس، ٤، ١

(٢) كروماير، مجلة (Hermes)، المجلدان ٢٩، ٣٣ ص ٣٦؛ وفريرو، جزء رابع ص ٦ — ٨.

معاصرين لعهد كليوباترة وأنطونيوس وأكتافيوس لأمراً غريباً أشد الغرابة.
وإذا كان أنطونيوس بعد عقده معاهدة تارنتوم السالفة الذكر سنة ٣٦ ق.م وتجديده الحكم الثلاثى لمدة خمس سنين أخرى ، ترك زوجته وولديه ولم ينتظر ولو بضعة أشهر وأقدم على عقد زواج لا يُقره القانون الرومانى لجمعه بين زوجتين فى وقت واحد ، وهو فى الوقت نفسه أمر لا يحتمله الرومان ولا يصبرون عليه، فمن الغريب ألا توجد أية إشارة إلى هذا الزواج فيما دوّنه كتّاب العصر الذهبي الأغسطى، وهم الذين كانوا معادين لأنطونيوس وكليوباترة أشد العداء ، و يمثلون بوق الدعاية المسمومة ضدهما فى عصر الأباطرة اليوليين — الكلوديين من أول عهد أغسطس حتى نهاية حكم نيرون.
وإنه لمن غير المعقول جداً أن يبقى أمر ذلك الزواج سراً مكتوماً ؛ إذ أن خبر زواج مخالف للقانون الرومانى، أقدم عليه ثانى اثنين كانا قابضين على زمام الأمور فى الدولة الرومانية لمن الصعب إخفاؤه ، وخصوصاً أنه كان لأنطونيوس أعداء فى الشام ، وآخرون محايدون لا يمكن أن يغفلوا عن الإشارة إلى هذه الفضيحة . وفوق ذلك فإنه من غير المعقول أيضاً أن يكون أكتافيوس — إذا كان قد وصل لعلمه خبر هذا الزواج — قد سمح لأخته فى سنة ٣٥ ق . م أعنى بعد مضى سنة على هذا الزواج المزعوم ، بزيارة زوجها العاق الذى تزوج منافستها .

وإذا كان أنطونيوس قد تجاسر بالإقدام على هذه الخطوة التى كان لابد ناتج عنها قطع العلاقات بينه وبين بنى وطنه أدبياً ومعنوياً، فإن الحوادث حينئذ ما كانت تأخذ ذلك المجرى البطىء الذى أخذته بين وصول أنطونيوس إلى سوريا فى صيف عام ٣٧ ق م ونشوب الحرب فى أكتيوم سنة ٣١ ق.م.
ومن أجل كل هذه الأسباب نكتفى بالوصول إلى هذه النتيجة غير القاطعة بأن هذا الزواج حدث فى سنة ٣٣ – ٣٢ ق.م وليس قبل ذلك بأربعة أعوام.
وإذا حاولنا تعرف خطط أنطونيوس فى هذه المرحلة إزاء كليوباترة فلابد أن نقول : إنه ظن عند تحرج الظروف إلى هذا الحد أن المعركة لابد واقعة

بينه وبين أكتافيوس عما قريب. وإنه لمن حسن السياسة أن يسوّى مركزه ويقوى علاقته من الوجهة الشرعية بكليوباترة حتى يمكنه أن يكون ذا مركز قوى فى الشرق. ولا بد أنه كان يعلم حق العلم أن علاقته غير الشرعية بالملكة وتوزيع الأقاليم الرومانية على أولادها بمثل هذا السخاء مُذهب بشعور الرومان، ومثير لغضب الرأى العام فى إيطاليا عليه. وبموازنته بين هذين الأمرين رَجح لديه أن زواجه بتلك الملكة الشرقية يكسبه قوة عظيمة، ويُعلى من شأن مركزه فى الشرق، ويجعل كليوباترة تضع ثروتها العظيمة وكنوزها الكبيرة تحت تصرفه. وإنه فى المعركة النهائية التى ستتخذ حتما شكل نزاع بين الشرق والغرب، يُصبح أمراً طبيعيا أن يلتف الشرق حول أنطونيوس كزوج لملكة شرقية، فتحالفهما إذاً فى هذه المرحلة كان أمراً طبيعياً، وزواجهما كان ذا مغزى سياسى بقدر ما كان ناشئاً عن أسباب غرامية.

وكان أنطونيوس فى نظرها الخليفة الحقيق لقيصر، الذى يمكنها أن تأتمنه، وتثق فيه، وتطمئن إلى أنه لن يُخيِّب ظنها فى الانتصار لقضية إبنها ضد أكتافيوس عدوهما المشترك، وكان من مصلحتهما المشتركة أن يتم التضامن على هذا النحو. أما موقف أنطونيوس عندما أمر بحشد قواته فى إفسوس، فكان قوياً ثابت الأركان، وكان من الجلى لكل شرقى أن أنطونيوس كان يعمل بالاشتراك مع مصر، وكان على أتم وفاق وتحالف مع كليوباترة، كما أنه كان واضحاً جلياً أنها كانت زوجته الشرعية، وكان الجميع يعلمون أنه إذا كتب له النجاح فى هذا النزاع فسيدخل روما دخول المنتصر الظافر وبجانبه الملكة، ولربما أعلن نفسه ملكا بالاشتراك مع كليوباترة، وأسس مُلكا لأسرته من بعده على هذه الإمبراطورية المستقبلة، ولكن يظهر أنه فى الوقت نفسه كان يفكر فى تأسيس ملكية فى روما، مع أنه كان يكثر من القول بأنه يود إعادة الجمهورية الرومانية إلى شأنها الأول. وحجته التى كان يدعم بها سياسته أنه كان يقول إنه يحارب لتنفيذ رغبات الدكتاتور العظيم، وليخلص الرومان من حكم أكتافيوس الغاصب، وعلى ذلك أمكن

أن تلتقى مصالح أنطونيوس وكليوباترة فأخرجا مشروعاً مقبولاً يأخذ بلب الجماهير ، ويحقق آمال أعوانه من الرومان ومن الشرق .

وبينما كانا ينتظران حلول شهر يناير سنة ٣٢ ق.م وهو الميعاد الذى تنتهى فيه الحكومة الثلاثية وتسقط تلقائياً ، لأن أحداً منهما لم يكن راغبا فى تجديدها وبعده يبدأ العداء بشكل ظاهر جلى ، قضى الزعيمان المتنافسان الوقت فى تبادل رسائل الشتائم والتنديد ، وعلى ذلك سبق إعلان الحرب النهائى تبادل هذه الرسائل المهينة بين هـذين الصهرين ، ولقد زادت الكراهية بين الإثنين ، ووجد من الأسباب الكثيرة ما زاد نيرانها اضطراماً حتى أصبحت تتلظى . ولقد خلد لنا المؤرخ سويتونيوس (Suetonius) اقتباساً من كتاب أنطونيوس رداً على كتاب كان قد بعثه إليه أكتافيوس فى الشتاء السابق يشكو منه عدة أمور ، وفى هذا الخطاب[1] الشىء الكثير من فحش القول فأشار أنطونيوس فيه إلى أكثر المسائل دقة بوضوح وجلاء عظيمين لا نظفر بمثلهما فى غير اللغة اللاتينية . ولم يترفع عن أن يستعمل أحط العبارات والشتائم ، فجاء كتابه جامعاً لكل سفساف ومبتذل « ما الذى جعلك تتغير وتنقلب ؟ ألأنى متصل بالملكة ؟ إنها زوجتى ! وهل علاقتى بها إبتدأت الآن أم مستمرة من منذ تسعة أعوام ؟ » ولقد حاول العالم كروماير[2] أن يستنتج من هذا الخطاب تاريخ بدء هذه المراسلات الخاصة ، وتاريخ ذلك الخطاب الذى اقتبس منه سويتونيوس . ويظهر أنطونيوس فى هذا الخطاب دهشته من اتهام أكتافيوس له بالتفريط ، وتأنيبه له بسبب علاقته مع الملكة ، وخصوصاً أنها بدأت منذ تسع سنين . وإن بدء هذه العلاقة مع الملكة لا يمكن أن يكون قد حصل قبل ربيع عام ٤١ ق . م ، فيكون العام التاسع ربيع عام ٣٣ ق.م ولا يمكن أن يكون قد تبودلت خطابات الهجاء بينهما قبل هذا التاريخ ؛ وهـذا

---

(١) سويتونيوس ، حياة أغسطس ، ٦٩

(٢) كروماير فى مجلة هرميز (Hermes) ، العدد رقم ٣٣ ، ص ٣٥ — ٣٧

الخطاب الذى نحن بصدده الآن قد أرسل فى الأيام الأولى من هذه المراسلات التى يمكن تعيين بدئها على وجه التقريب فى شتاء عام ٣٤ — ٣٣ ق م. ومما لا يحتاج إلى برهان أن هذه الرسائل الخاصة قد كتبت قبل تبادل المكاتبات الرسمية التى أعلن فيها كل منهما إتهاماته للآخر ، فكان أكتافيوس يندد فى مجلس الشيوخ وأمام الشعب الرومانى بسياسة أنطونيوس فى الشرق ، وكان أنطونيوس يجاوبه فى رسائل عامة مبيناً أن أكتافيوس أغفل زميله، ولم يوف بالوعد الذى قطعة على نفسه فى عام ٣٧ ق . م ، ولم يكن عادلا فى تقسيم جميع الأراضى بإيطاليا بين جنده وحده فلم يترك شبراً من الأرض لجند زميله أنطونيوس، ولقد أفحمه أكتافيوس باتهامه بأنه ألحق العار بالرومان لخداعه ملك أرمينيا فى جملته على بلاده وأسره لأرتاواسديس بتلك الطريقة القاسية ، وهو صديق وحليف للجمهورية الرومانية ، كما اتهمه بامتلاكه مصر وأرمينيا بدون اقتسامهما مع زميله ، وإعطائه نصيبه فيها ، ولامه أشد اللوم على منحه ألقاب الشرف للملكة كليوباترة وأولادها وإهدائهم أقاليم رومانية ، ولقد أبان له شديد استيائه من سوء تصرفه بانتصاره لقيصرون ، وإعلانه المطالبة بحقوقه فى عرش أبيه قيصر فأنبه على إعلانه ، واعترافه ببنوة قيصرون الحقيقية من قيصر ، وأنه الوارث الحقيق ، وذكر أنه بفعلته هذه أساء إلى سمعة قيصر العظيم فى قبره[1] .

ولقد سلك أنطونيوس نفس الخطة التى اتبعها قيصر مع زميله بمبى فى عام ٥٠ ق . م ، فكتب إلى مجلس الشيوخ الرومانى مقترحاً أن يعتزل سلطته على شريطة أن يجاوبه أكتافيوس بالمثل ، وكانت هذه الخطة مجرد سياسة مدبرة ، يقصد بها كسب محبة الشعب الرومانى ، وأن يعيد إلى أذهان الرومان ذكرى أيام بمبى وقيصر عندما كانت تتخذ هذه الخطط وسائل لكسب ثقة الشعب . ولقد بين المؤرخ ديو الدافع الذى حمل أنطونيوس على سلوك هذا السبيل ، وهو اقتراحه اعتزال كل من الإثنين الحكم الثلاثى فى الوقت نفسه ، بأن أنطونيوس كان

(١) ديو ، ٥٠ ، ١ ، ٢ ؛ بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، ٥٥ ، ٥٦

يقصد بذلك أن يجرد عدوه من كل أمل فى تجديد قوته ، وتجريده من سلطته فى الوقت الذى سيستمر فيه أنطونيوس حافظاً لمركزه فى الشرق ، متخذاً من مصر وملكتها كليوباترة تكأة يستمد منها موارده ، ويعتصم بها إذا ما تأزمت الأمور . على أنه فى حالة رفض أكتافيوس إقتراح زميله سيجر عليه سخط الشعب الرومانى[1] ، وبذلك تتاح لأنطونيوس الفرصة فى أن يقف موقف المدافع عن حرية الشعب الرومانى التى اعتدى عليها زميله ، وتتهيأ له الأسباب التى تمكنه من أن يقضى على سلطة أكتافيوس الإستبدادية ، فيصير سيد العالم الرومانى بمفرده ، ويحقق لكليوباترة أمانيها بالتبعية . وزيادة على ذلك فإن قوات أنطونيوس التى تجمعت فى إفسوس ستكسب مطلبه قوة ، ولكن حساب أنطونيوس قد اخطأ إذ أجاب أكتافيوس بأنه يود من صميم قلبه أن يحضر أنطونيوس إلى روما ، ويشترك معه فى إعادة نظام الحكم الجمهورى، وفض الحكم الثلاثى ، وكان يعلم حقاً أن انطونيوس لن يأبه لطلباته ، وأن عدم اكتراثه هذا سيفيده فى إظهار أنطونيوس للشعب الرومانى بمظهر من ينقصه الإخلاص ، وأنه كان فى نياته وأغراضه هازلا غير جاد .

وفى الوقت نفسه الذى كانت تجرى فيه هذه المكاتبات، كان أنطونيوس يُعد العدة ويبنى الأسطول، ويجند الجند ، ويجمع الأموال مُظهراً أن كل ذلك لغرض آخر ، وهو فى الحقيقة يتأهب للحرب المقبلة[2] . وكانت كليوباترة بالطبع ضالعة فى كل هذا، وهى العماد الذى اتخذه أنطونيوس فى برنامجه العدوانى ضد روما . وفى يناير سنة ٣٢ ق . م استحكمت حلقات الأزمة ، إذ انقضت مدة الحكومة الثلاثية ، ولم يتقدم أحد منها باقتراح تجديدها لمدة أخرى ،وبدأ فى أول يناير كل من القنصلين للعام الجديد وهما دوميشيوس وسوسيوس من أتباع أنطونيوس ، يباشران سلطتهما[3] . ولما التأم عقد

(١) ديو ، ٤٩ ، ٤١ ، ٦
(٢) ديو ، ٥٠ ، ٢
(٣) ديو ، ٥٠ ، ٢

اجتماع مجلس الشيوخ الرومانى تحت رئاستها بدأ سوسيوس سنته الرسمية بخطبة رنانة ، يؤيد فيها سياسة أنطونيوس ، ويندد بسياسة أكتافيوس ، ويصب عليه جام غضبه ، وكان الأخير غائباً عن روما فى ذلك الوقت ، ويؤكد « ديو » أن سوسيوس كان لا شك سيقدم اقتراحاً فى غير مصلحة أكتافيوس ، لولا أن عارض أحد زعماء الشعب ونقابته من الترابنة [١]. وعلى أثر ذلك عاد أكتافيوس مسرعاً إلى المدينة ، ودعا مجلس الشيوخ للانعقاد ، ولو أنه لم يكن ليملك هذا الحق من الوجهة القانونية ، ولكنه ارتكن على مركزه وسمعته العالية ، ولذا تأكد أن دعوته ستجد آذاناً واعية فدخل روما ومعه جماعة من الجند ونفر من الأصدقاء الذين كانوا يحملون الخناجر فى طيات ملابسهم . ولما اجتمع المجلس جلس أكتافيوس بين القناصل ، ودافع عن نفسه بعبارات ملؤها التواضع المتصنع ، ثم هاجم سوسيوس وأنطونيوس ، وفند سياستهما ، وذكر يوماً معينا وعد أن يبرز فيه البراهين المؤيدة بالوثائق ليثبت صدق قوله . أما القنصلان فقد استولى على قلبيهما الرعب لعدم توقعهما هذه الصدمة ، فلم يحركا ساكناً للدفاع عن أنطونيوس ، إذ كانا بوصفهما قنصلين داخل حوائط روما لا يملكان قوة عسكرية يستندان إليها ، فى حين أن أكتافيوس كان تحت سلطانه كل الجيوش بإيطاليا ، وفضلا عن ذلك فإنهما كانا بعيدين كل البعد عن حليفهما المسلح ، ولما شعرا بضعف مركزهما وعجزا عن أن يجدا لأنفسهما مخرجاً من هذا المأزق تحاشيا الاصطدام مع أكتافيوس وكانا يشعران أن هذا لابد واقع ما داما بروما ، فانسلا فى الخفاء من المدينة قبل اليوم الذى ضربه أكتافيوس موعداً لإبراز ما لديه من بيِّنة وأسرعا للحاق بحاميهما ووَلِىِّ نعمتهما فى الشرق وتبعهما عدد من أعضاء مجلس الشيوخ يبلغ ثلثمائة كانت تحوم شبهة أكتافيوس نحوهم أو كان لديهم من الأسباب ما جعلهم يخافون بطش أكتافيوس . ولما علم أكتافيوس برحيل أعضاء مجلس

---

(١) ديو ، ٥٠ ، ٢ ، ٤؛ بوشيه ليكلرك ، تاريخ اللاجيديين ، البطالمة ، جزء ثان ص ٢٨٥

الشيوخ لم يدر كيف يعالج الموقف ، وأعلن أنه منح الفارين الإذن بالرحيل ، وأنه مستعد للسماح بالخروج لكل من يفضله .

وفى ربيع عام ٣٢ ق.م وصل أعضاء مجلس الشيوخ الفارين إلى إفسوس ، ولكن بمجرد وصولهم بدأ القلق يدب فى المعسكر ؛ إذ دهشوا لوجود كليوباترة فى المدينة ، وخصوصاً أنها كانت تتمتع بنصيب كبير من القوة والسلطة أثار سخطهم ، وأذهلتهم هذه الحال التى تبينوها بأنفسهم عند حضورهم . ولقد تعذر عليهم أن يدركوا كيف تكون ملكة مصر بخيلها ورَجْلِها وأموالها التى كانت تقدمها عن سعة الصرف على ما يجرى من الحوادث ، مهما حرص يدعى أنصارها ، إن صدقاً وإن كذباً ، أنها لإعادة النظام الجمهورى فى روما . وبعد أن تبينوا غوامض الأمور ، أدرك كثير منهم فى وقت قصير أن أنطونيوس وهو الحاكم المستبد « الأتوقراطى » بالشرق وزوج كليوباترة لم يكن يُرجى أن يتم على يديه إعادة الحكومة الجمهورية فى روما . ولقد أصر دوميشيوس أهينوباربوس على عدم الاعتراف لكليوباترة بحقها فى السلطة والسطوة التى بلغتها ، ولم يقبل أن ينطق بألقاب الشرف عند مخاطبتها ، بل كان على الدوام يناديها باسمها المجرد ونصح لأنطونيوس أن يرسلها إلى مصر [1] ؛ وأوشك أنطونيوس أن يقبل النصيحة التى قدمها له دوميشيوس ، وبعض أعضاء « السناتو » البارزين وكاد يبعدها عن المعسكر ويأمرها بالعودة إلى مصر ، ولكن لم يكن من طبع كليوباترة التردد فى الوقت الذى كانت تشعر فيه أن نفوذها فى خطر ، وكان من حسن حظها أن بجانبها مورداً ومعيناً من المال لا ينضب ولا يعجز عن أن يوجد لها كما أوجد لأبيها من قبل المحامين الذين يدافعون عنهما ، إذ قيل إنها قد رشت شخصاً يدعى بوبليوس كانيديوس (Publius Canidius) لكى يدافع عن وجهة نظرها . فأبان لأنطونيوس أن الأسطول المصرى يبذل أقصى الجهود ، ويتفانى فى الحرب إلى أبعد مدى إذا كان تحت ظل ملكته ، وبيَّن لأنطونيوس أنها

(١) بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، ٥٦ ؛ ڤيليوس (Velleius) ، ٢ ، ٨٤ .

قدّمت مساعدات عظيمة فى سبيل تهيئة الجيوش والقوات التى لزمت لهذه الحرب [1] . وبمثل هذه البراهين ساد الرأى المناصر لها ، وسقط رأى دوميشيوس ، وبقيت الملكة مع أنطونيوس . وهنا يجب أن نسجل على أنطونيوس إرتكابه خطأ عظيما بإبقائه الملكة معه فى المعسكر ، فقد أدى هذا إلى سلسلة أخطاء أخرى وقع فيها . إذ أن وجود كليوباترة فى إفسوس، وتدخلها فى شئون الحرب ، وتصريف ما يتصل بها من أمور كانت من صميم إختصاص قادة الرومان ، كان سبباً فى انفضاض كثير من أعضاء الشيوخ من حول أنطونيوس بعد أن كانوا مؤيدين له حتى هذه المرحلة . وبدءوا ينقسمون إلى شعبتين متميزتين ، ففريق يريد الحرب ويؤيد أنطونيوس فى كل مشروعاته ، فى حين أن الفريق الآخر يروم السلم حتى ولو كان ذلك على حساب كليوباترة ، ولا يتردد الفريق الأخير فى تقديم كليوباترة فداءاً بأى ثمن كان ولو كان بخساً ، ولكنها أجمعت رأيها على أن تضطر أنطونيوس أن يُقْدم على أمر يجعل إستمرار السلام بينه وبين أكتافيوس مستحيلا ، فلم تدخر وسعاً فى استعمال كل ما أوتيت من قوة وحيلة فى التأثير فى زوجها ، وإغرائه بأن يُطَلِّق أكتافيا . وهذه تكون لطمة كبيرة لأكتافيوس لا ينفع فى محو أثرها إعتذار، وبذا تجعل الصلح أمراً مستحيلا . وكان موضوع الطلاق مشكلة تضاربت بصددها الآراء بين الجانبين الرومانى والمصرى ، ولقد كسبت الملكة لصفها بفضل الأصفر الرنان بعض الرومان الذين لم يترفعوا عن أن يقبلوا مالها ، وهؤلاء كانوا قوة فى جانبها ، انتفعت بنفوذهم فى التأثير فى أنطونيوس ليقْدِم على هذه الخطوة الجريئة . وكان أكثر الجانب الرومانى فى صف أكتافيا يعارض فكرة طلاقها ويبين أنه لو حصل لأوجد من الخلاف هوة سحيقة لا تسد . ولما أن أزعجت أنطونيوس كل هذه النصائح المتضاربة ، صمم أن يؤجل البت فى هذا الأمر لفرصة أخرى وتقدم إلى الغرب فعبر البحر إلى بلاد اليونان ، تاركاً جزءاً من جيشه فى آسيا

---

(١) پلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، ٥٦ ، ٢

الصغرى . وعندما وصل إلى أثينا بلغه نبأ خطبة ألقاها أكتافيوس فى مجلس الشيوخ الرومانى[1]، ولكن لم يصل إلى أيدينا فحواها . وكل ما نعلمه عنها أنها أثارت أنطونيوس ، واستفزته لدرجة جعلته يصمم على أن يعلن عن خطته فى غير تورية ولا مداراة ، فجمع مجلساً من أعضاء الشيوخ الذين كانوا معه ، وعرض الأمر عليهم ، وبعد حوار طويل مع من كانوا يرومون الصلح وإصلاح ذات البين ، والذين كانوا يعتقدون أن الطلاق لابد مؤدٍ إلى إعلان الحرب وبين من أخذ بـلـبهم مال كليوباترة، ومالوا إليها كل الميل ، وصاروا يرون بمنظارها — بعد ذلك الحوار صمم أنطونيوس على الحرب ، وقطع العلاقة بينه وبين أكتافيا بطلاقها فأمضى خطاب طلاقها وأرسل رسلا من قِبَله لروما ، يُعلِنونها بالأمر، ويطلبون إليها أن ترحل عن منزله[2] ؛ وفى الوقت نفسه أمر جنده المعسكرين بإفسوس أن يبحروا إلى بلاد اليونان ، وكان هذا بمثابة إعلان للحرب ، وقطع نهائى للعلاقات بينه وبين أكتافيوس . ولقد كان فى مسلكه هذا هزيمة للحزب الرومانى ، وانتصار لكليوباترة التى شمخت بأنفها تيهاً وعجباً بنفسها ، وفرحاً بفوزها المبين . وإن الإنسان ليرى يدها تحرك دقة الأمور من وراء ستار ، ولا يمكنه بأى حال من الأحوال أن يبرئها من تحريض أنطونيوس على اتخاذه هذا المسلك إذ أنها كانت هى الوحيدة التى استفادت من قطع العلاقات . فإنه مادام لأنطونيوس زوجة شرعية بجانب كليوباترة كان من المستحيل على اليونان والرومان أن ينظروا إليها أكثر من أنها حظيته ، فطلاق أكتافيا إذاً كان يقصد به تسوية حالتها وتثبيت مكانتها بجعلها زوجة شرعية . ولكن هذه المعاملة القاسية لأكتافيا، تلك السيدة التى كسبت قلوب الناس إليها بطبعها الهادىء وإخلاصها لزوجها العاق، قد صرفت من حول أنطونيوس عدداً كبيراً من المؤيدين له الذين لم يصعب عليهم أن يروا فى هذ التصرف برهاناً قاطعاً على تعلقه

---

(١) ديو ، ٥٠ ، ٣ ، ٢

(٢) ديو ، ٥٠ ، ٣ ، ٢ ؛ بلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ٥٧ ؛ مختصر ليفى ١٣٢ ؛ يوتروبيوس ، ٧ ، ٦ ؛ أوروسيوس ٦ ، ١٩ ، ٤

الشديد ، ووقوعه التام تحت نفوذ وسلطان تلك الملكة المصرية . ولم ينس أكتافيوس أن يتخذ من طلاق أنطونيوس لأكتافيا سلاحاً ماضياً فى المعركة السياسية بينهما، فأهاب بالرومان ألا يتأخروا عن إظهار سخطهم ضد الأجانب الذين من أجلهم طلّق أنطونيوس زوجته الشرعية ، فكأنما قدم له أنطونيوس السلاح الماضى الذى به يمكّن عدوه من التأثير فى عقول أتباعه ، وإثارة ثائرتهم ضد الأجانب ، أعداء روما ، وسبب أزمتها ومحنتها الحالية ؛ فانساقت الجموع إليه ونفث فيهم روح العداء ضد خصمه ليصبوا عليه جام غضبهم .

كليوباترة وقيصرون فى وصية أنطونيوس

وفى هذه المرحلة وقعت واقعة كان لها أثرها فى الخلاف المحتدم ، وذلك أن تيتيوس (Titius) وپلانكوس (Plancus) وهما من رجال حزب أنطونيوس البارزين ، وكانا يكرهان الملكة لأسباب شخصية ، ويكيدان لها كل الكيد ، ويعملان على عرقلة أطماعها وسياستها ، هجرا حزبه وانضما لأكتافيوس ، ولقد كانا متصلين اتصالا وثيقاً بأنطونيوس ، وعلى علم تام بكل أسراره ونياته ، وكانا شاهدى عدل حضرا كتابة أنطونيوس وصيته التى أودع صورة منها بمعبد الإلهة فستا (Vesta) بروما ؛ ولكى يكيدا لأنطونيوس أخبرا أكتافيوس بما تحتويه هذه الوصية ، فطلب إلى العذارى حارسات معبد الإلهة أن يسلمنه الوصية ، ولكنهن رفضن ، وعلى ذلك أسرع إلى المعبد واستولى على الوصية بالقوة، وجمع مجلس الشيوخ، وأطلعه أولاً على محتوياتها، وبعد ذلك أطلع الشعب الرومانى المجتمع فى سوق المدينة (الفورم) عليها .
وكان أنطونيوس يصرح فى هذه الوصية الأخيرة والوثيقة الفذة أن يوليوس قيصر هو والد قيصرون ، وأنه يترك بعد موته إرثاً عظيماً وأراضى كثيرة هبة منه لقيصرون ولأبناء كليوباترة الآخرين ، وكان يطلب فى هذه الوصية أنه فى حالة وفاته فى روما يحتفل بجثته فى « الفورم » ثم تُحمل بعد ذلك

باحتفال رسمي مهيب إلى الإسكندرية حيث تدفن بجوار كليوباترة[١] .
ولقد استفاد أكتافيوس فائدة جليلة من تصريح أنطونيوس الخاص بأمر دفنه ، فألهب عقول الرومان ولوح به أمام أعينهم ليكون برهاناً حسياً قدمه أنطونيوس بخط يده يتبرأ فيه من الشعب الروماني حتى بعد مماته . ويشك العالم الكبير رستوفتزف في صحة هذه الوصية ، ويجد من الصعوبة بمكان « أن نصدق صحة هذه الوثيقة ما لم نسلم بأن أنطونيوس كان في الواقع قد فقد صوابه ، واعتراه الخبل »[٢] . وفي البرهنة على صحة ذلك الرأي وللدفاع عن نظريته مضى ذلك المؤرخ يقول « إنني لا أستطيع أن أتصور هذه الوصية المنسوبة إلى أنطونيوس إلا مزورة أخرجتها بنات أفكار أكتافيوس أغسطس ومو ناتيوس بلانكوس وتيتيوس ، الصديقين القديمين لأنطونيوس ، وليس بعجيب على أكتافيوس أن يلجأ إلى تزوير وثيقة لا يمكن لغير مجنون أن يرسلها إلى روما لتحفظ في معبد الإلهة فستا ... وإذا فرضنا أن أنطونيوس احتج على جرأة أكتافيوس هذه فإن هذه الاحتجاجات لابد أن يكون قد ضرب بها عرض الحائط ، ولم يقم لها الناس وزناً ، ثم ما لبث هذا الصوت الخافت أن ضاع وسط الحرب وضجيجها » . وإنه لمن المسلم به أن هذه الوصية كانت ذات فائدة عظيمة لأكتافيوس الذي لابد أنه قد اعتمد عليها في إثارة شعور الرومان في وجه عدويه : أنطونيوس وكليوباترة . وهذا ما يبرر لدرجة عظيمة إحتمال صحة رأي العالم رستوفتزف في إحاطة أمر هذه الوثيقة بسياج من الشك ، ولكننا إذا فحصنا الأمر وصرفناه على وجوهه المختلفة نجد أن هـذا الشك الذي أثاره العالم الروسي لا يقوم على دعائم قوية ، وبراهين قاطعة — ويفتقر إلى كثير من الحجج القوية التي تثبته ؛ هذا مع أن رأيه الذي بسطه يبدو بادىء الأمر خلاباً يأخذ بلب سامعيه لأول وهلة .

---

(١) ڤيلّيوس، ٢ ، ٨٣ ، ١ — ٢ ؛ پلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، ٥٨ ، ٢ ؛ سويتونيوس ، حياة أغسطس ، ١٧ ؛ ديو ، ٥٠ ، ٣ ، ٢ — ٥

(٢) رستوفتزف ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي ، الفصل الأول ص ٥٦ ثم هامش رقم ٢٤ من الجزء الثاني، ترجمة زكي علي ومحمد سليم سالم.

وها نحن أولاء نسوق هـذه الاعتراضات التى تدحض رأى العالم الروسى، وتثبت صحة هـذه الوثيقة، وأنها من مخلفات أنطونيوس، فإننا إذا فحصنا محتويات تلك الوثيقة المشكوك فيها فى زعم رستوفتزف، وجدنا أن ما جاء بها عبارة عن تكرار لما سبق أن أرسله أنطونيوس فى رسائله لمجلس الشيوخ للتصديق عليه فى عام ٣٤ — ٣٣ ق . م . وإذا استثنينا العبارة الخاصة بتعليمات أنطونيوس إزاء دفنه، فإن الوصية فى جوهرها عبارة عن هذه الرسائل التى أرسلت لروما قبل انفضاض كل من بلانكوس وتيتيوس من حوله، وتسللهما إلى معسكر عدوه؛ ولا يمكن أن تكون هذه العبارة التى جاءت بالوصية خاصة بدفنه مثيرة لسخط الرومان عليه بقدر ما كانت تثيرهم الهبات العظيمة التى أسبغها على أبناء كليوباترة. ولم يكن أمر هذه الهبات سراً مكنوناً أخفاه أنطونيوس، بل إنه أمر وكلاءه أن يعلنوا هذه الرسائل على مسامع مجلس الشيوخ فى روما، ويرجع الفضل لحكمة هؤلاء الوكلاء فى أن هـذه التدبيرات التى أتاها أنطونيوس طويت فى زوايا الكتمان. وفوق ذلك إذا سلمنا جدلاً بأن أكتافيوس وبلانكوس وتيتيوس قد دبروا هذه المكيدة لأنطونيوس، وأخفوا معالم الوصية الحقيقية وزوروا أخرى، فإن حارسات معبد الإلهة « فستا » حيث كانت الوثيقة الحقيقية فى حوزتهن، لم يكن ليسكتن على ذلك، بل كن يبادرن بالكشف عن كنه الأمور وإعلان أن الوصية مزورة. وعلى ضوء هذه الحقائق تنجاب الشكوك التى أثارها العالم رستوفتزف، ومنها زعمه أن الوصية مزورة، وتكون النتيجة الحتمية التى يمكن استخلاصها أنه لا يصح تسرب الشك فى صدق هذه الوصية، وأنها من صنع يد أنطونيوس، وأن كليوباترة هى المدبرة لكل هذه الخطط وصاحبة المصلحة الأولى فيها .

وإن الاستيلاء على هذه الوصية وإعلان محتوياتها كان عملاً سياسياً موفقاً من جانب أكتافيوس، فعم السخط روما وثار الناس وصبوا اللعنات على أنطونيوس الذى جالت بخاطره أطماع غير رومانية، وسلك مسلكاً

لا يليق برومانى ، وبلغ غضبهم درجة جعلتهم يسارعون إلى تصديق كل ما كانت تلوكه ألسنة الناس من الحكايات عنه . وتواترت على ألسنة الناس القصص والروايات عن مسلكه ، وقابلها الناس بالتصديق ، لا يفرقون بين معقول وغير معقول ، وبلغ الأمر أن كان بعض هذه الحكايات بغيضاً مبتذلاً ، به من فحش القول الشيء الكثير عن بلاط الإسكندرية ، ومسلك أنطونيوس وكليوباترة .

وكانت التهم تكال جزافاً للملكة كليوباترة التى قيل إنها كانت مسيطرة سيطرة تامة على أنطونيوس ، مستعملة فى ذلك مشروبات سحرية أعدها السحرة لتدسها لأنطونيوس حتى إذا ماشربها تملكه حبها وأعماه عن أن يرى بغير ناظرها . وكان من بين الحكايات التى أشيعت عنها وتناقلتها الألسن أنها كانت تطمع فى القضاء على الكابيتول وإخضاع روما لتكون تابعة لمصر ونقل عاصمة العالم الرومانى إلى الإسكندرية [1]. ولقد انتشرت هذه الرواية بعد أن أدخل عليها ما كان يُزاد على مثيلاتها من التلفيقات والتغييرات بما يتفق مع هوى خصوم أنطونيوس وما يصادف قبولاً حسناً من لدنهم [2]. ولقد وصف المؤرخ الفرنسى بوشيه ليكلرك هذا الموقف بقوله : إن روما قد وُهبت مهراً لكليوباترة . وبذلك أصبحت تابعة لهذه الأجنبية إذ قدمها أحد أبنائها وحماتها نِحْلة — عطاء — لبغى — محظية قد أكرمت مثواه وآثرته على غيره وأسبغت عليه من الفضل ما ألهج لسانه بالحمد والثناء — لقد طمعت مصر أن تتحكم فى روما وتملى إرادتها على مَن بالكابيتول ، غير آبهة بذكرى أجدادهم العظماء وساخرة من الضعف والجبن اللذين استوليا على قلوب جيل ذلك العصر — ألم يكن كل هذا كافياً لكى يوقظ عزة النفس

---

(١) ديو ، ٥٠ ، ٤ ، ٥ .

(٢) هوراس ، الأنشودة الأولى ، ٣٧ ، ٦ — ١٢ ؛ بروبرتيوس ٣ ، ٢ ، ٣١ — ٢ ؛ فلوروس ٢ ، ٢١ ، ٢ ؛ يوتروبيوس ٧ ، ٧ . على أن فريرو ، الجزء الرابع ص ٦٨ ، انبرى للدفاع عن كليوباترة بقوله « إنها فى الحقيقة لم يخطر لها على بال أحد تلك الأطماع التى نسبها إليها خصومها فى روما » .

والرغبة فى الذود عن البلاد فى نفس ذلك الشعب القوى القاهر ويثير الحماسة الوطنية فى نفس أقل الرومان ميلاً للتضحية ، والذود عن الأوطان !(١)

ولقد استولى الهلع والرعب على نفوس أصدقاء أنطونيوس بروما ، وهالتهم تلك الحملات الشعواء التى كانت تكيلها كثرة الجمهور الرومانى لأنطونيوس كيلاً بلا حساب، ومضوا يحاولون أن يخففوا من غلواء القوم بتعداد مناقبه ، والتقليل من ذلك الأثر السيء الذى أحدثه نشر الوصية ومحتوياتها معللين النفوس بالآمال بأن يكسبوا لأنطونيوس بضعة آحاد وأن يوجدوا ثلمة فى تلك الجبهة القوية التى تكونت فى روما ضده من الساخطين عليه ، والمنادين بالويل والثبور وعظائم الأمور للخائن الخاسر عدو وطنه وصديق عدوة روما ، التى قدمها قرباناً لحظيته بأبخس الأثمان فكان هذا هو الخسران المبين — ولقد أرسلوا له جيمينيوس (Geminius) ليحذره عاقبة أفعاله وليرجوه ألا يرتكب من الأغلاط بحمقه وسوء فعاله مايسبب له خسارة قضيته . ولما وصل هذا الرسول إلى معسكر أنطونيوس بأثينا ظنه القوم صنيعة أكتافيوس ورسوله الأمين ، وأعرضوا عنه ، ولم يكرم أنطونيوس وكليوباترة وفادته ، وبالغا فى الإعراض عنه وإهماله حتى شعر الرسول أنه زج بنفسه فى مأزق لا يجدى ولا يفيد ، فحاول التخلص منه بأسرع ما يمكن . وقد سأله أنطونيوس مرة عند تناول العشاء ، عن حاجته التى أتى ليقضيها فى أثينا فقال له إنه يفضل أن يبقى الجواب عن ذلك إلى فرصة أخرى يسودها التعقل والرزانة ، ولكنه لايتردد فى أن يذكر أمراً واحداً فى هذه الساعة وهو أنه يضمن الفوز لقضيته إذا أعيدت الملكة الى مصر ، فغضب أنطونيوس لقوله هذا وأجابته كليوباترة على الفور « لقد أحسنت صنعا ياجيمينيوس بإفشاء سرك وإعلان الغاية من حضورك بدون أن نضطر لتعذيبك »(٢). ولما وجد أن مهمته فاشلة لا محالة ، انسل من أثينا بعد أن أقام

(١) بوشيه ليكلرك ، تاريخ اللاجيديين — البطالمة جزء ثان ص٢٩٣ .

(٢) بلوتارخوس، حياة أنطونيوس ٥٨ — ٥٩؛ بوشيه ليكلرك، تاريخ اللاجيديين — البطالمة ، جزء ثان ص٢٩٤ .

بضعة أيام وعاد أدراجه مسرعاً إلى روما. وإن رسالته هذه لتظهر بأجلى وضوح أن عدداً كبيراً من الرومان كان ينظر إلى كليوباترة على أنها السبب فى كل هذه المصائب، وأنه حتى فى هذه المرحلة لم تكن إزالة الخلاف، وإعادة المياه الى مجاريها من الصفاء وحُسن التفاهم بالأمر العضال، إذا قدر لأنطونيوس أن يجد فى نفسه من الشجاعة والجرأة ما يكفى للإقدام على تسريح كليوباترة إلى مصر، فقد كان الكثيرون من أتباع أنطونيوس والمؤيدين له يؤمنون بأنه كان من الضرورى لضمان النصر فى المعركة القادمة أن يبتعد أنطونيوس ولو مؤقتاً عن كليوباترة، وأن الأفضل ألا توجد على مقربة من ميدان الحرب. ولكن مسلك الملكة كان فى ذلك الوقت سبباً من الأسباب التى جعلت اليأس يستولى على قلوب كثيرين من أصدقاء أنطونيوس فانفضوا من حوله، وولوا وجوههم شطر أكتاڤيوس.

وفى نفس الوقت كان أكتاڤيوس يعمل على نشر القصص عن عدويه: أنطونيوس وكليوباترة، وكانت غايته القصوى من ذلك هتك أسرارهما والتشنيع عليهما، وإعداد الرأى العام بإشعال نيران الوطنية التى كانت تتأجج فى صدر كل واحد لأخذ القَسَم العظيم (Conjuratio) بالإخلاص التام والولاء له حتى يصيب الغاية. ولما تمّ له ما أراد، وأصبح الرأى العام فى روما وإيطاليا مستعداً لقبول ما يملى عليه، فكر فى كسب مساعدة الولايات الرومانية الغربية، وصبغ مشروعه هذا بصبغة وطنية حماسية حتى نال ولاءهم، وأخذ عليهم العهد الذى أخذه على سائر الرومان فى الغرب. ولم يفته ان يسجل ذلك الحادث فى أثر أنقرة المشهور (Monumentum Ancyranum) وهو سجل الحياة الرسمية الذى كتبه بنفسه أكتاڤيوس، إمبراطور الدولة الرومانية الأول، وبذا أتاح للعالم فرصة الاطلاع على رأيه الشخصى فى يمين الطاعة هذه التى أقسمها له الغرب، وهاهو ذا كلامه عن هذه اليمين، مترجماً عن الأصل اللاتينى «لقد أقسَمَت لى إيطاليا بأسرها يمين الطاعة، طيبة النفس فى قَسَمها، مدفوعة برغبة قلبية، وعَيَّنتنى قائداً فى الحرب التى انتصرتُ فيها

با كتيوم، ولقد اشتركَتْ فى هذا القَسَم بلاد الفالة وأسبانيا وأفريقيا وصقلية وسردينية»[١]. ويظهر أن أكتاڤيوس - كما يدل صريح عبارته التى وردت بتلك الوثيقة — أراد أن يوهم العالم ويلقى فى قلوب الناس أن الحرب فرضت عليه فرضاً، ولم تكن من صنع يده وتدبيره، ويرفض بعض المؤرخين تصديق ذلك الزعم الذى يجعل أكتاڤيوس آلة صماء فى يد الجماعات الإيطالية التى اختارته زعيمها وقائدها بذلك القَسَم الذى يحاول هو وأولياؤه أن يلقوا فى روع الناس أنه لم يكن نتيجة مؤثرات خارجية، بل أتى إثر حماسة وطنية وانفعال نفسانى. ويوجد بعض المؤرخين الحديثين الذين يخالفون هؤلاء فى الرأى، ويجدون فى هذا القَسَم إعلاناً عاماً للولاء والطاعة ويقبلونه على أنه نتيجة طبيعية حتمية لتلك الحماسة العامة التى انبثقت وتجلت بأظهر معانيها فى نفوس القوم المؤيدين لأكتاڤيوس والمعارضين لأنطونيوس وسياسته التى كانت تنطوى على الخيانة العظمى لبلاده. ولكن ليس لدينا الأدلة القاطعة التى تثبت أحد الرأيين بطريقة لا تقبل الشك. ومهما يكن التفسير الذى يسوقه المؤرخون لتوضيح أمر ذلك القَسَم، وسواء أكانوا ينسبونه للحوادث التى وقعت فى ربيع عام ٣٢ أم خريفه، فإنه من الصعب علينا أن نفهم مَظْهرين غريبين وهما إجماع الإيطاليين وتطوعهم لهذا القَسَم. ومن حيث أن البراهين التى يسوقها المؤرخون غير كافية وحججهم غير قطعية، فإن هذه النقاط ستبقى على الدوام غامضة وسراً مكنوناً لا نصل إلى كنهه إلا إذا لجأنا إلى الحدس والتخمين.

وبعد ذلك بقليل أعلن أكتاڤيوس الحرب رسمياً ولكن لم يعلنها على أنطونيوس، بل على كليوباترة التى اعتبرها عدوة (hostis) للرومان. ويقول «ديو» فى تفسير ذلك أنه كان المعروف أن أنطونيوس لن يتنكر لكليوباترة، وإنما ينوى أن يحارب دفاعاً عنها، وبذلك يقدم أنطونيوس بنفسه دليلا

(١) أثر أنقرة، الفصل الخامس، ٣ — ٦ عن الأصل اللاتينى واليونانى المنشور فى طبعة (Gagé)

آخر على عدم وفائه لوطنه وخيانته لبلاده وتخليه عن رومانيته [1]. ثم تبع ذلك إعلان أكتافيوس أن أنطونيوس أصبح مجرداً من ألقابه ورتبه ، فلم يعد شريكا فى الحكم الثلاثى ، ولم يسمح له بأن يشغل وظيفة القنصلية التى كان مقدراً له أن يشغلها لعام ٣١ ق . م ولكن أكتافيوس لم يقدم على الخطوة التالية وهى أن يعلن أن أنطونيوس وأنصاره أعداء للدولة الرومانية، وأن يهدر دمهم ، ولربما رغب أكتافيوس أن يتظاهر للعالم أجمع بأن الحرب الأهلية قد انتهت فعلاً بإعلانه ذلك بعد انتصاره على سكستوس بمبي . ويعلل بعض المؤرخين هذا الإهمال من جانب أكتافيوس لأنطونيوس وعدم إعلان الحرب عليه بأنه كان معروفاً أن أنطونيوس لن يترك كليوباترة فى مهب الريح على هذا النحو تتلقى وحدها الصدمات من جانب أكتافيوس ، بل سينتصر لها ويحارب فى صفها ، وبذا يكون قد قدم سلاحاً ماضياً فى أيدى أعدائه يحاربونه به ويشهرونه فى وجهه ، ذلك هو محاربته وطنه وبلاده من أجل ملكة أجنبية . وإنه لمن الجائز أن أكتافيوس باتخاذه هذا السبيل لم يشأ أن يغضب أتباع أنطونيوس وأنصاره ، ويثير سخطهم لحد بعيد وبذا مهد لهم السبيل ليعودوا إلى حظيرة بلادهم وينفضوا من حول زعيمهم وبطلهم أنطونيوس بدون أن يلحق بهم أى ضرر أو ينزل بهم أى عقاب . وبإهمال أنطونيوس إلى هذا الحد الكبير ، وبتحاشى ذكر اسمه وإعلان الحرب على كليوباترة ، أظهر أكتافيوس إحتقاره لشأن أنطونيوس . ولكى يتم إعلان الحرب رسمياً لبس لباس الكاهن ، وقد تبعه أعضاء مجلس الشيوخ وفقاً للعادة الرومانية التى توجب على القائد أن يلبس لباس الكهنوت ويذهب إلى معبد إله الحرب ، مارس (Mars) ، حيث يؤدى الواجبات المرعية فى مثل هذه الأحوال ، ويرمى السهم إعلانا بأن روما فى حالة حرب مع عدو أجنبي. وقيل فى الذريعة التى تذرع بها فى إعلان الحرب فى ذلك المعبد إن كليوباترة

---

(١) ديو ، ٥٠ ، ٦ ، ١

إدعت مِلكية أقاليم، فتحها الرومان وملكوها . وبذا انصب جام غضب روما كلها على كليوباترة وسيرت جيوشها وقواتها ضد هذه الملكة . ولم ينته عام ٣٢ ق . م إلا وكان زعيما الشرق والغرب قد أعدا عدتهما وسيَّرا جيوشهما بعضها ضد بعض . وكان كل من الطرفين يطمع فى أن تكون له الغلبة والسيطرة النهائية على العالم الرومانى بأسره .

الفصل السادس

النزع الأخير

الشرق والغرب وجهاً لوجه

وهكذا تهيأت كل الظروف والملابسات لإثارة العداوة المتأصلة بين الشرق والغرب من جديد ، وسار جيش من الشرقيين لا تجمعه جنسية واحدة لقتال الغرب ، فاستولى على نفوس الغربيين ذعر شديد ، وهلع كبير ، من جراء زحف الشرقيين عليهم وتهديدهم بغزو بلادهم . ولكن كان من سوء حظ أنطونيوس أن الرومان لم ينظروا إليه نظرهم إلى أحد القواد الرومان ، بل رأوا فيه قائداً أجنبياً ، لا يمت إليهم بصلة ، تولى قيادة الشرقيين والدفاع عن قضيتهم وقضية كليوباترة بالذات فى الهجوم على دولة الرومان فى الغرب وناصب أكتافيوس الذى تولى الدفاع عنهم، العداء ، فأجمعوا أمرهم للانتقام من ابن روما العاق وعدوها اللدود الذى احتضن الشرق وألبه على الغرب وتنكر لوطنه وبلاده وبنى جنسه فحلت عليه نقمتهم أجمعين .

وكان تقدم الجيوش من كل من الشرق والغرب حادثاً ذا خطر، إذ كان الناس فى جميع أنحاء الإمبراطورية من الفرات إلى أسبانيا غرباً يتساءلون عن نتيجة الحرب التى يتوقف عليها مآل حكم العالم القديم ، وكان أنطونيوس قد أخذ بعض أسباب النجاح، وكان من الجلى أنه إن كتب له النصر دخل روما وملكة مصر إلى جانبه دخول المنتصر الظافر ،فأذلها، وترك العنان لكليوباترة تنتقم من أعدائها انتقاماً صارماً ؛ ولكن ليس من السهل أن نحكم بأن الغرب كان يقبل طوعاً أو كرهاً مثل تلك الحال دائماً أو إلى أمد قصير أو طويل. وإذا قدر على أنطونيوس الفشل فى حملتـــــه فسيواصل أكتافيوس السير ويستحوذ على شرق البحر المتوسط . ولربما تسرب الظن إلى أنطونيوس

أنه ليس فى مقدور أكتافيوس فى حالة نجاحه وانتصاره أن يصل إلى كل هذه النتائج ، ويمكن القول بأن أنطونيوس قد فكر فى حالة هزيمته أن يقتصر على حكم الشرق الإغريقى ثم يترك الغرب وشأنه . وإنه ليمكن الظن أن أنطونيوس قد انخدعدته وأهبته لحالةربما نجمت إذا تحقق هذا الاحتمال وصدقت النبوءة . ومما يقوى هذا الظن عندنا أن انطونيوس قدرضى الشرق له مقاماً ، واتخذ مطامحه له آمالا ، واصطبغ بعاداته وتقاليده وزيه وكل خصائصه ، وفوق ذلك فإن الحوادث التى وقعت بعد ذلك دلت على أن أنطونيوس كان متخذاً الشرق قاعدة له فى فتوحه وتقدمه وموئلا أخيراً فى حالةما إذا مُنِى بالفشل .وعندئذ يعود القهقرى إلى الشرق ويتخذ مصر مركزاً رئيسياً له ، ويؤسس له فيه أسرة تحكمه — وبذلك يترك إيطاليا والأقاليم الغربية وشأنها يحكمها أكتافيوس ويكون أنطونيوس قد خلف لعدوه مهمة شاقة وعسيرة وهى اضطراره الزحف على الشرق ، ومحاربة أنطونيوس فيه إذا ما جال بخاطره أن يوحد العالم الرومانى ، ويَلُمّ شعثه من جديد فى قبضة يده . ولربما كان فى ذلك الحل الأخير الذى جال بخاطر أنطونيوس ورسمه لنفسه ، والذى كان يقضى بفصل جسم الإمبراطورية الرومانية إلى شقين متباينين: الإمبراطورية الشرقية والإمبراطورية الغربية ، أمنية صادفت هوى فى نفس كليوباترة ، وكان فيها احتمالٌ عملى يصح السكوت عليه إذا لم تتحقق أطماعها بفشل محاولاتها الاستئثار بالغرب وضمه للشرق تحت حكمها .

الإعداد لموقعة أكتيوم

بدأ أنصار كل من الشرق والغرب فى جمع جيوشهم على جانبى بحر اليونان ، فكان معظم جيش أكتافيوس فى برنديزى وتارنتوم أما جيش أنطونيوس الذى إزداد عدده وتضخم حتى بلغ نحو ثلاثين كتيبة فكان فى بلاد الإغريق ، ولكن أكثر جيش أنطونيوس كان من الشرقيين لأن أكتافيوس منعه من أن يستنفر جنداً من إيطاليا ، ولقد اتخذ أنطونيوس بلاد الإغريق مركزاً لتسع عشرة كتيبة

وترك أربع كتائب فى برقة وأربعاً فى مصر ومثلها فى الشام ورسا معظم أسطوله الذى كان يتألف من خمسمائة سفينة قرب الساحل الغربى لبلاد الإغريق بين أكارنانيا وإبيروس عند مدخل خليج أمبراشيا . أما قوة أكتافيوس فكانت تبلغ مائتين وخمسين سفينة وثمانية آلاف راجل واثنى عشر ألف فارس . وفى أوائل عام ٣١ ق . م صدم أكتافيوش أعداءه الصدمة الأولى إذ سار جزء من أسطوله يقطع البحر الأيونى قاصداً الساحل الجنوبى لبلاد الإغريق برئاسة صديقه الحميم أجريبا (Agrippa) فباغت ذلك الأسطول «ميثونى» ونجح فى أسر بعض الفلك المشحون بالحنطة الآتية من الشام ومصر وآسيا الصغرى ؛ ويخيل للإنسان أن أجريبا كان يبحث عن مكان ينزل فيه الجيش إلى البر ، وقد أحرز أجريبا بهجومه هذا وأسره لتلك السفن نجاحاً كبيراً ، إذ جعل أنطونيوس يركز انتباهه إلى هذه الناحية ويغفل إلى حد ما النواحى الأخرى. فيصيبه منها أكتافيوس على غرة . وبينما كان أنطونيوس متجها بأكبر عنايته إلى هـذه الناحية أقلع أكتافيوس سراً بأسطوله الذى كان يحمل نحو ثمانى كتائب وخمس فصائل من برنديزى ، وأنزل جنده بساحل إبيروس . ولما وصل إلى مسامع أنطونيوس هذا النبأ العظيم وهو وصول أسطول الأعداء ، أقلع وشيكا إلى أكتيوم (Actium) التى يظهر أنه وصل إليها بعد وصول أكتافيوس بقليل . وكان على أكتافيوس أن يُشل حركة أسطول أنطونيوس الذى كان راسياً فى خليج أمبراشيا ، ولـكنه فشل فى اقتحام الطريق إلى داخل الخليج ، واكتفى بضرب الحصار حول مدخله . وبذلك حبس أسطول منافسه داخل الخليج وعسكر أكتافيوس على بعد أربعة أميال شمال المضيق ، أما أنطونيوس فقد عسكر هو الآخر على الجانب الجنوبى للخليج ، ولم يك مستعداً للنزال لأن كتائبه لم تـكن قد تجمعت بعد ، ولما وصلت تلك الـكتائب عبر أنطونيوس المضيق وضرب خيامه فى معسكر آخر على بُعد ميلين جنوبى موقع الأعداء ، ولما رفض أكتافيوس مقاتلته حاول أنطونيوس محاصرته ومنع وصول الماء عنه ولـكن لم تـكلل هذه

الحركة بنجاح كبير لسعة دائرة الحصار التى كان يبلغ محيطها نحو خمسة أميال. وفى نفس الوقت نجح أجريبا بأسطوله فى بحر الأرخبيل من أن يقطع عن أنطونيوس موارده التى كانت تصل إليه عن طريق البحر وأن يكسب انتصارات أخرى . وعندئذ سارع أكتافيوس بإرسال رسله إلى روما ليعلنوا أخبار هذا النجاح على أنه ظفر ونصر مبين وليبلغوا الشعب الرومانى أن قائدهم قد اقتنص أسطول أنطونيوس داخل الخليج. ويظهر أن هذه الإنتصارات على قلة خطرها وضعف شأنها قد ألقت الرعب فى نفوس أتباع أنطونيوس. فانفض من حوله دوميشيوس عدو كليوباترة اللدود وانضم إلى أكتافيوس وتبعه غيره ممن أيقنوا بهزيمة أنطونيوس وبذلك أصاب الخور عزيمة أنطونيوس من جراء هجر أتباعه له وفقد الروح الحافزة إلى القتال .

ومما زاد فى تثبيط همته ، واستياء أتباعه القلة المطردة فى موارده ، والأوبئة الفتاكة فى صفوف جيشه. فترك فكرة الهجوم جانباً ، واكتفى بخطة الدفاع إذ رآها الطريقة المثلى للنجاح فانسحب ليلاً إلى شبه الجزيرة الجنوبية وتحصن فى موقعه الاول بمعسكره الأصلى — ولقد كان حصار أكتافيوس محكماً حتى أن موارد أنطونيوس قد قلت ، حتى كادت تبلغ حد المجاعة ، فأصبح مقامه لا يحتمل البقاء . وكان لزاما عليه أن يجد وسيلة للخروج من ذلك المأزق ، وقد أقنعه سير الحوادث بأن أكتافيوس قد عقد العزم على ألا يحاربه فى موقعة برية فاصلة . وإنه لا سبيل إلى إجباره على ذلك — كما أنه تأكد بأنه لا يمكنه هزيمة أكتافيوس فى موقعة بحرية ؛ لأنه كان قليل الخبرة بالحرب البحرية وقوة أكتافيوس البحرية أعز من قوته وهى بالأمس القريب قد برهنت على عظمتها وخبرتها بأساليب الحرب البحرية بانتصارها على سكستوس بمبى فكان هذا النصر بمثابة الحجر الأساسى فى عظمتها البحرية، وزد إلى ذلك أن سفن أنطونيوس كانت مثل خططه بطيئة متثاقلة بينما كانت سفن أكتافيوس صغيرة ، سريعة الحركة فى التنقل ؛ فكانت آمال أنطونيوس فى النصر بحراً تكاد تكون معدومة ، كما يفهم ذلك

من الأوامر التي كان يصدرها . وعلى ذلك كان الطريق الوحيد الذي يجب أن يسلكه هو أن يخترق أسطول عدوه ، ويهرب إلى مصر حيث يمكنه أن يجمع قواته من برقة وسوريا ويقاوم أكتافيوس مقاومة برية عنيفة ـ ولو أن أنطونيوس سمح لكليوباترة بالهروب من المعركة وحدها لوجد نفسه وحيداً في بلاد قد ضاعت فيها هيبته ، وتقلص نفوذه أو كاد ، ولاضطر أن يعرج وحده على بلاد لا يعلم إلا الله مدى استعدادها لمناصرته ومؤازرته في محنته. ذلك إلى أنه لم يكن معه جيش قوى بآماله وعتاده فقد نهكته الأمراض وتفشته الأوباء ، وأضعفت قوته المعنوية فوق ذلك الهزائم المتوالية وانحياز كثيرين من الرومان فيه إلى العدو ، وهو بطبيعة تكوينه كان ينقصه الإخلاص لأنطونيوس والشجاعة في ميدان الحرب .

ويفهم من كل ذلك أن ملابسات الأحوال أشارت على أنطونيوس باتباع طريق الفرار ، وهو الجندي الخبير الذي لا يحتاج إلى نصائح محترفي الحرب . وقد وافقت كليوباترة أيضاً على هذه الخطة ، ولكنه رأى ذراً للرماد في العيون أن يدعو مجلساً حربياً للإنعقاد ، وأن يعرض عليه الموضوع بتفاصيله للبحث ، وقد عرض عليه بالفعل أحد أمرين : إما التقهقر وإطالة أمد الحرب ، وإما البقاء والمقاتلة في موقعة فاصلة ، ففضل كانيديوس كراسوس الخطة الأولى ، وأخذ يبرهن على سدادها ، ونصح لأنطونيوس أن يتقهقر إلى تراقيا أو مقدونيا في البلقان لكي يستدرج عدوه وراءه ، ثم يحاربه في موقعة لاشك في انتصاره فيها ، لأنه كان قائداً برياً أكثر كفاية من عدوه . وقال إنه ليس من العار تسليم البحر إلى أكتافيوس . وإنه لمن الحمق أن يترك أنطونيوس الميدان الذي يعرف كيف ينتصر فيه ، ويخاطر بأسطوله في حرب بحرية ، ثم أشار خصوم كليوباترة اليوم ، وإن كان منهم من رشته بالأمس ، على أنطونيوس بإعادة الملكة إلى بلادها . أما هي فقد عارضت خطط كانيديوس كراسوس بشدة ونصحت أنطونيوس بأن يحتل بعض أماكن حصينة سوف لايجد أكتافيوس مفراً من حصارها ، وبذلك

يوزع قوته ويفنى فيها بعض رجاله ، وأن يقوم الأسطول فى نفس الوقت بهجوم عنيف ليفك الحصار . وقد حمى وطيس الجدال ولكن القرار الأخير فوض أمره لأنطونيوس الذى أصبح من المحتم عليه أن يقرر خطة معينة للمستقبل فلم يوافق على خطة كانيديوس كراسوس ، واتبع مشورة كليوباترة إذ رأى أنه لو تقهقر بجيشه إلى داخل البلاد لترك أسطوله وشأنه محبوساً فى الخليج ، ولوقع دون شك فى قبضة الأعداء ، وهل كان من الممكن الدفاع عن إمبراطوريته دون أسطول ؟ بل هل كان من المعقول ترك أسطوله دون معين تحت رحمة الأعداء ؟ وهلا توجد وسيلة أخرى بها يمكن إنقاذ الكتائب والأسطول وبعد فترة راحة واستجمام القوى يمكن قيادتها إلى القتال فى أحوال أليق وأنسب ؟ وقد يتساءل الإنسان هل كانت اقتراحات كانيديوس كراسوس قابلة للتنفيذ فى هذه المرحلة ؟ ويمكن القول من المعلومات الضئيلة التى لدينا بأن ذلك كان مستحيلا أو على الأقل شديد الخطر ، وكانت اعتراضات كليوباترة على تضحية جزء من أسطولها شيئاً معقولا ، ويصعب على المرء أن يعتقد أن أنطونيوس قد تصرف بحكمة ، لو أنه ضحى بكل سفينة حتى ولو ضمن النصر براً — وإنه لمن المعقول أن نرى جند أنطونيوس شغوفين وحريصين على أن يترك لهم وحدهم تقرير هذا المصير ، واتخاذ قرار حاسم بشأنه ، ولكن ذلك لا يبرهن على حسن تصريف للأمور لو أن أنطونيوس يستمع لنصيحة جنده فقط وينفذ لهم ما يريدون ، فإنه عندئذ قد يستهدف لخطل الرأى وعلى ذلك كانت موقعة أكتيوم وهى من أعظم المواقع فى التاريخ القديم ، مشكلة حار فى أمرها المؤرخون من القرن الأول الميلادى إلى يومنا هذا [١] . وقد اتفقوا جميعاً على أن أنطونيوس وكليوباترة مسئولان عن خطة الموقعة ولكنهم اختلفوا فى ماهية تلك الخطة تماماً .

---

(١) تناول العالم تارن (Tarn) موقعة أكتيوم بالبحث فى مقال طريف نشر فى مجلة الدراسات الرومانية (Journal of Roman Studies) فى العدد ٢١ لسنة ١٩٣١ ص ١٧٥ وما بعدها . وفيه يدلل على أن أنطونيوس لم تكن لديه خطة واحدة وإنما كان أمامه حرية الاختيار بين أحد أمرين فإما أن يكسب النصر إذا استطاع إلى ذلك سبيلا وإلا فإن خطته كانت تنحصر فى أن يُيمم شطر مصر .

وقد تبين بوضوح تام أن إنزال أحسن الجند على ظهر مراكب الأسطول واقتحام نطاق الحصار البحرى والرحيل إلى مصر مصطحباً الملكة والبحث عن موقع أكثر ملاءمة وانتهاز فرص أنسب للقتال — كل ذلك كان مقدمات لموقعة أكتيوم . ولما استقر رأى أنطونيوس على هذه الخطة أصدر أوامر لم يفهم الجند مغزاها ولا مراميها لأول وهلة ، فقد أمر بالاحتفاظ بثلاثين ومائتى سفينة كانت أحسن السفن وأكثرها عدة ومن بينها ستون سفينة كانت تحت إمرة كليوباترة ، ثم أمر بإحراق بقية السفن التى كانت غير صالحة للقتال ، ولم يكن بها عــدد كاف من الجند وأمر مرشدى السفن بالاحتفاظ بالساريات وأن يأخذوا معهم أشرعة كبيرة ما كان يحتاج اليها فى حالة الحرب ، بل هى فى الحقيقة عائق كبير يمنع سرعة حركة الجند فوق متونها . وقد علّل الاحتفاظ بها بلزومها عند اللحاق بالعدو ، ولكن هذا التعليل لم يقنع ضباطه الذين تسرب اليهم الشك فى حقيقة الأمر خصوصاً وأن أنطونيوس أمر بنقل النفائس ليلا إلى السفن التى احتفظ بها . وكانت الخطة تقضى بإنزال عشرين ألف جندى إلى السفن وألفين من حملة الرماح وفريق آخر من رماة المنجنيق . ولقد فزع الجند عندما تسرب إلى أذهانهم أنه ينوى الإلتحام مع العدو بهذا الرهط كله فى موقعة بحرية . وقد رجاه أحد ضباطه وهو يشير إلى آثار جروح عديدة بجسمه ليظهر له بلاءه وجلاده ، أن يغير خططه ويحارب على اليابس ، وقد كان يعبّر فى هذا عما يجول برأس بقية الجند ، ومع ذلك فإن أنطونيوس لم يعره التفاتاً — وقد أيدت أوامره الأخيرة شكوك من أساءوا الظن به ، فقد كان المقصود من تلك المعركة البحرية أن تكون ستاراً للهروب إلى مصر — الأمر الذى صمم عليه . وتأكد كل من ديليوس وأمينتاس من أغراضه الحقيقية ، إذ لم تخدعهما أوامر أنطونيوس المبهمة ، فانفض من حوله كل من ديليوس وأمينتاس وصحبهما عشرون ألفاً من الجند ، وانضموا جميعاً إلى أكتافيوس فى العقد الأخير من شهر أغسطس . وقد أطلع ديليوس الفار أكتافيوس على قصد أنطونيوس ، وأخبره بأنه

قرر أن يشق لنفسه طريقاً فى الخليج ويهرب مع كليوباترة إلى مصر . وقد كان ديليوس هذا مُقرَّباً من أنطونيوس لدرجة مكنته من معرفة حقيقة أغراضه . وكانت الخطة التى رسمها أكتافيوس لنفسه بمجرد أن أحاط علماً بنيات خصمه أن يسمح لعدوه بالخروج من الخليج . ثم يتعقبه من المؤخرة فى عرض البحر ويدحره ، ولكن أجريبا وهو الساعد الأيمن لأكتافيوس عارض هذه الخطة ، مبيناً أنها خطة غير عملية لأنها قد تمكن العدو من نشر أشرعته والفرار بها على عجل ، فيكون من المستحيل اللحاق به وبذا يطول أمد الحرب دون مسوغ . فقبل أكتافيوس نصيحة أجريبا هذه وصمم على أن تكون خطته إرغام العدو على القتال ، وعدم السماح له بتهريب النفائس المصرية ، ولذا قضت تعليماته الأخيرة بإنزال ثمانى كتائب وخمس فصائل إلى سفنه ، والاستعداد للقتال . فكانت موقعة أكتيوم يوم ٢ سبتمبر وفيها كان أنطونيوس يقود القسم الأيمن من الأسطول وكانت كليوباترة على رأس سفنها الستين فى مؤخرة الأسطول . أما أكتافيوس فكان يقود القسم الأيمن من أسطوله وأجريبا يقود الجناح الأيسر . وتقدم أكتافيوس ومعه سفنه وكان كلما اقترب من العدو اتسع خط القتال ، حتى أخذ أسطوله يحيط بأسطول عدوه من الجانبين ، وظل الخصمان وجهاً لوجه بضع ساعات دون البدء فى القتال ، وأخيراً تقدم قائد الجناح الأيسر فى أسطول أنطونيوس وقد استدرجه أكتافيوس إلى عرض البحر ، متظاهراً بأنه يتقهقر بأسطوله ، ولما أمعن قائد هذا الجناح الأيسر فى التقدم فى عرض البحر ، نحا بقية أسطول أنطونيوس نحوه ، فتقهقر أجريبا ومدّ فى خطوط القلب والميسرة ، ففقد أنطونيوس زمام أسطوله وتوزعه البحر بامتداد خطوط القتال لأن أسطوله تبع دون تبصر أسطول الأعداء الذى أخذ يتقهقر ببطء ونظام ، فعمت الفوضى أسطول أنطونيوس بضع ساعات ، ثم لحقت سفن أكتافيوس الصغيرة بسفن أنطونيوس الكبيرة التى أخذت كل واحدة منها تقاتل حسبما يتراءى لها ، وبذلك قامت تلك المعركة الهائلة بين أسطول قوى متصل الأرسان ، وكثير من السفن لا يتصل بعضها ببعض

ولا تجمعها قيادة محكمة ذات خطط متزنة . ومع ذلك فقد ظلت النتيجة معلقة بين كفتي ميزان لا تثقل إحداهما عن الأخرى حتى تمكن أعداء أنطونيوس من فصله عن قلب أسطوله ، وذلك عند محاولته منع أجريبا من الإحاطة بأسطوله . وفي تلك اللحظة أدركت كليوباترة أن النصر بدأ يحالف أكتافيوس وأنها وأنطونيوس قد خسرا الموقعة ، فاغتنمت فرصة وجود ثغرة في أسطول الأعداء ، وأمرت رجال أسطولها باقتحامها ، وصادف ذلك أن هبت ريح شمالية مكنتها من الإبحار نحو مصر . وعندئذ أطاع أنطونيوس عاملا أقوى من الحب لكليوباترة ، ولو أنه كان متشوقاً في ذلك الوقت لأن يصحب الملكة . فلقد حارب لكي يضمن سلامة التقهقر لأن التقهقر كان ممكناً ولو أن الأمل في النصر كان معدوماً . وعلى ذلك ترك المعركة عقب ذلك مباشرة وتبع كليوباترة بسفينته وحدها .

فرار أنطونيوس وكليوباترة

واتباعاً للرأي التقليدي الذي يقتبسه الناس من المؤرخ بلوتارخوس وُصف هذا الفرار من ميدان القتال بأنه خيانة من كليوباترة ، وتلبية لداعي الغرام من جانب أنطونيوس الذي انفطر قلبه عند ما رأى أن روحه قد فرت من جواره ، ولكن هذه الرواية الخيالية لا تتفق مع الواقع وهي بمثابة تفسير وجداني لموقف عسكري . وقد قيل إن كليوباترة نقضت عهد أنطونيوس لما رأت أنه قد دارت عليه الدائرة في المعركة في الوقت الذي كانت تأمل فيه بأن تحصل على شروط مشرفة للصلح مع أكتافيوس ، وقيل أيضاً إن هيام أنطونيوس بكليوباترة دفعه إلى أن يطرح كل اعتبار آخر وراء ظهره لما رآها فارّة ميممة وجهها شطر مصر . ولكنه من السهل أن نفند ذلك الرأي إذ أكد المؤرخ « ديو » أن خطة الهرب هذه كانت مدبرة من قبل ، ويرى ذلك جلياً في الاستعداد للمعركة ، بل إنه يؤيده ويزيد « ديو » على ذلك بقوله : إن أكتافيوس كان على علم تام بتلك الخطة قبل المعركة وقد أطلعه عليها من نكثوا العهد من رجال وأتباع أنطونيوس . وقد حذا المؤرخون الحديثون حذو « ديو »

واعتمدوا عليه ، فإنهم يقولون إنه كانت هناك خطة مدبرة قبل المعركة بين أنطونيوس وكليوباترة ، كما جاء فى وصف « ديو » لتلك المعركة . ويمكن المرء أن يتساءل ما الذى كانت تكسبه كليوباترة بانتقاضها على أنطونيوس إذا فرض أنها هى التى دفعته إلى القتال بحراً لكى تتخلص منه وتخونه حتى تحصل على رضاء أكتاڤيوس ؟ والجواب على ذلك لا شئ لأنها بجعل أنطونيوس كبش الفداء ما كانت تكسب شيئاً من أكتاڤيوس ، أو تتقرب زلفى إليه ، بل على العكس من ذلك تخسر حماية أنطونيوس لها نهائيا من غير أن تكسب أى شىء فى وقت لم يكن أنطونيوس قد فقد الأمل فى النجاح وكان الجيش لا يزال تحت تصرفه . ومن المؤكد أنها لم تكن تأمل أى خير من أكتاڤيوس ، وهو الذى لم يعلن الحرب على أحد سواها ، فهى الهدف الذى كان يرمى إليه سهامه وهى التى تزوجها أنطونيوس بدلاً من أخته أكتاڤيا. وفى الحق إنه ليس من المعقول أن ترد على خاطرها فكرة التحول إلى أكتاڤيوس إلا إذا ضاع كل أمل لها فى الإنتصار . وفى أكتيوم كانت لا تزال تثق بالمستقبل، وقد تدخلت بالفعل فى وضع خطط الحرب التى كان يتوقف كيانها على الإنتصار فيها . ولكن مع أن التقهقر إلى مصر كان خطة مدبرة قبل الموقعة، فإن تنفيذ هذه الخطة كان بغير إحكام، وكانت الظروف والملابسات غير ما كان يتوقع أنطونيوس . وكانت النتيجة أنه بدلاً من أن يرى نفسه على رأس معظم أسطوله ويقود قوة كبيرة من جيشه تحملها سفنه نحو مصر بعد اقتحام الحصار ، رأى نفسه أحد الهاربين من معركة خاسرة ، وهذا ما قضى القضاء الأخير على نفوذه فى الشرق ، وختم مصيره ومصير الملكة . ولما انتشر خبر موقعة أكتيوم فى العالم الهيلينستى وأرجاء الشرق ، أحدث هزة ورجة كبيرة ، فعصف بآمال الكثيرين وألقى الذعر والخوف فى نفوسهم فى حين فتح أبواب الأمل فى النصر الحاسم والفرج القريب لغيرهم ، وسنرى أنه لن يمضى وقت طويل حتى يختفى من الميدان هاتان الشخصيتان الكبيرتان اللتان أقامتا الأرض وأقعدتاها وهما أنطونيوس وكليوباترة فيستريح منهما

العالم القديم بانتحارهما ويصفو الجو كل الصفاء لأكتاڤيوس الذى ذاق طعم الإنتصار فى أكتيوم ، ثم استساغه فلعبت برأسه نشوة النصر ، ولكنه كبح جماح نفسه فلم يطلق لها العنان ، ومضى فى طريقه ونفسه ممتلئة ثقة واطمئناناً بأن المستقبل القريب له ليتم العمل الذى بدأه فى أكتيوم فيأتى على عدويه اللدودين ويصرعهما بعد أن كادا يصرعانه .

فر أنطونيوس من الموقعة حزيناً كئيباً على سفينة مصرية إلى مصر فى صحبة زوجته ، بل معبودته كليوباترة ، وحاول أكتاڤيوس اللحاق بعدويه الفارين من الموقعة ، ولكنه لم يوفق فعاد إلى الميناء وبدأ يفكر فى ضم جيوش أنطونيوس التى كان قد تركها وراءه ، ومضى فى طريق فراره لا يلوى على شىء ، ولا يأبه لما سيكون من أمرها . وكانت هذه الجيوش قد تركت معسكرها ، وبدأت التقهقر إلى مقدونيا فتبعها أكتاڤيوس وأسرع فى اللحاق بها . ولم يجل بخاطر هؤلاء الجنود البواسل أن قائدهم الأعلى قد فر ، ولم يكن فى نيتهم التسليم لعدوهم ، ولكنهم لما استبطأوا أنطونيوس وعلموا أنه رحل لغير عودة فأورثهم بهروبه الخزى والعار ، ووجدوا فوق كل ذلك أن القائد الجديد كراسوس الذى كان مطلعاً على حقيقة الأمر ، وعلى ما كان من أمر أنطونيوس قد لاذ بالفرار أيضاً ، لم يجدوا بداً من مواجهة الأمر الواقع بعد أن ظلوا سبعة أيام يرفضون ما كان يعرضه عليهم أكتاڤيوس ، وهم واثقون من أن قائدهم ما تغيب إلا من أجل مهمة حربية ، فلما تأكد لديهم آخر الأمر أنه ولى فراراً ، استخذوا وسلموا تسليماً . وهذا يرينا أنه لو أن أنطونيوس رجع مباشرة إلى جيشه وانفصل من كليوباترة لاستمر جيشه على ولائه له ، ولقادهم إلى حرب مظفرة أو هزيمة غير منكرة ، ولكنه لم يفطن إلى أن جنده كانوا ينقمون على وجود كليوباترة وعلى استسلامه الظاهر لنفوذها . وقد زاد الطين بلة ، وأذهب كل روح معنوية فى الجيش تركُ كانيديوس كراسوس وهو يعلم علم اليقين حقيقة الأمر ، للميدان ، واقتفاؤه آثار الفارين واللحاق بهم ، فاضطروا حينئذ إلى الخضوع والتسليم كارهين .

وبعد انتهاء الحرب وتسليم جنود أنطونيوس، قدم أكتافيوس فروض الشكر للآلهة على ما أولوه من نصر على عدويه فى أكتيوم، ثم اتخذ التدابير اللازمة للإحتفاء بذكرى هذا النصر كل عام، فأسس فى موضع معسكره مدينة النصر، نيكوبوليس، تخليداً لذكرى هذه الموقعة واحتفى بهذه الذكرى بإقامة الألعاب فى أكتيوم، وجعل يقيمها كل أربع سنوات — ولا شك أن هذه الأمور شغلته بضعة أيام عقب الموقعة مباشرة، كان فى خلالها فرحاً مسروراً - هذا ماكان من أمر أكتافيوس، وأما ما كان من أمر أنطونيوس وكليوباترة فى أثناء فرارهما على ظهر إحدى مراكب الأسطول المصرى، فلقد كانا كئيبين، قد أظلمت الدنيا فى وجهيهما، يكن كل منهما للآخر الكراهية المصحوبة بالسخط. وكانت تحيط بهما المخاوف من جميع الجهات، فالهزيمة من الوراء تطاردهما وتلاحقهما ملاحقة الظل لصاحبه، والمستقبل من الأمام مظلم حالك الظلمة، تسكنه أشباح مخيفة تلوح لهما بالخطر الدائم والكوارث المدلهمة التى يخبئها لهما القدر المحتوم. وقيل إنهما قضيا بضعة أيام فوق سطح هذا المركب الذى أقلهما من أكتيوم يتحاشيان اللقاء. ولم يجد أنطونيوس فى نفسه من الشجاعة ما يكفى لأن يجمع قوته ويخاطب زوجته. وكان خلال هذه الرحلة لا يفكر إلا فى الكارثة التى نزلت به، وأفقدته جيوشه، وكانت كليوباترة من جانبها تفكر فى مصيرها ومستقبل مصر الذى أصبح مهدداً. وعلى ذلك قضى الجانبان الأيام الأولى من رحلتهما فى حزن واكتئاب، فأنطونيوس يرى الماضى القريب فتذهب نفسه حسرات على مافاته من الأمر، قد برح به الأسى، ونال منه الكمد واستولى عليه اليأس القاتل، وكليوباترة تنظر إلى المستقبل المظلم فتنحدر عبراتها، وتستدر شئون عيونها، ويستولى عليها الهلع والجزع.

وهنا قد يتساءل المرء عن الدور الذى يمكن أنطونيوس أن يمثله على مسرح السياسة بعد أن فقد جيشه وقوته، وأصبح مهزوماً مدحوراً. لقد تغير وجه الأمور، وأصبح أنطونيوس اليوم غيره بالأمس من الوجهة

الدستورية والسياسية ، وكانت كل عنايته موجهة فى ذلك الوقت نحو الفرار إلى مصر والاعتصام بها . وبعد رحلة استغرقت ثلاثة أيام القيا مراسيهما عند رأس تايناريوم (Taenarium) فى جنوب شبه جزيرة البليبونيز ببلاد اليونان ، ويظهر أنهما قد اصطلحا هناك، وعادت الأمور بينهما إلى مجاريها، وصمما على الخطط الأولى التى سيتخذانها .

ولما كانا لا يستطيعان البقاء طويلا برأس تايناريوم خشية أن يقعا فى يد أكتافيوس ، وكانا يخشيان كذلك أن يصل خبر الهزيمة التى لحقت بهما إلى مصر قبل وصولهما ، عجلا السفر عبر البحر المتوسط ، ووصلا إلى بارايتونيوم (Paraetonium) ومحلها الآن مرسى مطروح ، وكانت الميناء الغربية على حدود مصر التى تفصلها عن برقة أو ليبيا ، وهناك افترقا فبقى أنطونيوس فى بارايتونيوم ينتظر وصول جيشه من برقة ، وأسرعت كليوباترة إلى بلادها . ولكن سوء الحظ لازم أنطونيوس فلم يكن موفقاً فى خططه ، إذ كان قد وصل خبر الهزيمة إلى برقة ، وكانت تخشى بطش القائد المنتصر وتود أن تضمن عفوه ورضاءه بالإسراع فى الانضمام الى جانبه والتنكر لعدوه . فقدم قائد جيوش أنطونيوس ولاءه إلى جالوس (Gallus) حاكم أفريقيا من قِبَل أكتافيوس ،ولكى يبرهن هذا الحاكم على ولائه ، وصدق نياته أعدم رسل انطونيوس الذين كان قد أرسلهم إلى حاكم أفريقيا ، وهكذا خسر أنطونيوس جيوشه فى برقة وتبددت تلك الأمانى الأخيرة التى بناها على أساس واهٍ . وفى هذا الوقت جال بخاطره الخلاص من الحياة بالموت ، وإنقاذ نفسه بأن يودع الحياة ويتركها بيخع نفسه، ولكن كانت تعوزه الشجاعة الكافية ، فتغلبت محبته للحياة على الخلاص منها ، وبعد أن استولى عليه اليأس ، وأقعده عن التفكير فى الإقدام على عمل جرىء لم يجد مفراً من أن ييمم شطر ناحية واحدة طالما اتجه نحوها مندفعاً وراء رغبته وعاطفته وحبه للاستمتاع ــ تلك هى الإسكندرية وكليوباترة .

عودة كليوباترة إلى الإسكندرية

وفى الوقت نفسه كانت الملكة أشجع وأنشط من أنطونيوس ، فسارعت إلى تدارك الأمور قبل أن يصل خبر الهزيمة إلى الإسكندرية فتظاهرت فى عاصمة ملكها بأنها منتصرة ظافرة ، وأمرت بالاحتفاء بهذا النصر الوهمى على أعدائها وتزيين مراكبها بأكاليل من الغار لتضلل رعاياها . وفى الواقع لو كان الشك تطرق إلى أهل الإسكندرية ، وارتاب الحزب المعادى لها فى انتصارها فى أكتيوم لقبض على زمام الأمور ومنعها من الوصول إلى الميناء ، ولكنها بدهائها وخداعها تمكنت من التغرير بشعبها إلى أن طأطأ خصومها لها رءوسهم . ولما استقر بها المقام فى قصرها واحتل جيشها المدينة ، أمرت بقتل أعدائها فتخرت تلك الرءوس العاتية صريعة ، وبذا تخلصت نهائياً من عقبة كؤود لم تسلس لها القياد ، وضمنت عدم تكدير صفو هنائها من هذه الناحية ؛ ولم تكن الملكة تعرف التردد فى التخلص بمثل هذه الطريقة من كل مَنْ كانت تشك فى إخلاصهم ، إذ أنها كانت تدرك ألا سلام لها مادام هؤلاء على قيد الحياة ، فاستراحت من متاعبهم واستفادت بأموالهم وكنوزهم ، وملأت خزائنها بما كانت تفرضه من الضرائب على شعبها وما استولت عليه من كنوز المعابد . وادخرت كل هذا عتاداً كان عوناً لها فى قابل أيامها . ولقد جمعت كل قواتها الداخلية فى الإسكندرية ، وصممت على ألا تستسلم لليأس وتفر من الميدان ، وألا تسلم للعدو بدون الاشتباك معه فى حرب وأخذت تسعى فى الحصول على حلفاء لها فأرسلت تخطب ود ملك ميديا وكانت ابنته يوتابى خطيبة ابن كليوباترة المسمى الإسكندر هيليوس أى الشمس لا تزال بمصر وأرسلت لملك ميديا رأس ملك أرمينيا الذى كان سجيناً فى الإسكندرية ثمناً لصداقتها ودليلاً على حسن التفاهم بينهما على مواجهة الموقف الجديد — ولم تكن مجهودات الملكة مقصورة على ناحية واحدة ، بل تعددت نواحى نشاطها ، وجال بخاطرها بعض المشروعات التى تدل على جرأة عظيمة ، ووصفها

بلوتارخوس بأنها « من أجسر وأعجب المشروعات » — كل ذلك من أجل تحاشى وقوع كارثة عظيمة ، أوشكت أن تودى بحياتها ، وتعصف بملكها العظيم ، مؤملة أن تغيّر فى آخر لحظة ذلك المصير المخيف الذى كان ينتظرها. فأخذت فى بناء أسطول ومراكب فى البحر الأحمر تستطيع أن تهرب بها محملة بكنوزها وذخائرها إلى الهند أو بلاد أخرى أجنبية إذا ألجأتها الضرورة القصوى أو الحاجة الماسة إلى الفرار ، ولكن النبطيين من سكان بطراء (سلع) والأعراب فى شبه جزيرة سيناء أحرقوا مراكبها بتحريض من حاكم سوريا الذى خان عهد أنطونيوس ، وانحاز إلى جانب القائد المنتصر أكتافيوس . ولما وجدت أنه لم يتحرك أحد لنصرتها ومساعدتها فى محنتها فى هذه البلاد ، وحبط ذلك المشروع الجرىء ولّت وجهها شطر المغرب لعلها تفوز هناك بما لم تفز به فى المشرق . إذ قد فكرت فى أن تنزل إلى أسبانيا بقوة حربية ، وهناك تثير الثوائر ضد أكتافيوس ، وبذا يتجدد النضال ، وتعود الحرب خدعة ، وربما جال بخاطرها أن يصادف ذلك المشروع هوى فى نفس أنطونيوس الذى كان قد وصل فى ذلك الوقت إلى الإسكندرية فينضم إليها ، ويتعاونان من جديد على تنفيذه ، ولكن قد يتساءل المرء هل كان فى استطاعة أنطونيوس تنفيذ مشروعاتها بمثل تلك المقدرة التى كانت له فى الأيام الخالية ؟ لقد سلبته فاجعة أكتيوم عقله وصوابه وخارت قواه ، وفقد الثقة بنفسه ، وتهدم جسمه ، وعاش فى عزلة فى منزل ابتناه لنفسه فى الميناء الشرقية بالإسكندرية ، وسماه تيمونيوم (Timonium) تيمناً باسم تيمون الأثينى الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد فى أثينا ، غريب الأطوار يستأنس بالذئاب والحيوانات إذا عوت وينفر من الإنسان كلما رآه — هكذا عاش أنطونيوس ينفر من أخيه الإنسان ، ولا يثق بأحد من الناس ، وإنه لمن المستحيل على المؤرخ أن يجزم بالدوافع الحقيقية التى جعلته يسلك هذا المسلك الغريب . ألأنه كان يشك فى كل من رآه أم لأنه كان قد سئم الحياة وملّها ، أم لأن الصدمة التى لحقته بعد أن هوى من أوج عظمته أفقدته رشده وصوابه ،

وجعلته يتخذ هذا المسلك ؟ لقد عاش ليشهد عدوه اللدود يدخل أثينا دخول المنتصر الظافر ، ويستقبله الشعب الأثيني بأحسن مما استقبل به أنطونيوس من قبل — عاش ليشهد الملوك والأمراء ، بل والحكام والولاة ينفضون من حوله ، ويسارعون لتقديم فروض الولاء والطاعة لعدوه المنتصر ، وكلما اتجه بصره رأى عدوه تعقد له ألوية النصر ، ويستقبله الناس استقبال الفاتح المنتصر ، وكأنما العالم كله قد هجره لينضم لعدوه — تلك لاشك كانت بعض الخواطر والهواجس التي كانت تجيش بصدره ، وهو في وحـــدته وعزلته ، فما أشقاه وما أبأسه !!!

ولـكن بؤس أنطونيوس وشقاءه لم يحركاه لينشط لعدوه . لقد جردته هذه الصدمة من الرغبة في التفكير في مستقبله ، ولـكنها لم تؤثر في محبته لـكليوباترة ، إذ دلت الحوادث التي وقعت بعد ذلك على أن محبته لها وارتـكانه عليها لم تهن ولم تضعف — وفي هذه المرحلة وصل إلى الإسكندرية ملك فلسطين المسمى هيرود (Herod) يحمل في جعبته مشروعاً خطيراً ، لو نفذ لـكان فيه القضاء المبرم على كليوباترة ، إذ حاول هذا الملك إقناع أنطونيوس — بـكل ما كان يملك من المقدرة والمهارة والدهاء — أن في قتل الملـكة ضرورة ملجئة ، وأن التخلص منها بهذه الطريقة الماكرة هو الوسيلة الوحيدة لتمهيد الطريق في الصلح مع أكتافيوس ، ولـكن مساعي هيرود لم تنجح إذ أبى أنطونيوس أن ينصت له أو يفـكر في أي مشروع يرمي إلى مسها بسوء ، وكانت محبته لها هي الدافع الذي أوحى إليه اتخاذ هذا المسلك فجعله يصم آذانه ويعرض عن مشروع هيرود — تلك المحبة التي كانت تسري في عروقه ، والسلطة التي كانت لها عليه هما اللتان أنقذتاها من مخالب هيرود اليهودي الماكر . وهكذا أضاع أنطونيوس بمسلـكه هذا وعناده فرصة خلاصه ، ثم خسر هيرود نفسه ، فأخذ يعمل على تدبير خطة أخرى للانضمام لأكتافيوس ، بعد أن يئس من إقناع أنطونيوس بالأخذ برأيه . ولقد استعان بتقديم الهدايا الفاخرة ، وبما كان عليه من المهارة السياسية في إستمالة

أكتاڤيوس ، وجلب محبته له والعفو عنه ، ومن ذلك الوقت تفانى فى خدمة سيده الجديد ، ولم يأل جهداً فى العمل على إرضائه .

ولقد انفض من حول أنطونيوس سكان آسيا الصغرى كلها وقواته التى كانت فى سوريا وفلسطين وبرقة ، وكان يأمل أن يحشد كل هذه القوات فى مصر ليقاوم بها أكتاڤيوس المقاومة الأخيرة ، ولكنها حذت حذو جيشه فى إيبروس ، وخانت عهده عند أول فرصة سنحت ، وانضمت إلى أكتاڤيوس . ومما أتى ضغثاً على إبالة أن قدم على أنطونيوس كانيديوس كراسوس نفسه يحمل ذلك الخبر المشئوم ، وهو عصيان جيشه فى أكتيوم وانضمامه إلى أكتاڤيوس ، وبذلك ساعد القدر المحتوم على تحقيق ما جال بخاطر أنطونيوس إذ ذاك من أن يرتبط نهائياً بحكم الصلات إلى أقصى حد بكليوباترة ، فأصبحت قوته مقصورة على مصر ، ولا حليف له ولا ناصر من دونها — ولقد انقضى عام بأكمله بين موقعة أكتيوم ودخول أكتاڤيوس الإسكندرية ، قد أعمل فيه الفكر لتدبير شئونه قبل أن يتقدم خطوة ، ربما كانت ذاهبة بثمرات انتصاره فى أكتيوم ، فقد خشى أن يكون مغامراً فى التعجيل بقدومه إلى الإسكندرية ، فيجر على نفسه حرباً فيها كما حدث ليوليوس قيصر من قبل . وإن ذلك البطء والتريث فى الحركات المنطوى على تفكير عميق لهو السبب الذى جعل المعركة النهائية الفاصلة مقرونة بهذا الانتظار الرهيب الذى كان يسود جو الإسكندرية . وإن ذلك اليأس الذى استحوذ على عقول ذوى السلطة والقوة فى الإسكندرية لهو السبب فى ذلك الارتباك الكبير ، الذى كان من مظاهر تعدد نواحى التفكير ، ومنازع الآراء واضطرابها — ومع تعذر معرفة الدوافع الحقيقية التى كانت تحرك أنطونيوس بسبب قلة التفاصيل التى وصلت إلى أيدينا عن هذا العهد الأخير ، يمكننا أن نستنبط أن حالة أنطونيوس الكئيبة التى لازمته فى معزله فى مبنى «التيمونيوم» ، قد تبدلت إلى فرح وسرور . ولكن هذا التفكير لم يكن صادراً عن حبه الحياة ، أو تعلقه بزخرفها ، أو مظهراً من مظاهر حبه للملكة

والتفافه حولها ، بل قصد كل من أنطونيوس وكليوباترة أن يُلقيا فى روع أهل الإسكندرية أن ليس هناك خطر يهدد كيان مصر ، إذ كيف يكون من المعقول أن يشتغلا بتنظيم كل هذه الاحتفالات فى وقت يتوقعان فيه زحف الجيش الرومانى على البلاد ؟ ولقد تذرعا ببلوغ كل من قيصرون بن كليوباترة من قيصر ، وأنتيلّوس (Antyllus) بن أنطونيوس من فلفيا ، سن الرشد لإقامة هذه الاحتفالات المموهة الساترة للحقائق .

كليوباترة تضع خططاً جريئة

ولقد أسست كليو باترة جماعة سميت بالشركاء والإخوان فى الموت ، قد انضوى تحت لوائها كل من جمعهم اليأس من حياة عزيزة بسبب ظفر أكتافيوس وتوقع الفتك بهم ، وقد ارتبط أعضاؤها بأغلظ المواثيق والأيمان أن يعيشوا ويموتوا سوياً . ولما كان سلاح الموت مسلطاً فوق رقابهم ، وكان شبحه المخيف أمامهم أنَّى ذهبوا ، دفعهم هذا الشعور بالموت القريب إلى قضاء الوقت القصير الباقى من حياتهم فى الإستمتاع بالحياة أيما استمتاع . فتركوا العنان لملاذهم وشهواتهم ، ومضوا فى طغيانهم يعمهون . وإنه لمن المستحيل أن نكشف الآن عن حقيقة البواعث التى دفعتهم إلى إنشاء هذه الجماعة الإنتحارية ، أهى بواعث دينية أم أغراض عملية دفع إليها اليأس القاتل . وقد بنت كليو باترة داخل قصرها الملكى زيادة على معبد الإلهة إيزيس مقبرة لها ، تشبهاً بما كان يفعله الفراعنة الأقدمون الذين بنوا المصاطب والأهرام لتكون المقر والمثوى الأخير لأجسامهم . ولكن هذه المقبرة التى بنتها الملكة لم تهيها للموت فحسب ، بل جعلتها مستقراً لجميع كنوز البطالمة من ذهب وفضة ولآلىء ، وأحجار كريمة ، وعاج وآيات للفن وغير ذلك من الأشياء الثمينة التى اعتاد الفراعنة أن يدفنوها فى مقابرهم لتكون بجوار أجسامهم بعد موتهم . ولكن هذا الكنز العظيم كان مقدراً له أن يلعب دوراً كبيراً فى تطور الحوادث المستقبلة ، وذلك لأن كليو باترة كانت تعلم علم اليقين

أن أكتافيوس كان مشغوفاً بالاستيلاء عليه ليفك به أزمته ، ويسد به حاجته. ولكيلا تمكنه من الحصول عليه جمعت المشاعل والمواد القابلة للالتهاب بالمقبرة ، حتى تستطيع أن تشعل النيران فى هذا الكنز الثمين قبل أن يصعد نَفَسُها الأخير .

وقيل إن الملكة أخذت فى هذا الوقت تجمع المعلومات التفصيلية عن المواد السامة وأثر كل منها ، وكانت تقوم بهذه التجارب على أجسام المجرمين لكى تقف على خواص كل منها وأثره ، ومقدار الآلام التى يشعر بها من تخالجه حشرجة الموت بسببه ، وكانت ترمى من وراء ذلك إلى معرفة أى هذه المواد بطىء الأثر ، وأيها سريعه ومقدار الألم الذى يصحب كل واحدة منها. ولم تتردد فى إزهاق أرواح الناس كيما تصل إلى طريقة سهلة للتخلص من حياتها . وكانت هذه المحاولة خليقة بأن تصدر عن ملكة امتازت بعقل نشيط ، وذكاء حاذق لا يقف بصاحبته عند حدٍ ، أطمعها فى العظمة والسلطان فى الحياة ، ثم زيَّن لها التغلب على الموت قبل الممات بعد أن حمّ القضاء وصار الفشل قاب قوسين أو أدنى . وفى تجاربها التى أجرتها على الإنسان والحيوان، قيل إنها توصلت إلى أن السم السريع العمل يتسبب عنه أشد الآلام والأوجاع ، بينما السموم ذات العمل البطىء ، يصحبها ألم وضعف . ثم توسعت فى دراسة أنواع السموم وخاصة أثر سم الحية . ويروى أنها وصلت إلى النتيجة الآتية وهى أن لدغة الثعبان لا يصحبها ألم أو انفعال ، بل يتبعها نوع من التصلب فى العضلات ، ثم يعقب ذلك اضمحلال سريع فى الجسم ، وارتخاء تام فى العضلات يصحبه الموت .

وفى وسط هذه الاستعدادات لملاقاة الموت ، وخلال ذلك الجو الحالك الظلمة الذى كان ينذر بقرب النهاية ، ويملأ أرجاء السراى الملكية ، تبدو لنا محاولة أنطونيوس الدفاع عن البلاد فى « بارايتونيوم » على الحدود الغربية لمصر ، ولكن محاولة أنطونيوس هذه لن تغنى عن الواقع فتيلا . وهى على العكس من ذلك ستعجل بالقضاء النهائى على أمله الأخير . وبذلك تتبدد

ثقته فى نفسه وفى رجاله ، ويخر صريعاً جزاء ما قدمت يداه . وكان بريق الأمل والثقة فى النفس التى تجددت عنده باعثاً له على الظن بأن النصر سيكون لا شك حليفه بفضل شجاعة بعض أتباعه المخلصين ، وبتأثير نفوذه الشخصى الذى كان له عليهم ، وهذا جعله يعتقد بأنه بمجرد ظهوره أمام جند الأعداء، وَجُلّهم حاربوا من قبل تحت لوائه ، وأخلصوا فى الماضى له ، سوف يهرعون إليه مسرعين ، ويقدمون له ولاءهم وإخلاصهم ، فيحاربون فى صفه كما فعلوا من قبل فى الحرب الأهلية فى إيطاليا . ولكن الحوادث برهنت على أنه كان خاطئاً فى مزاعمه هذه ، فما أن ظهر أمام ميناء « بارايتونيوم » التى كان قد استولى عليها جند العدو ، وأصبح يهدد حدود مصر الغربية حتى تحقق أن الزمان قد تغير . وأن سحره وبيانه وشخصيته التى أتت بالأعاجيب فى سابق الزمان ، لم تعد ذات أثر فى نفوس الجند ، فإنه لما وصل إلى حوائط حصن « بارايتونيوم » وطلب إلى حامية ذلك الحصن أن تعود إلى حظيرة قائدهم السابق أمر جالـّوس الذى كان متولياً القيادة على الجيش فى هذه المنطقة ، أن ينفخ فى الأبواق حتى لا يسمع الجند صوت أنطونيوس ، وهكذا ضاع أمل أنطونيوس الأخير وألحقت به جند العدو خسائر فادحة لم يقو على احتمالها ، وصد هجماتها ، وعجز أسطوله أن يستولى على ميناء «بارايتونيوم»، فأتى تحطيم أسطوله وإحراق بعض سفنه ، وإغراق البعض الآخر فى الميناء ضغثاً على إبالة ، ولاذ من هذه الهزيمة المزدوجة بالفرار إلى الإسكندرية حيث بقى ينتظر وصول الجيوش الرومانية المنتصرة ، وهى تزحف وتتدفق إلى مصر من الشرق ، وقد دانت لها كل البلاد ، وكتب لها النصر أنَّى ذهبت . وكان حضور الأعداء سبباً فى استيلاء اليأس التام على أنطونيوس وكليوباترة ، وكان هذا اليأس يدفعهما للتفكير أحياناً فى خطط جنونية ، وكان آخر الأمر سبباً فى تفكك تلك الرابطة المقدسة التى كانت بينهما ، والتى كانت السبب فى كل هذه الكوارث والفواجع التى صبت فوق رأسيهما . وكانت كليوباترة هى البادئة فى العمل على فك هذه الرابطة الزوجية ، والتحرر من هذه

العقدة ، كما كانت فى الماضى هى العامل الأكبر فى تقوية هذه العلاقة ، وتنميتها إلى أقصى حدٍ . بدأت العلاقة بينهما إذاً تدخل فى دور حاسم ، حتى قطع الموت العقدة بحد السيف . وكانت أمام كليوباترة فى هذه المرحلة مسألتان دقيقتان إلى أقصى حدٍ ، وهما كيف تستطيع أن تتقرب من أكتافيوس وتسوى خلافها معه حتى تحافظ على عرشها ، ثم ما هو الدور الذى يمكن لأنطونيوس أن يمثله فى هذا الموقف الجديد .

وللمرة الرابعة منذ زيارة سكستس بمپى للإسكندرية عام ٤٨ ق . م . قبل موقعة فارساليا التى تقرر فيها مصير النزاع بين يوليوس قيصر وما جنوس بمپى ، كان مستقبل كليوباترة ومصيرها كملكة لمصر يتوقفان على مقدم قائد رومانى إلى مدينة الإسكندرية . ولكن الرومانى فى هذه المرة كان هو أكتافيوس ، ولقد كانت تعلم تمام العلم أن الظروف فى هذه المرة كانت مغايرة تماماً لسابقاتها ،وأن موقفها إذ ذاك كان مغايراً لموقفها بالأمس ، وأن القرائن لا تبشر بالتوفيق . وأنّى لها أن تطمع الآن فى الصلح مع أكتافيوس وهو الرومانى الذى لم تدخر وسعاً ولم تأل جهداً فى تحريك قوى السماء والأرض للعمل على هدمه وفنائه ، ولكنها الأمانى الخادعة أحيت فى نفسها بعض الرجاء فى المستقبل . تلك كانت مهزلة القدر ، وكم له من مهازل — كليوباترة التى ارتكبت فى نظر روما أعظم الجرائم وأفظعها ، واقتطعت من الدولة الرومانية أملاكها ، وسلبت أثمن دررها تحاول فى ذلك الوقت الصلح مع روما المنتصرة ، صاحبة الحول والطول وسيدة العالم ، ثم تطمع أكثر من ذلك فى كسب ولاء أكتافيوس الذى أعلن الحرب عليها بنفسه ، والذى لم ينس لها أنها سلبت أخته زوجها ، وأنه بتحريضها ورغبتها طردت أخته « أكتافيا » من بيت زوجها أنطونيوس على ضفاف التيبر — تلك كانت سخرية القدر ، أطمعت كليوباترة فى النصر إلى النهاية . تقدم إليها أكتافيوس ، والحقد عليها يأكل قلبه ، والكراهية لها تجيش بصدره ، يضمر لها كل سوء ويطمع فى التنكيل والبطش بها لأنها

العدو اللدود ، ولكن كليوباترة مع ما قدمته من إساءات له ولاخته كانت تعلل النفس ببريق الأمل فى حلمه وعطفه وعفوه عنها .

والآن نعود إلى أنطونيوس لنرى كيف تأزمت حالته ، وتحرج موقفه ، وأصبح وجوده حجر عثرة فى سبيل كليوباترة ، التى رأت أنه لا يجب أن تتأخر عن تقديمه قربانا تضحيه فى سبيل طمعها فى الاتفاق مع أكتاڤيوس، وكان القدر يسخر الأمور ضده، فلم تجد مفراً من أن تهمله، ولا تحسب له حساباً كما عاملها من قبل عندما تزوج من « أكتاڤيا » وأهمل شأنها ، ولكن بينما كان يرفض اقتراح هيرود أن ينجى نفسه بتضحيتها وقتلها لم تتردد عن أن تضحى به . ولم تظهر له ما أضمرت ، وعلى ذلك صممت على التخلص منه مع أنها اضطرت أن تعيش معه ، وأن تدافع بالاشتراك معه ، وأن تجرى بينهما وبين أكتاڤيوس سلسلة طويلة من المفاوضات الديبلوماسية عن طريق الرسل ، وكان غرضها الأساسى إذ ذاك أن تلبس للحالة الجديدة لبوسها ، فتتخذ عدواً من صديقها الحالى ، وصديقاً من عدوها بالأمس ، وتتقمص هذا الشكل الجديد كيما تنقذ الموقف . وكان هذا الدور الذى لعبته آخر وأصعب دور مثلته على مسرح الحياة ، ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً فى القيام بالشق الثانى ، فلما أظلمت الدنيا فى وجهها امتدت يدها إلى جسمها ، وتخلصت من حياتها كما سنرى فيما بعد .

وفى هذه المرحلة بدأت مفاوضات ديبلوماسية ذات شأن عظيم ، وخطر كبير عقب عودة أكتاڤيوس من إيطاليا فى نهاية فبراير عام ٣٠ ق.م، وكانت هذه المفاوضات فى الظاهر بين فريقين ، المنتصر الظافر والمهزوم المقهور ، ولكنها فى الحقيقة كانت بين ثلاثة : أكتاڤيوس ، وأنطونيوس ، وكليوباترة ، وكان لكل من هؤلاء الثلاثة خطط ظاهرية وأخرى سرية ، وكانت تتجاذب الثلاثة عوامل خفية ، وتؤثر من وراء ستار فى الموقف من حب مدعى ورغبة غير حقيقية فى الموت ، وأخيراً عزم

مصطنع على الحياة . ولقد أظهر أكتاڤيوس خلال تلك المفاوضات صلابة مشوبة بصراحة لا تعرف الإلتواء والتردد فى أمر واحد وذلك هو إصراره على حرمان أنطونيوس من كل وسيلة للنجاة بنفسه وحياته . وكانت ردوده لأنطونيوس كصمته العميق تظهر تصميمه على طلباته التى كانت تتلخص فى تلك العبارة المختصرة ، التى تلخص الموقف أحسن تلخيص « إن موتك أمر محتوم » إذ قد هداه عقله إلى أن ذلك المنافس الذى استخدم جند الرومان فى الدفاع عن ملكة مصر والذى حاول أن يقضى على روما من أجل أن يؤسس بدلها إمبراطورية شرقية يونانية ، مركزها الإسكندرية ، لا بُدّ أن يلقى حتفه أولاً ، وبعد أن يتوارى عن الميدان يمكن أن يُعاد تأسيس الإمبراطورية الرومانية من جديد . ويكفى للتدليل على خضوع أنطونيوس وكليوباترة التام لأكتاڤيوس أنهما كانا الباديين بفتح باب هذه المفاوضات ، فرجا أنطونيوس ، وألحف فى الرجاء أن يسمح له أكتاڤيوس أن يعيش كآحاد الناس فى أثينا إذا لم يرغب أكتاڤيوس فى بقائه فى مصر ، بينما طلبت كليوباترة أن تحتفظ بعرش مصر لأبنائها . ولقد أجزلا العطايا والهبات القاخرة لأكتاڤيوس علّه تأخذه الشفقة عليهما فيجيبهما إلى طلباتهما ؛ وزيادة على هاتين الرسالتين الرسميتين اللتين أرسلهما كل من أنطونيوس وكليوباترة معاً ، قد انفردت كليوباترة بإرسال رسالة سرية لأكتاڤيوس معها شارات الملك كعلامة لخضوعها ، راجية أن يُعيدها إليها ثانية أو يمنحها لأبنائها ، وبذا أفهمته أنها على أتم استعداد لتضحية أنطونيوس . وفى الحال دخل معها أكتاڤيوس فى مفاوضات سرية . ولقد كان للرسائل التى وصلته من الإسكندرية تأثير تجاوب صداه فى ثلاثة أشكال : ففى أول الأمر أجاب على طلب أنطونيوس بالصمت والإعراض التامين ، متجاهلا وجوده ، ومفترضاً موته ، ثم كتب إلى كليوباترة رسمياً يطلب إليها أن تكف عن الحرب فى الحال ، وأن تسلم مقاليد الحكم ، ومتى فعلت ذلك يمكن حينئذ البحث فى مآلها وتقرير مصيرها .

وفى هذا الجواب نرى بريق أمل لكليوباترة إذا قرن بمعاملته لأنطونيوس ، ولقد أردف هذا برسالة سرية رداً على رسالتها السرية ، يَعِد فيها الملكة بالإبقاء عليها وعلى عرشها على شريطة أن يُعدم أنطونيوس أو ينفى من مصر. ولكن الردين اللذين وصلا كليوباترة لم يشفيا غليلها ، كما أن أنطونيوس لم يقنع بصمت أكتافيوس وإهماله شأنه ، فعوّل الإثنان على أن يعيدا الكرة ، علّهما يفوزان هذه المرة بأكثر مما فازا به فى المرة السابقة ، فلجأ أنطونيوس إلى حيلة جريئة إذ قدم لأكتافيوس آخر قتلة قيصر واسمه بوبليوس توريليوس (Publius Turullius) كيما يثأر أكتافيوس منه لقتل أبيه ، ولقد أقدم على هذا مع أن توريليوس هذا كان يعيش إلى هذه اللحظة صديقاً لأنطونيوس فى الإسكندرية . ولقد ظن أنطونيوس أنه من المناسب ، بل من الضرورى أن يصارح أكتافيوس بشأن علاقته بكليوباترة ، ومحبته لها ، فكتب إليه شارحاً حقيقة الحال وملتمساً لنفسه العذر بأنه وكليوباترة كلاهما قد شغف حباً بصاحبه حتى صارت بينهما عاطفة أبدية متبادلة لا يمكن انتزاعها إلا بنزع الروحين . ولكى يبرهن لأكتافيوس على مقدار إخلاصه وتضحيته للملكة أكد له أنه على أتم استعداد لأن يموت إذا كان فى موته هذا خلاص للملكة . ولكن كل الدلائل تدل على أنه لم يكن خالص النية فى استعداده للتضحية ، وأنه لم يكن يقصد ما يقول فعلاً ؛ لأنه دافع عن حياته بشدة وضنّ بها إلى النهاية . ومهما تكن دوافعه ونواياه فإن الجواب الذى لقيه من أكتافيوس على رسالته كان الصمت التام ، وقَتْل صديقه الذى أرسله مصفداً فى الأغلال . أما وعود أكتافيوس لكليوباترة فى هذه المرة ، فلم تزد عما قاله من قبل ، وكانت رسالته لها تجمع بين الترغيب والتهديد ، والوعد والوعيد ، ومع ذلك فلم يلق هـــذا الإهمال فى قلب أنطونيوس يأساً ، ولم تثبط عزيمته بإعراض أكتافيوس عنه فبدأ يلعب على الوتر الحساس ، ويستعطفه عَلّ قلبه يرق بإرسال ابنه أنتيلّيوس (Antyllus) إليه وكانت قد خطبت له فى عام ٣٧ ق . م . يوليا (Julia) ابنة أكتافيوس ثم أرسل معه مقداراً كبيراً من المال ، وظن أن ابنه وهـــذا المال

الكثير سيشفعان عند أكتافيوس ، ويكونان سبب خلاصه . وفى الوقت نفسه أرسلت كليوباترة لأكتافيوس تبلغه أنها إذا ضيق عليها الخناق لن تجد مناصاً من الانتحار ، وتخريب كل ما تملك من نفائس وكنوز . ولقد كان أكتافيوس شديد الرغبة فى المحافظة على حياة كليوباترة بقدر حرصه على قتل صاحبه ، والتخلص من منافسه بأى ثمن . وعلى ذلك لم يغير موقفه بالنسبة لأنطونيوس ، فقبل المال ورد الرسل بدون جواب . أما تهديد كليوباترة فلقد كان سبباً فى إزعاجه ، لأنه كان يريد أن يملأ بكنوزها ونفائسها خزائن الدولة الخالية، وأن يدفع منها مرتبات جنده ويُجزل لهم العطاء والهبات ،فى حين كان يريد أن يحتفظ بها نفسها ليعرضها فى احتفالاته بالنصر عند عودته إلى روما ، فتكون بشخصها أكبر رمز محسوس على ما كسبه من نصر، وأبدع آية لانتصاره . ومن أجل ذلك كان الإحتفاظ بحياتها لتحقيق هذه الغاية ، والاستيلاء على كنوزها ونفائسها ، والقضاء على أنطونيوس والتخلص منه بأى ثمن ، شغل أكتافيوس الشاغل ، والمحور الذى تدور عليه سياسته فى هذا الدور الأخير من النزاع .

ولكى يمنع كليوباترة من أن تتسرع بارتكاب ذلك الأمر الخطير ، ولكى يكسب ثقتها ، وعدها فى شىء من الغموض والإبهام أنه فى حالة وفاة أنطونيوس سوف يسمح لها بالاحتفاظ بعرشها . ثم أرسل لها أحد رجاله المخلصين ، وأمره أن يحادث الملكة بكياسة ولباقة ، وأن يؤكد لها بأن أكتافيوس قد أحبها ، ووقع فى شرك غرامها ، وأصبح من عشاقها . وقد أمّل أكتافيوس بذلك أن يطمعها فيه ، ويحيي الرجاء فى قلبها بأنها ستستولى على مشاعره ، كما استولت على أبيه قيصر وزميله أنطونيوس من قبل ،فتحجم عن الإقدام على الموت منتحرة ، وإتلاف جميع نفائسها فيتم له كل ما يريد ويبغى فى التنكيل بها. أما عن غرام أكتافيوس بها ، فلم يكن أمراً يستحيل عليها تصديقه ، فأحواله الغرامية كان يجرى ذكرها على الألسنة وتفيض بها المجالس مما جعل الملكة على استعداد لأن تصدق ماجاء فى رسالته ، وفوق ذلك

فإنها كانت تعتمد على مقدرتها فى الإغراء والاستهواء ، وتثق فى قدرتها على تنمية هذه الرغبة فى أكتاڤيوس ، حتى تجعله يهيم بها ويصير من عبادها كما فعل أب له من قبل. وكانت فى ذلك الوقت تبلغ التاسعة والثلاثين من عمرها، ولكنها كانت على جانب عظيم من الجاذبية والذكاء مع تقدم سنها . ولقد سُرّت ، وأيقنت أنها وجدت مخرجاً من مأزقها ، فأكرمت مثوى رسول أكتاڤيوس،وكان هذا التكريم لرسول أتى من قِبَل عدوهما أكتاڤيوس مثيراً للشك فى نفس أنطونيوس ، ولكن لم يكن فى مقدوره أن يفعل شيئاً وخصوصاً أن أكتاڤيوس كان قد تقدم بجيشه من سوريا حتى وصل إلى الفرما (بيلوزيوم) على مصب الفرع الشرقى للنيل . وكانت حامية المدينة تحت قيادة سيلوكوس (Seleucus) قد أبدت مقاومة ضعيفة للأعداء . وقيل إنها سلّمت بناءً على أوامر خفية من كليوباترة نفسها ، وأدى وقوع المدينة فى يد العدو إلى انتشار الإشاعات بأن قائد الحامية بالمدينة قد خان بلاده ، وسلّمها للعدو بناءً على تعليمات من كليوباترة . وأخذت الإشاعات عن خيانتها تذاع ، ويرجف بها الناس . وإن مسلك كليوباترة هذا — إن صحت الإشاعة التى نُسبت إليها الخيانة — ليتفق مع سياستها التى رسمتها لنفسها فى هذه المرحلة الأخيرة ، التى كانت تنطوى على عدم تحقيق مطامعها بالقوة ، بل كانت معتمدة الاعتماد كله على عطف أكتاڤيوس ورحمته ، وعلى مقدار نفوذها الشخصى ، ولم يكن يمنعها من إلقاء السلاح بين يدى خصمها ، والجنوح إلى التسليم المطلق سوى خوفها من أنطونيوس الذى كان لا يزال قابضاً على ناصية الأمور ، يأتمر الجيش كله بأمره . وكان الاستيلاء على الفرما ذا أهمية حربية عظيمة ؛ لأنه جعل الطريق مفتوحة إلى الإسكندرية من الشرق . ولقد جاءت الإشاعات إلى الإسكندرية تترى عن خيانة كليوباترة . وقال المؤرخ ديو بأنه لما كان أكتاڤيوس يتقدم نحو الإسكندرية ، نهت كليوباترة رعاياها سراً عن أية مقاومة له . ولقد روّج الرومان الموالون لأنطونيوس هذه الإشاعات ، ليوقعوا فى روعه صدقها ؛ ولكن الملكة حاولت إدحاض هذه التهم بالإلحاح،

على أنطونيوس فى أن يعاقب مَنْ كان سبب هذه الهزيمة ، وهو حاكم الفرما بقتل أسرته التى كانت بالإسكندرية ، حتى تزيل كل تهمة من شأنها أن توحى بأنها كانت على اتفاق معه على الفشل والتخاذل ، والتمكين للأعداء . وهكذا حاولت إسكات صوت الرومان دون أن تقدم برهاناً قطعياً على براءتها . ولكى تكسب أكتافيوس إلى جانبها كان لا بد لها من أن تستعين على تنفيذ مآربها بالكتمان الشديد ، خشية أن يعلم أنطونيوس فتستهدف لعدوانه ، وتعرض نفسها لخطر الموت ، ولكنها كانت تعلم أنها إن لم تفعل ذلك فلا أمل لها فى رحمة القوى الظافر . وكانت أغراضها ونواياها الحقيقية معروفة فى الفرما ، وإن كانت فى الإسكندرية تمثل دوراً روائياً مسرحياً . وفى كلتا المدينتين كانت تحاول إنقاذ حياتها ، وتسوية مركزها بقدر ما كانت تسمح به ظروفها السيئة . وبينما كانت حليفة لأكتافيوس سراً ، كانت فى الوقت نفسه لا تزال تقيم مع أنطونيوس فى أحد القصور الملكية بالإسكندرية . ولقد اضطرتها ظروفها الصعبة والمواقف الحرجة التى وقفتها أن تستحث الجند على القتال ، بينما كانت فى الوقت نفسه تتخذ التدابير لكى تمنعهم من أن يستميتوا فيه ، وكانت تقضى أوقاتها من الصباح إلى المساء تقدح زناد فكرها متلمسة طريقاً لإيجاد مخرج لنفسها ، فأثبتت بذلك شدة بأسها وعزمها الحديدى وحدة ذهنها . ولقد ظنت أنها توصلت إلى نتيجة يحسن السكوت عليها ، وهى أن أصبحت حليفة أكتافيوس، ولكنها لم تكن تشك فى أن تلك المحالفة كانت مؤسسة على الخداع والمكر ، وأن القدر يخبىء لها شراً مستطيراً ، وأن أكتافيوس يخفى لها فى جعبته ذلاً ومهانة ليس بعدهما من مزيد .

بيد أن المقادير كانت تعاكس مشروعاتها من ناحية أخرى ، وذلك لأن أنطونيوس كان قد بدأ يتجدد نشاطه ، ووضع لنفسه خطة عملية هى على النقيض من الخطة التى ترسمتها لنفسها ، فصمم على امتشاق الحسام مرة أخرى ، علّه يصل بحد السيف إلى ما لم يستطع الوصول إليه بالمفاوضات واللين ، وكان قد تأكد أن عدوه لن يرحمه ، وأن خلاصه لن يكون بغير الدفاع عن نفسه

بشجاعة المستميت . ولما علم بوصول أكتافيوس إلى كانوپوس (أبى قير)، قاد فرسانه وقابل خيَّالة أكتافيوس فدحرهم ، وكان هذا النصر آخر انتصار أحرزه ،وبريق أمل بعث فيه النشوة والسرور والاختيال والإعجاب ، وجعله يزهى به ويتكبر ؛ ولكنه كان لا يزال حتى ذلك الوقت يشعر أن الظفر كل الظفر فى ابتسام كليوباترة له ورضائها عنه ؛ ولذلك سارع من ساحة القتال إلى القصر الملكى فى الإسكندرية ، وارتمى بنفسه بين أحضان كليوباترة وكله محبة وفرح وسرور . وشجعه النصر الذى أحرزه على التفكير فى خطط ومشروعات جديدة ، فأمر رماة السهام أن يصوبوا سهاماً إلى معسكر أكتافيوس يحمل كل منها وعداً بأن كل جندى يسلم نفسه إلى أنطونيوس يكون جزاؤه ألفا وخمسمائة دينار . ولقد أفسد أكتافيوس عليه تدبيره هذا ، بأن حمل بنفسه إلى جنده ، وعدد أنطونيوس ، وبَيَّن لهم أن فى هذا العمل برهاناً حسياً على حرج مركزه ، وتأزم حالته ، ووعدهم خيراً أكثر ، وعطاءً أجزل متى تم لهم فتح الإسكندرية . ولما وجد أنطونيوس أن حيلته لم تنفع أراد أن يقوى مركزه فى أعين جنده ، فطلب إلى أكتافيوس أن ينازله القتال وحده فأجابه أن سبل الموت مفتحة بين أيديه، وأن له أن يختار من بينها غير المبارزة طريقاً ، ثم ختم رسالته بقوله إن طريقا واحدة يتعذر عليه سلوكها ، إذ قد أحكم سد مسالكها وهى الطريق إلى الحياة — وإن هذا الحوار الأخير بين القائدين لهو ختام لسلسلة الاتهامات التى كان يكيلها كل منهما للآخر ، فى رسائله وخطبه ، وكان كل منهما يعرف أن الغلبة للأقوى ، وأن الموت المؤكد للمهزوم المدحور ، ولكن أنطونيوس كان لايزال متعلقاً بأهداب الحياة فأخذ يستعد للموقعة الفاصلة التى لم يطل فيها أمد القتال ، وذلك لأن جند أنطونيوس هجروا جانبه ، إما يأساً من أن ينالوا نصراً وهم فى جانبه، وإما تنفيذاً لأوامر كليوباترة السرية بعدم القتال وإلقاء السلاح ، ولذلك فرت الجموع الغفيرة من المشاة والفرسان إلى صف أكتافيوس ، ولم يبق لأنطونيوس سوى الأسطول الذى أخذ يتأهب به كيما يلقى آخر سهم فى جعبته،

ولكن كليوباترة سلبته هذه الفرصة الأخيرة فأفسدت عليه بحارة الأسطول، وأغرتهم بالانضمام إلى جانب أكتاڤيوس. ولابد أن ذلك الدور الذى لعبته الملكة فى خيانة الجيش كان سراً قد هتك حجابه ، وفشا أمره ، وذاع بين الجموع خبره ، فتسرب الشك إلى نفس أنطونيوس ، غير أنه أغمض عينيه عن الحقيقة ، واستولت عليه عواطفه واندفع وراء أهوائه . وهنا نترك خيال القارىء يتصور تلك اللحظة الرهيبة التى تمثلت فيها الحقيقة المؤلمة سافرة أمام عينيه ، والتى أدرك فيها تماماً أنه لم يعد فى استطاعته أن يقاوم ، وأن القضاء المحتوم قد حان أوانه . فانسحب إلى أحد القصور الملكية حيث انزوى وحيداً منبوذاً من جنده وأحبائه ، لا حول له ولا طول ، ينتظر تلك الساعة التى يدخل فيها منافسه الإسكندرية فاتحاً مظفراً .

انتحار أنطونيوس

كان أنطونيوس يبلغ من العمر إذ ذاك ثلاثة وخمسين عاماً ، لم يخالجه أدنى شك فى أن قضاءه المحتوم قد حان ، ولم يبق بينه وبين أكتاڤيوس حائل سوى مدينة غير حصينة ، وقد اكتظت شوارعها بأناس من جميع الأجناس ، فمنهم المصريون واليهود واليونان ، وجاليات من الأسيويين والإفريقيين ، وكلهم ترتعد فرائصهم من هول الحكم الرومانى المرتقب . ولكن أنطونيوس حتى فى تلك اللحظة الرهيبة كان لا يفكر فى غير كليوباترة ، ولا يزال محافظاً على العهد القديم ، ناسيا نفسه ، باقيا على حبها ، فأخذ يندب حظها المنكود . على أن الملكة التى كانت موضع كل ذلك الإخلاص والمحبة لم تكن تفكر فيه أو تقيم له وزنا فى وضع خططها ، بل كانت ترى أن الفرصة قد حانت وتتطلب منها الإسراع فى العمل على قتل أنطونيوس كيما تحصل ، ثمناً لذلك ، على رضاء أكتاڤيوس ، فلجأت إلى الحب الذى يكنه لها ، تستخدم منه سلاحاً قاتلا يأتى على أنطونيوس .

ولكى تنفذ خطتها التى رسمتها لجأت إلى قبر ابتنته على شكل معبد هو «الماوسُليوم» (Mausoleum) وأخبأت فيه كنوزها ونفائسها ، واتخذته موئلها الأخير تعتصم به ضد هجمات العدو ولو إلى حين قصير ، وفيه تستطيع أن تتخلص من حياتها متى أدركت وأيقنت بفشل كل الوسائل لنجاتها . ويؤخـــذ مما كتبه المؤرخ بلوتارخوس أنها خشيت غضب أنطونيوس ، وبعثت إليه من هناك مَنْ يقول له إنها فرت إلى قبرها « وإنها انتحرت لكى تنجو من إنتقام أكتافيوس » . وكانت واثقة أن أنطونيوس الذى لم يكن ليستطيع ، وهو فى أوج عظمته وفى أسعد أوقات حياته أن يعيش بدونها ، سيصعق عند سماع خبر انتحارها ، فيذهب صوابه ، ويكون خبر موتها الضربة القاصمة ، وبذلك يموت وتطوى صحيفته . وبموته يبعث الأمل فى نجاتها ــ هكذا فعلت كليوباترة فقرت إلى قبرها ، ولم تصطحب معها سوى وصيفتيها الأمينتين إيريس (Eiris) وخارميان (Charmian) وخصيها الذى كان يلازمها ، ثم أحكمت وراءها باب القبر الذى تحصنت فيه . ولقد تحقق ظنها ، إذ كان خبر انتحارها المزعوم كالسهم أصاب فؤاده أو كالصاعقة أذهبت لبه ورشاده ؛ ولم يتركه الخبر المشئوم إلا مشدوها جريحاً كليماً ، فلقد وضح له الطريق التى يحق لمثله أن يسلكها فى مثل هذه الأحوال .

وكان شبح الموت منذ موقعة أكتيوم يتمثل له ، وفكرة الإنتحار تجيش بصدره وتداعبه بين حين وآخر ، ولكن كان يعوزه العزم والإقدام . بيد أن خبر موت حبيبته قوّى عزمه على الموت واقتفاء أثرها والحذو حذوها فأمر أحد خدمه وعبيده المسمى إيروس (Eros) أن يطعنه بخنجره فعز على الخادم الأمين أن يهوى بخنجره على صدر سيده ، وهوى به على صدره فخر صريعاً ، ضارباً بذلك مثلا أعلى فى الشجاعة والوفاء والإخلاص ؛ وكان منظره حافزاً لأنطونيوس فامتدت يده إلى خنجره ، وهوى به على نفسه فخر صريعاً على الأرض ، ولكن الضربة لم تكن قاضية لساعتها ، والجرح

لم يكن بليغاً إلى درجة الموت العاجل ، فأخذ يتقلب ويضرج فى دمه متوجعاً متوسلا إلى مَنْ حوله أن يجهزوا عليه ويخلصوه من عذابه ، وعندئذ بلغ مسمع كليوباترة خبر إنتحار أنطونيوس ، ولكن سرعان ما ذاع الخبر بأنه لا يزال على قيد الحياة ، وكانت رغبته الأخيرة أن يرى كليوباترة ، ولقد تحققت تلك الرغبة إذ جاءه ديوميديس (Diomedes) كاتم سر الملكة ، وأخبره بأن الملكة تود أن تراه ، ولقد مَدَّ القدر فى حياته حتى حمل إليها فى مقبرتها وهو مدرج بدمائه . وهنا قد يعجب الإنسان لماذا حققت الملكة رغبة أنطونيوس الأخيرة ، فسمحت بحمله إليها وهى السبب فى انتحاره والمدبرة له . وقد يصح القول فى الجواب عن ذلك بأنها رغبت الاستحواذ على جثته ، حتى لا يدعى أحد لنفسه شرف قتله . أما ما حدث بينهما داخل تلك المقبرة فلم يتسرب إلى الخارج منه إلا ما رغبت كليوباترة وخادمتاها فى أن يذعنه . وقد وصف المؤرخ پلوتارخوس وداع العاشقين وصفاً مؤثراً ، إذ ناجته بقولها إنه سيدها وزوجها . وهو الآخر ظل يواسيها طول ما بقى بين ذراعيها وأخذ يحثها على ائتمان بروكُليوس (Proculeius) فقط وهو من أتباع أكتاڤيوس عنـــدما تبدأ مفاوضاتها معه ، وقد جاء فى پلوتارخوس أنه طلب منها وهو يلفظ النَّفَس الأخير ألا تذهب نفسها حسرات على مصيره ونهايته ، بل يجب أن تذكر الماضى من سعادته ، وأنه كان سعيداً حتى فى ختامه المحتوم ، إذ لم يهزمه وهو الرومانى الشريف إلا رومانى شريف مثله . وإنه لمن العسير أن نصدق ما يقوله البعض من أن اليأس قد بلغ منها مبلغاً عظيماً جعلها تمزق صدرها حزناً وكمداً ، وأن أنطونيوس ناداها بأحب الأسماء قبل أن يموت ، وأنه أعلن لها أنه سعيد لموته بين ذراعيها . وقد يقال إن مثل هذه العواطف فى موقف كهذا بعيدة الاحتمال ، وإنه ليس من الطبيعى صدورها فى مثل هذه الظروف ، ولكن لا يمكن الجزم بما جرى بينهما ساعة اللقاء ، وعندما حان حينهما للافتراق الأبدى . وإن أقصى ما يمكننا أن نصدقه أنه لقى الموت بين أذرع كليوباترة حيث تَنَعَّم وشرب كأس ملاذه حتى الثمالة .

وكان موته حادثاً خطيراً قام له الناس وقعدوا فى جميع أرجاء الدولة الرومانية ، ولكن العالم تنفس الصعداء لموت ذلك الرجل الذى خضّب أرض الشرق والغرب بدماء الأبرياء من أجل طموحه ومطامعه السياسية ، ثم رغباته وشهواته ، ولقد أسرع أحد حراس أنطونيوس حاملا ذلك النبأ العظيم إلى أكتاڤيوس فى معسكره ومعه سيف أنطونيوس المخضب بالدماء ليشهده على صدق نبئه . وما كاد أنطونيوس يلفظ النفس الأخير حتى أرسلت كليوباترة رسولا من قِبَلها إلى أكتاڤيوس ليزف إليه هذه البشرى ، وبوصول ذلك الرسول من الملكة تأكد لدى أكتاڤيوس موت ذلك القائد العظيم ، ولكنه بدل أن يتلقى الخبر بالسرور والفرح تلقاه بالحزن والكآبة ، إذ تصور زميله القديم فى الجهاد وقائد روما المظفر فى ماضى حياته قد صار جثة هامدة ، فعكف فى خبائه يبكيه ، ولم يمنع تنازع المطامع بينهما وتضارب مشاربهما من أن يسح الدمع عليه مدراراً . وقد تذكر أكتاڤيوس تلك الدموع التى ذرفها أبوه يوليوس قيصر من قبل ، وفى أرض مصر بالذات منذ ثمانية عشر عاماً عندما جاءه النعى بموت پمپى ، ورآه مجندلا على شاطىء الفرما ، فلم يشأ أكتاڤيوس أن يكون أقل من أبيه وفاءً وإحساساً فى موقف يشبه موقفه ، إذ أن موت أنطونيوس كموت پمپى كان نتيجة تدبير أيدٍ مصرية ، فالأول من صنع كليوباترة ، والثانى كان نتيجة تدبير بطليوس ، أخيها وزوجها الأول . وكلاهما لم يَنَل الثواب المنتظر جزاء ما قدمت يداه .

وبعد أن بكى أنطونيوسَ ، بدأ أكتاڤيوس يشعر بضرورة كسب الرأى العام إلى جانبه . وفى وسط هذا الجو المضطرب وتحت أرعاد آلات الحرب والقتال ، وبينما كانت الإسكندرية والملكة ومَنْ حولها يهلعون من هول ما ستتمخض عنه الظروف ، وترتعد فرائصهم من شدة خوفهم من بطش ذلك القوى القاهر ، كان لدى أكتاڤيوس متسع من الوقت

يجمع فيه أصدقاءه والمقربين منه ليثبت لهم بما دار بينه وبين أنطونيوس من الرسائل أنه كان على أتم استعداد لحسن التفاهم ، وأنه حاول جهد استطاعته أن يصل إلى حلٍ مرضٍ مع أنطونيوس الذى يُحَمِّله هو وحده مسؤولية فشله فى الوصول إلى نتيجة مرضية وتسوية ما بينهما من خلاف بروح ملؤها الرغبة الصادقة فى حسم النزاع من غير أن يضطر إلى قتل نفسه ، واختتم أقواله برثاء أنطونيوس والتعبير عن شديد أسفه لوقوع تلك الفاجعة .

أما موقف الملكة بعد موت أنطونيوس فلقد كان حرجاً شديد الحرج ، ضيقاً شديد الضيق إذ كانت تعلم أن حسابها سيكون عسيراً ، وأن عقابها سيكون قاسياً غاية القسوة ، مع أنها بذلت أقصى جهدها فى سبيل استرضاء أكتافيوس فقدمت له خدمة جليلة بتدبير مقتل أنطونيوس — وكانت سياسة أكتافيوس بعد ذلك ترمى إلى الاحتفاظ بشخصها ، ثم بكنوزها الثمينة وهما أمران لا تقوى جيوشه وعساكره على تحقيقهما : ولذلك صمم على الاستمرار فى خطة الخديعة والمكر وبذل الوعود الخلابة حتى يستحوذ عليها ، وتصبح فى قبضة يده . فأرسل لها رسولين من قِبَله وهما صديقه الحميم پروكليوس (Proculeius) وخادمه الأمين إپافروديتوس (Epaphroditus) كيما يفاوضاها ، وزودهما بالتعليمات الدقيقة عن الطريقة التى يجب أن يسلكاها ، والوعود الغامضة التى يمكنهما بذلها ، ولكن كليوباترة رفضت أن تسمح لهما بالدخول إلى قبرها الحصين ، إذ أنها كانت تعلم أنها تستطيع أن تملى شروطها ما دامت مستحوذة على كنزها ، ولكنها أخذت تفاوض پروكُليوس من كوة أو ثقب بباب المعبد الحصين . وإنه ليس من الممكن معرفة شروطها التى عرضتها إذ ذاك على سبيل التحقيق ، ولكن يمكن الظن بأنها كانت تتلخص فى الاحتفاظ بعرشها لنفسها أو لأبنائها من أنطونيوس . ومن المؤكد أنها كانت قد صرفت النظر فى ذلك الوقت عن الأمل فى أن يُجلس ابنها من قيصر المسمى قيصرون على عرش مصر ، إذ أنه عند ما

تبين لها أن الأمر قد صار بيد أكتافيوس وآل إليه مصير البلاد ، أيقنت أن قيصرون سيكون أول من ينتقم منهم أكتافيوس فأرسلته مع مربيه رودون (Rhodon) إلى إثيوبيا أو بلاد النوبة ليحاول منها الفرار إلى بلاد الهند . على أننا مهما نعمل الفكر ونطلق العنان للخيال ، فإننا لن نستطيع تفهم سر الحوادث التي تعاقبت إثر انتحار أنطونيوس ، وسيبقى الشيء الكثير منها مكنوناً في طي الكتمان . وقد يسائل الإنسان نفسه عن الفائدة الحقيقية التي كانت تعلقها كليوباترة على وعود أكتافيوس الغرامية ، مع أن هذه الوعود يمكن نقضها بسهولة ، ومع أن لدى أكتافيوس ألف وسيلة ووسيلة للتخلص منها ومن جميع الأشخاص غير المرغوب فيهم ، مهما يبذل لهم من وعود وعهود . ولربما كانت كليوباترة مصممة على مقابلة أكتافيوس نفسه والحصول منه على تأكيد شخصي لتلك الوعود والآمال التي أبداها عن طريق بروكليوس ورسله المخلصين . وكانت التعليمات التي تلقاها هؤلاء الرسل تقضي بألا يجعلوا الريب يتسرب إليها في احتفاظها بعرشها ، وألا يجول بخاطرها أن أكتافيوس يحافظ على حياتها من أجل عرضها في روما عند احتفاله بنصره ، وأوصاهم بأن يؤكدوا لها إخلاصه بدون أن يورطوه بعهد أو ذمة ، وأن يحاولوا إقناعها بالتسليم من تلقاء نفسها ، ولكنهم وجدوا الموقف أشد حروجة مما ظن أكتافيوس ، فسارعوا بإخباره ليتدبر الأمر بحكمته ، فأرسل لها كورنيليوس جالـوس(Cornelius Gallus) وهو الذي أصبح فيما بعد أول حاكم روماني على مصر بعد موت كليوباترة . وكانت له دراية ومعرفة خاصة بالشئون المصرية وأساليب السياسة فيها ، فنفذ التعليمات التي تلقاها من سيده ، وهي أن يطيل حواره ومفاوضاته مع الملكة ، وكان ذلك بواسطة ثقب في باب المقبرة الحصينة المعتصمة بها ، وفي الوقت نفسه تَسَوَّر بروكليوس المقبرة بصحبة بعض الجند من الجانب الآخر . ولقد علمت كليوباترة بصعود بروكليوس ومن معه إلى معقلها الحصين ، ولكن بعد فوات الوقت ، وبينما هم يقتربون منها ، مدت يدها إلى خنجر كانت

قد أخبأته فى طيات ردائها ، وحاولت أن تطعن به نفسها ، فسارع بروكليوس إليها وحال دون تحقيق رغبتها ، وخلّص حياتها الثمينة لأكتافيوس ، فاستحق بذلك ثناء قائده لأنه احتفظ له بالملكة وكنزها من عبث العابثين . ولقد حاول أكتافيوس تهدئة روعها وسمح لها بالبقاء فى قبرها وأمر إپافروديتوس أن يعاملها بالاحترام الذى يليق بالملكة ، وأن ينفذ لها كل رغباتها ، وألا يعصى لها أمراً . ولكنه كُلِّف فى الوقت نفسه بمراقبتها أشد مراقبة خشية أن تتخلص من حياتها بالانتحار ، وسمح لها بتحنيط جثة أنطونيوس وبالقيام بكل ما يلزم من معدات لدفنه والإحتفال به إحتفالاً يليق بمثله من عظماء الرجال ، بيد أنه مع كل تلك التجلة والاحترام والسهر على تنفيذ رغباتها كانت تشعر بالموت يقترب منها رويداً رويداً ، يخيم عليها بظلماته ويهبط عليها بكلكله .

أما مدينة الإسكندرية فقد كانت ترقب تطور الحوادث بعين ملؤها الخوف والهلع ، لا تدرى ماذا ينوى القائد المنتصر صنعه فى مدينة عزلاء ، لا مدافع عنها ، ولكن لما وجد أكتافيوس أنه السيد الذى لا منازع له فى كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية أراد أن ينهى الحرب ، وأن يبدأ عهداً جديداً يسود فيه السلم والطمأنينة . ولم يجد من الضرورى أن يقسو ويشتد ويبطش بالأهلين ، ويخضب بدمائهم شوارع العاصمة المصرية ، واكتفى باحتلال الإسكندرية بجيشه كعلامة لنصره ، وكان دخوله المدينة إيذاناً للعالم أجمع أن جميع الممالك التى تحيط بالبحر المتوسط قد اعترفت بسلطان الدولة الرومانية ، وأن البحر المتوسط نفسه قد أصبح بحيرة رومانية . ولكن الخوف كان قد تملك الإسكندرية ، وملأ أرجاءها كما حدث أيام يوليوس قيصر فى صدر عصر كليوباترة وقت احتلاله المدينة عقب انتهاء الحرب المعروفة بحرب الإسكندرية . وللمرة الثانية فى حقبة قصيرة هى عهد هذه الملكة ، سار الجند الرومان فى شوارع المدينة ، وعلا صوت أقدامهم وعجيجهم فى أنحائها وأبهائها وقبواتها وقصورها الغناء ومعابدها الفخمة ومبانيها العالية ، وقد ازدحمت بالناس

من جميع الأجناس إذ خرجوا على بكرة أبيهم ليقدموا ولاءهم للقائد المنتصر .
ولقد تأثر أكتافيوس بعظمة المدينة وجمالها فلم يتنكر لها فى المعاملة ، ويحكمها بيد حديدية ، بل ترفق وخفف الوطء ، وأركب بجانبه وهو داخل المدينة معلمه الفيلسوف أريوس (Arius) الذى كان من أهل الإسكندرية . وذلك ليشعر أهلها برأفته ، وليقدم برهانا حسياً على شديد احترامه وتبجيله للفلسفة ، ثم توجه بموكبه للملعب الرياضى — الثقافى والمعروف بالجمنازيوم (Gymnasium) حيث وقف أنطونيوس منذ أربع سنين من قبل يقتطع أملاك الدولة الرومانية فى آسيا وأفريقيا ، ويهبها لكليوباترة وأبنائها ؛ ولكى يمحو ذكرى الحرب وويلاتها أعلن نيته فى استعمال الرأفة والرحمة ، فخر له جميع الحاضرين راكعين ساجدين. وكان خطابه باللغة اليونانية التى يحسن المستمعون فهمها ، ودفعه على اتخاذ هذا السبيل عظمة الإسكندرية التى كانت أم المدائن والأمصار فى ذلك العصر ، واحترامه لمؤسسها الذى كان قدوة لوالده يوليوس قيصر ، وإكرامه لشأن مربيه ومعلمه أريوس ورغبته فى كسب محبة الأهلين له . ولكن مع عموم عطفه ورفقه لم يَعْفُ عن بعض أفراد كان يرى التخلص منهم ضرورة لامناص منها ولا يصح إغفالها . وأهم من حرص أكتافيوس على قتله قيصرون وأنتيلّوس وكليوباترة ، فقد أرسل أكتافيوس جنده للحاق بالأول وهو فى طريقه إلى إثيوبيا فأغروا معلمه فزين له أن أكتافيوس سوف يعترف به ملكا على مصر . ولذلك أقنعه بالعودة إلى الإسكندرية ، وفى طريقه إليها أمسك به كمين كان قد تربصّ له وقتله . وكان هذا الحادث بعد انتحار كليوباترة . أما أنتيلّوس فكانت كراهية أكتافيوس له شديدة ، وهذا يرجع إلى والدته « فلڤيا » أكثر منه إلى أبيه أنطونيوس ، ولكننا لا نستطيع أن نتكهن بالدافع الحقيقى الذى كان الباعث على قتله . وبذلك تخلص أكتافيوس من إسمين كريهين على نفسه .

إنتحار كليوباترة

أما كليوباترة نفسها فقد كانت تشعر مع الأبهة والعظمة التى كانت لا تزال تحيط بها، أن نهايتها قد حانت، وأن تيار الحوادث يعلو من حولها شيئاً فشيئاً، ويجرف فى طريقه مَنْ كانوا موضع سخط أكتافيوس، وماهى إلا عشية أو ضحاها حتى يبتلع ذلك التيار القوى شخصها. وإن مَسْلك الملكة التى غررت بأنطونيوس، ودفعته إلى الموت دفعاً، والتى حاولت قبل وقوعها فى يد العدو التفاهم مع رُسله فى أثناء تحصنها فى مقبرتها، ليدلنا على أنها كانت ترغب فى الحياة، وأنها كانت تطمع فى الاحتفاظ بعرشها فى مصر لنفسها أو لأبنائها. ولكن بعد وقوعها أسيرة فى يد العدو إنهار بناء آمالها عن أساسه، وأصبح هشيما تذروه الرياح، وأيقنت حينئذ بما يخبئه لها القدر وهى العليمة بأساليب السياسة وتصاريفها، تُعز ذليل الأمس، وتذل عزيز اليوم، فأنَّى لها بالرحمة وكيف يرحمها أكتافيوس؟؟ حقاً ربما سنح لها خاطر أشعَّ فى نفسها بريق الأمل بين حين وآخر، مرتكنة فى ذلك على قدرتها على كسبه إلى جانبها بفضل ما أوتيت من قوة الجاذبية الشخصية والنفوذ العظيم، والمقدرة على أسْر الرجال، ولكنها لا بد كانت فى سريرة نفسها تعلم علم اليقين أن الفشل ينتظرها، وأن مصيرها المحتوم هو أن تتردى فى هوة سحيقة من اليأس، وأن الموت الوشيك لا بد آتٍ عما قريب. وكانت الملكة تُردد على لسانها لأخصائها فى ذلك الحين الجملة الآتية « لن يستطيع أحد أبداً أن يَعْرضنى فى موكب نصر ». وهذه الجملة تدل على أنها كانت تفضل الموت العاجل على أن يمثل بها هذا التمثيل المهين. ولكن القَدَر كان يكيل لها بنفس الكَيْل التى كالت به لأختها أرسينوى (Arsinoë) التى سِيْق بها فى شوارع روما مكبلةً فى السلاسل والأغلال تحت أعين كليوباترة نفسها فى الاحتفال بانتصار يوليوس قيصر، ثم أمرت بها فقُتِلَتْ — كل تلك الفظائع تمثلت أمام ناظرها، وتذكرت ما أعدته لها تصاريف الحدثان. ولكن

الملكة مع ارتكابها هذا الجرم مع أختها تستحق إعجابنا الشديد؛ لأنها رفضت أن تستسلم للقَدَر، وصممت على ألا تُمَكِّن أحداً من أن يعرضها فى موكب رسمى من مواكب النصر. وكانت روما التى استردت قوتها وسطوتها ترى فى كليوباترة عدوتها اللدودة التى أعلنت عزمها على الجلوس فى الكابيتول (Capitolium) فى روما والحكم بين الناس، والتى غررت بقيصر، وأطمعته فى إقامة مَلَكية هيلينستية من العالم الرومانى، ثم غررت من بعده بأنطونيوس، البطل المغوار فكسبت الأول إلى جانبها، وكانت سبب نكبة الثانى. وإنه لمن الصعب أن نتصور مقدار الكراهية الشديدة وروح الانتقام والسخرية وفُحش القول الذى كان لاشك يكيله الشعب الرومانى للملكة، ويتردد صداه فى شوارع روما لو قدر لها أن تساق فى طرقاتها ترسف فى السلاسل والأغلال — كل تلك الاحتمالات لابد أن تكون قد جالت بخاطرها، وجعلتها تصمم على التخلص من حياتها فتوسلت إلى أكتافيوس أن يقتلها، ولكنه لم يُجبها إلى ما طلبت، فأعملت الفكر كيما تنتحر رغم تلك التحوطات والرقابة الشديدة التى كانت تحيط بها لمنعها من الوصول إلى مآربها. وصممت على أن تلقى آخر سهم فى جعبتها بأن تعيد تمثيل دور لَعِبَته من قبل وصادفت فيه نجاحاً عظيماً، فخُيِّل إليها أن التوفيق قد يلازمها إلى النهاية ولذلك طلبت مقابلة أكتافيوس، وتمت هذه المقابلة بين الاثنين فى معقلها الملكى، وقد علمنا بنبأ هذه المقابلة الوحيدة بينهما من بلوتارخوس وديو، ولكن لم نعلم من التفاصيل الحقيقية لتلك المقابلة بين الاثنين إلا النزر اليسير. ويقول بلوتارخوس، والعهدة فى روايته على طبيب كليوباترة المسمى أوليمپوس، إن أعز رغبة لديها كانت فى أن تلقى الموت، وإنها آثرت الامتناع عن الأكل حتى تموت جوعاً، ولكن أكتافيوس هددها إذا عمدت إلى تحقيق ذلك بأن يُنزل بأبنائها ضرراً بليغاً، وينكل بهم. وهناك روايتان مختلفتان بشأن زيارة أكتافيوس لها فى مَعقلها الذى اعتصمت به، إحداهما جاءت على لسان بلوتارخوس مستمدة من أوليمپوس، والأخرى

ذكرها « ديو » الذى كان يعبر فيما يسرد عن الوصف الرسمى لتلك الزيارة . فقدمها لنا فى صورة الفاتنة البارعة التى لم تكن لتُعْجزها الحيلة ولا الدهاء ، والتى لم تكن تعرف حقاً للضمير ، فحاولت فى بساطة وسذاجة أن تستعطف أكتاڤيوس إلى جانبها ، وتستميله إليهـــا بتقبيل صور يوليوس قيصر وخطاباته ، ثم تقدمت إليه بعروض ، صحبتها بكلمات عذبة معسولة ونظرات فاتنة تأخذ بالألباب . ولما أعرض عنها ونأى بجانبه وأجابها بجفاء دون أن يذكر شيئاً عن مملكتها ، ودون أن يَنْبس ببنت شفة عن ذلك الحب المزعوم ، قال « ديو » إنها يئست منه ، وطلبت إليه أن يسمح لها بأن تموت ، وأن تدفن فى نفس القبر الذى يضم رفات أنطونيوس ، ويقول « ديو » إنها أيَّدت طلبها هذا بأن تركت بعد موتها كتاباً ضمنته هذا الطلب . وعندئذ طَيَّب أكتاڤيوس خاطرها بالترفق فى حديثه معها حتى لا تقطع الأمل ، لأنه كان ينوى أن ترافقه إلى روما لتسير فى موكب نصره فتضفى عليه من الروعة والبهاء ما كان يطمع فيه ، وسمح لها أن تذهب فى صُحبة وصيفتها لزيارة قبر أنطونيوس حيث أخذت تستمطر الرحمات من السماء عليه وتتوسل إلى روحه أن تنقذها من محنتها وتخلصها من عار السير فى موكب النصر الرومانى فى روما ، وأن تسمح لها بمشاركته قبره . ويُعد ختام صلواتها أروع مثال ضربه پلوتارخوس فى التعبير عن مبلغ الأسى واللوعة أو هو أنات صادقة جرت على لسانها ، ما كان لأترابها وبنات جنسها ، لا من قبلها ولا من بعدها ، أن يأتين بمثلها ، فكانت مخلصة عندما نادته بقولها « ليس بين أتراحى ، وما أكثرها ، ماهو أمَرّ وأقسى من تلك اللحظات القصيرة التى قضيتها بعد أن افتقدتك » .

ومهما يكن من أمر هذه المقابلة بين أكتاڤيوس وكليوپاترة ، فقد كانت مقابلة بين قاهر ومقهور ، بل بين حاكم الرومان وملكة مصر . وأما مدى آمالها والحقيقة بشأن رغبتها فى إيقاع أكتاڤيوس فى شراك غرامها ، أو إيقاظ عوامل الشفقة فى قلبه ليسمح لها بالبقاء بمصر وتصنعها اليأس للوقوف

على شعوره الحقيقى نحوها . — كل تلك أمور ستبقى سراً مكنوناً حملته معها إلى قبرها . ولقد كان موقفها وتوسلاتها وتضرعاتها وكل الوسائل التى تسلحت بها لغزاً، صعُبَ حلّه حتى على أكتاڤيوس نفسه . وقد قيل بعد ذلك إنها وهى فى الأربعين من عمرها ، حاولت أن تنجح لثالث مرة فى إيقاع حاكم العالم الرومانى فى شراك حبها ، ولكن وسائل إغرائها لم تنجح هذه المرة أمام جمود أكتاڤيوس . وفى أغلب الظن إن هذه القصة افتراءٌ عليها، إذ قد بدأ الناس بعد انتحارها يشيعون عنها كل ما تجود به مخيلاتهم من أراجيف ليصوروها بغياً الملوك . وعلى أية حال فلقد كانت نتيجة تلك المقابلة بينها وبين أكتاڤيوس أنها وثقت تماماً بأن أكتاڤيوس كان يرمى إلى عرضها كأسيرة على الشعب الرومانى خلف مركبه الحربى ، مما جعلها تصمم على الإنتحار . ولكن لكى تنفذ مشروعها هذا كان من الضرورى أن تضلل أعداءها . فخدعت أكتاڤيوس حتى أصبح يعتقد أنها تخلت عن فكرة التخلص من الحياة ، وأنها وافقت على الذهاب معه إلى روما . ومن هنا كان السر فى السماح لها بأن تقدم آخر قربان على قبر أنطونيوس قبل رحيلها من مصر ، وكان تصرفها هذا سبباً فى تخفيف الرقابة التى كان يقوم بها إپافروديتوس وأعوانه عليها ، وبعد أن أذرفت الدمع الهتون على أنطونيوس على نحو ما أوضحنا وقامت برثائه رثاءً بليغاً على قبره وودعته الوداع الأخير، عادت من هذه الزيارة إلى قصرها ، وبعد قليل سمح الرقباء عليها بوصول سلة تين إليها كانت خبأت بها ثعباناً أو حية تسعى . وعندئذ أعطت إپافروديتوس خطاباً ممهوراً بخاتمها ،وطلبت إليه أن يسلمه إلى أكتاڤيوس فى الحال . وقد رجته فى ذلك الخطاب أن يدفنها مع أنطونيوس فى قبره . ووُجدت الملكة بعد ذلك بمدة وجيزة جثة هامدة بملابسها الملكية — ولكن طريقة موتها كانت سراً غامضاً حتى لمعاصريها ولأول من استكشف جثتها ، ومازالت للآن موضع الحدس والتخمين من الجميع . ومن العجيب أيضاً أن المؤرخين الأقدمين المعاصرين يقولون بصراحة إنه لم يقف أحدٌ على الطريقة

التى ماتت بها كليوباترة . وقد وصلت إلينا حكايات مختلفة عن موتها . والرواية التى لاقت قبولاً فى روما بعد ذلك بعدة أسابيع هى أن كليوباترة وخادمتيها قد لدغهن ثعبان . ولكن الكُتّاب ليسوا متفقين على شىء فى أمر موتها حتى أن الذين صدقوا أن موتها كان بلدغة ثعبان لم يتفقوا على موضع اللدغ . وقد تكون هذه الرواية بشكلها الرسمى مأخوذة فى جملتها وتفاصيلها من كتاب نشره بعد موتها طبيبها الخاص أوليمپوس (Olympus) عن أيامها الأخيرة، ولكن لا يمكن المرء أن يتأكد من صحة ما نشره أوليمپوس هذا ، وهل كان هذا لغرض روائى ولتسلية الشعب الرومانى ، أم كان يرمى به إلى إظهار الحقيقة . وعلى ذلك فإن موتها سيبقى على الدوام سراً غامضاً على كل من يروم التاريخ من مصادره الحقيقية — وهكذا لجأ كل من أنطونيوس وكليوباترة إلى الموت بعد أن خابت آمالهما ، وفشلت خططهما فمات الرجل الذى أثار الشرق ضد الغرب تحقيقاً لأطماعه ورغباته بعد فشل سياسته ، ولحقته كليوباترة بعد أن أظلمت الدنيا، وضاقت فى ناظرها حتى صارت أضيق من كُفّة الحابل ، وتأكدت أن لا حياة ولا هناءة لها بعد فراق أنطونيوس . وبموتها أصبح العالم الرومانى بما فيه مصر فى قبضة القائد المظفر أكتافيوس أغسطس ، مؤسس الإمبراطورية الرومانية .

وإن العالم بأسره ليعلم ما كان من أمر تلك الحيات التى أمرت بإحضارها فى قفص من التين الطازج ، وموت هذه الملكة بتأثير لدغات الحية ، وموت وصيفتيها بعد أن بعثت لأكتافيوس برسالة ترجوه فيها أن يأذن بدفنها مع أنطونيوس فى قبر واحد ، وأنها بعد تناول العشاء صرفت الجميع عنها فيما عدا وصيفتيها إيريس وخارميان ، فلما قرأ أكتافيوس كتابها ، عجل بإرسال رسله كيما يستجلوا حقيقة الأمر ، وعندما دخلوا عليها رأوا كليوباترة وقد لفظت أنفاسها الأخيرة، راقدة فى رواء المُلك وبهائه على مخدع من عسجد ، ومن تحت أقدامها إيريس وقد أسلمت الروح، أما خارميان فكانت لا تزال تعانى سكرات الموت، وما فتئت تُحكِم بأناملها وضع تاج سيدتها على جبينها .

وعندما إبتدرها أحد الرسل غاضباً بقوله « أيليق هذا – أى خارميان ؟ » أجابته على الفور « حسناً فعلت وأيمن الحق ، وإن هذا الخليق بسليلة ملوك أما جد » . ثم هوت لتوها بجوار مضجع سيدتها .

وقد تواترت الأقوال بأن أكتافيوس أمر بقتلها، وأن رواية لدغة الحية ما هى إلا من بنات أفكار الرومان ، ابتدعوها لإخفاء جريرة هذا الإثم ؛ ولكن ليس من المحتمل فيما يبدو أن يكون أكتافيوس قد رغب فى قتلها قبل أن يحتفى بموكب نصره ، وتسير هى فيه لتكون آية وعبرة للناس . وبحسب ما جاء فى « ديو » يظهر أنه بذل قصارى جهده ليحول دون تحقيق رغبتها ، والعمل على إنقاذ حياتها بعد أن حضر ورآها مضطجعة فى فراشها « فلما عجز عن الوفاء بغرضه « أخذ فى إظهار الإعجاب بها ، والأسف عليها ، ولكنه شعر بوجه خاص بمزيد من الألم والغضاضة لأنه حرم من الاستحواذ عليها حية لتكون أعظم درة فى تاج نصره » ، ثم مضى « ديو » فى حديثه عنها فلخص أحوالها وصور أخلاقها فيما يلى « إنها ما كانت لتشبع أبداً فى البحث وراء الحب ، وما كان طمعها فى الحصول على الثروة ليعرف حداً . إنها كانت طموحة للغاية ، شغوفة بالشهرة ، صلفة متعجرفة ، محبة للشموخ بأنفها فى قحة ؛ ولقد استحوذت على عرش مصر واستأثرت به بفضل غرام رجل هام بها ، وكانت تأمل بانتهاجها نفس السبيل أن تصبح ملكة على عرش روما ، ولكنها مُنيت بالفشل فى ذلك وهكذا أضاعت مُلك مصر . إنها استطاعت أن تستحوذ تحت سلطانها على اثنين من أبطال روما وعظمائها فى ذلك العصر ولكنها تعثرت بسبب ثالثهم وأودت بحياتها بظلفها » [١] . ويتناول المؤرخ الفرنسى بوشيه ليكلرك موضوع تهجم الكتاب الرومان على كليوباترة وتعمدهم القذف فى حقها ، وصب جام غضبهم عليها فيقول « إن هذا إلا حديث معاد وموضوع مكرر ، طالما عرض له الكتاب الحديثون بالتفنيد » [٢] . ومن بين هؤلاء

---

(١) كاسيوس ديو ، ٥١ ، ١٥

(٢) بوشيه ليكلرك ، تاريخ اللاجيديين ، جزء ثان ص ٣٣٦ ، هامش رقم ١

الدكتور و . و . تارن فى كتابه عن « الحضارة الهيلينستية » إذ يقول « إن بريقاً وهاجاً قد أُلقى على النزع الأخير من حكم تلك الأسرة (البطلمية) بفضل اسم كليوباترة . وقد سُطر الكثير عنها ولكن قدراً قليلا مما كُتب يعطينا فكرة صادقة عن تلك الإمرأة ، التى استطاعت على الرغم مما اقترفته من جرائم وآثام وما يعتورها من قصور ونقص ، أن تبلغ درجة من العظمة ، حَدَت روما أن تهابها وتخشاها ، وكانت فى جسارتها ومطامعها من طراز ما تجلى من روح الإسكندر . وإنها لإمرأة تصدت لها النبوءة فأشارت بأنها بعد أن تتمكن من القضاء على روما ، سوف تعمد إلى الأخذ بيدها وبدء عصر ذهبي يتعين فى مستهله وضع حد للنزاع والصراع الطويل بين أوربا وآسيا ، وتسوية أوجه الخُلف بينهما وسواد حكم ترفرف عليه ألوية العدالة والمحبة ؛ وكانت مراميها تهدف إلى أن تكون سيدة العالم الرومانى وإمبراطوريته الشاملة . ولو قُدّر لقيصر أن يمتد به الأجل لتحقق لها فى أغلب الظن ما أرادت ، ولكنه توارى عن الأبصار ، ولحق به الموت فاضطرت إلى أن ترتد فتتكىء على أنطونيوس باعتباره خير مَنْ وجدت ، واستطاعت أن تكسبه آخر الأمر إلى جانبها وتتخذه أداة فى تنفيذ برنامجها المنطوى على جرأة وجسارة والمتضمن محاولة غزو روما بواسطة جند من الرومان . ولكن هذا المشروع لم يخرج إلا بعد فوات الأوان ، فكان العصيان والتمرد بين رجال أسطوله فى أكتيوم سنة ٣١ ق . م ، هو القاضى على الحلم الذى ساورها فى قيام تلك الإمبراطورية . وبانتحارها فى السنة التالية انتهت فى الواقع آخر سلالة مقدونية تربعت فى دست الحكم واحتل أغسطس عرش البطالمة » [1] .

وقد دلل العالم الأمريكى « وليم لِنْ وسترمان » فى مقال له منشور فى أعمال المؤتمر العالمى الخامس لعلم أوراق البردى ، على أن كليوباترة كانت ملكة مصرية صميمة فى نظر المصريين ، وأنها خلدت فى الأدب الباقى من

(١) و. و. تارن ، « الحضارة الهيلينستية » ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٢ ص ٤٦

عصرها ، ومن العصر التالى على أنها مصرية ، ويستند فى ذلك على ما جاء فى أقوال پلوتارخوس ، حياة أنطونيوس ، الفصل ٢٥ ، من أن كليوباترة كانت « المصرية » . وإن المحاولة المسرحية الأخيرة من جانب كليوباترة فى إقامة دولة عظيمة ذات سلطان واسع عن طريق التحالف مع الحزب الرومانى الموالى لأنطونيوس ، كان العماد الأساسى فيها إعتقادها بأن ولاء الشعب المصرى وإخلاصه لقضية الأسرة البطلمية ومليكة البلاد كان أمراً مسلماً به . وإن ذلك الحلم الرائع الذى داعب خيال كليوباترة فى الوصول إلى سلطان الحكم على إمبراطورية مترامية الأطراف ربما كان عديم الجدوى ، وينطوى على محاولة طائشة ومغامرة فاشلة ، لو لم تكن واثقة من تأييد المصريين من رعاياها وولائهم وإخلاصهم لها [١] . وقال العالم سير هارولد إدريس بل فى كتابه عن « الهيلينية فى مصر » ، إن اثنين أذلا روما وجعلا أنفها فى التراب . وهذان هما هانيبال ، القائد الفينيقى ، وكليوباترة ، الملكة المصرية [٢] .

وما كانت التهمة التى لصقت بكليوباترة ، وهى أنها كانت ترغب فى إشباع شهوتها بالأمر العسير فى دفعه عنها وتفنيد القول الذى كثيراً ما أطلقه بعض المؤرخين من أنها كانت إمرأة بغى ، فليس هناك من الحقائق ما يبرر هذه التهمة فى حياتها الخاصة ، إذ أنها أخلصت فى علاقتها بكل من القائدين الرومانيين : يوليوس قيصر وماركوس أنطونيوس ، وكانت تأمل فى أن تصير زوجة للأول ، وأصبحت بالفعل زوجة للثانى . وهى وإن كانت صلفة قاسية القلب ، محبة للجاه والسلطان ، ولا تتورع أحياناً عن ارتكاب أعمال لا يبررها الضمير الإنسانى ، فإنها على أى حال لم تشبها الشوائب والرذائل التى اتصف بها ملوك البطالمة من أمثال بطلميوس الرابع فيلوپاتور وغيره ، من الإدمان على شرب

---

(١) وليم لين وسترمان ، « البطالمة وما بذلوه من جهد فى تحسين أحوال رعاياهم » مقال منشور فى أعمال المؤتمر العالمى الخامس لعلم أوراق البردى المنعقد فى سنة ١٩٣٧ ونشر فى بروكسل سنة ١٩٣٨ ص ٥٧٧ .

(٢) هارولد إدريس بل . « الهيلينية فى مصر » الفصل الثانى « عصر البطالمة » ، ترجمة زكى على .

الخمر والإنهماك فى الملذات والشهوات الجامحة. وفى الحق إن مَثَلها فيه تطابق لأمثلة كثيرة غيرها من نساء هذه الأسرة البطلمية، فى أنها لم يكن لها غرام خاص بالدس والكيد من أجل المغامرات فى شئون الحب، وإنما كرست جهودها فى العمل على الإستحواذ على الحكم والسلطان السياسى.

وينعى عليها المؤرخ «ماهافى» (Mahaffy) أن مسلكها فى أكتيوم كان ينم عن الخيانة، فولت الأدبار تاركة أنطونيوس فى موقف لا يُحسد عليه[1]. ومضى فى قوله إنها فى أكتيوم قدّرت وحسبت بغاية الدقة جميع فرص الكسب والخسارة ثم الأقدار التى كانت أمام القائدين المتنافسين، وكانت تأمل فى النهاية أن تستطيع بفضل مقدرتها على الإغراء، استهواء عظيم رومانى آخر وكسبه إلى جانبها. ولكن آراء «ماهافى» فى هذا الشأن، لا يُعتد بها، ولا بُدّ أنه وصل إليها نتيجة قراءة مستفيضة فى القصص الشجوى، غير مستقرىء للحوادث ودون اعتماد على تجارب الحياة الواقعة. ولعل فى مقال الدكتور و. تارن (W. Tarn) عن موقعة أكتيوم وهو المنشور فى مجلة الدراسات الرومانية[2]، ما يفى وينهض لتفنيد آراء «ماهافى». وفى رأى تارن أن «أنطونيوس لم تكن لديه فى هذه المعركة خطة واحدة، وإنما أتيحت له حرية الاختيار بين أحد أمرين، فإما أن يكسب النصر لو استطاع، وإذا ما تعذر ذلك فإن خطته كانت تنطوى على أن يُيَمّم وجهه شطر مصر». وإن كانت كليوباترة قد أمرت بأن تصطف مراكبها فى الخلف كيما تكون فى حماية من القتال، ووقفت هى على رأس ذلك الأسطول المصرى، فلم يكن ذلك لأن الشجاعة كانت تعوزها أو لأنها كانت تخشى عواقب الإلتحام فى تلك المعمعة، ففى شبابها قادت جيشاً ضد أخيها فى شرقى الدلتا وركبت سفينة، تسللت بها من الفرما إلى الإسكندرية فى مقتبل حياتها فى ظروف محفوفة بالمخاطر والأهوال. على أنها فى الظروف التى أحاطت بها فى أكتيوم

---

(١) Mahaffy, Empire of the Ptolemies p. 445

(٢) W. Tarn, Journal of Roman Studies, XXI, 1931, p. 175

كانت ترى أن إنقاذ الكنوز التى لديها ، وكانت تحملها معها فى سفنها ، أمرٌ على أعظم جانب من الأهمية ، كما كانت تقدر أن عودتها سالمة إلى أولادها ومملكتها يأتى فى المقام الأول ، وله من الأهمية ما يفوق تعريض حياتها للخطر فى معركة ميئوس منها . وعلى ذلك فأمر الحرب كان مُرتباً ومتفقاً عليه مع أنطونيوس ، مع ما كان يستتبع ذلك من غضاضة . وقضت شهامة أنطونيوس أن يَعمل على تجنيب كليوباترة مواطن الخطر ، وذلك بجعلها تقف فى موضع آمن . ولو كُتِبَ له النجاح فى حركته وخطته ضد أجريبا ، فإن كليوباترة كانت تبادر بالتقدم بمراكبها للقيام بدورها كاملاً غير منقوص ، بما عُرف عنها من شجاعة وإقدام . ولكن لا هى ولا أنطونيوس كان راغباً فى تعريض حياته للخطر من غير طائل ، فأبناؤهما كانوا فى مصر ينتظرون أوْبتهما .

وهناك من المؤرخين الحديثين مَنْ انبروا لإظهارها فى صورة بطلة حظيت بعطف الناس « وملكة فتيّة ، دقيقة التقاطيع تحمل بين يديها طفلها الرضيع وقد ارتسمت على محياه دلائل الصحة ، وامرأة وحيدة مجروحة كايمة ، قسا عليها الدهر ، كانت تعمل جاهدة طوال حياتها من أجل تحقيق مطمع وطنى باهر[1] . إنها قضت الجانب الأكبر من حياتها مع أنطونيوس ، فجاء كله صَخَبٌ ملىء بالأطوار الغريبة وغير متسق مع حياة الجندى الرومانى الشجاع المقدام ، الذى كانت تفرض عليه وطنيته لبلاده أن يقضى الوقت فى محاربة الفرس والبارثيين والميديين والعمل على تأمين حدود الإمبراطورية الرومانية فى الشرق . على أنه لو كان قد أدى واجبه كجندى ، لضاعت علينا صفحة مجيدة من صحف التاريخ الحافلة بالوثائق ، بما سطره القلب البشرى ، والروح الأخاذة ، ولأفلتت منا إحدى الروايات التراجيدية الخالدة ، انبرى لتسطيرها نفرٌ من الكتاب كانوا يفهمون روح كليوباترة الوثابة وشخصيتها النارية . لقد داهنت أكتافيوس واستطاعت أن تفلتَ من يديه وفوتت

---

(١) أنظر المؤرخ « ويجول » (Weigall) فى كتابه عن « حياة كليوباترة » .

عليه فرصة ذهبية كان يروم اقتناصها ليتخذ منها أداة يحتفى بشخصها فى موكب نصر يقيمه فى شوارع روما، على النحو الذى جرى عليه العرف الرومانى، وبذلك حرمته من أن يَسْلبها شهرتها الخالدة، ولو أنه استولى على زُمردها وجواهرها وكنوزها كيما يدفع منها رواتب جنده وَيَبقى بديونه فى إيطاليا.

ومما لا ريب فيـــه أنها فاقت أى مقدونى آخر، فيما عدا الإسكندر الأكبر، فى عظمتها الباهرة وذكائها الخارق وأطماعها الواسعة. وقد استطاعت أن تؤثر بما أوتيت من قدرة سحرية ومقدرة وكفاية، على كل رجال زمانها وأبناء عصرها. وهى وإن لم تكن أنموذجاً خالصاً للفضيلة، فإنها لم تكن وحشاً كاسراً ألقت به المقادير (fatale monstrum) كما صورها الشاعر هوراس فى إحدى أناشيده[1]. ولم تصطنع الخبث ونصب الأحابيل، كما أنها لم تكن مثال الزوجة الطيبة القلب الوادعة، ولم تكن وطنية رائعة الإخلاص فى وطنيتها. وإنما كانت ملكة بطلمية، جمعت من خصال بنى جنسها قسطاً غير متعادل من الفضائل والرذائل على السواء: فهى البسامة فى عظمتها وأبهتها، المونعة المشرقة فى منبت قديم هو البيت الملكى المقدونى فى مصر، وكان إذ ذاك آيلا للإنهيار والسقوط. وهى طوال حياتها كانت أبعد ما تكون عن أن توصف بالإمرأة الخاملة.

وفى نطاق سياستها الداخلية وأسلوبها فى الحكم، وعنايتها بأحوال البلاد الداخلية، كشف لنا مؤرخ جغرافى هو استرابون، النقاب عن قصور ظاهر من جانبها فى هذه النواحى[2]. فقال إنه فى حكم كليوباترة كانت إدارة البلاد مختلة بسبب الترف والمجون الذى كان عليه ملوك البطالمة المتعاقبون وما أصاب ثروة البلاد الطبيعية من تلف وضياع، وقد أنحى إسترابون

---

(١) هوراس Odes B. I, XXXVII, 21—22، إذ أنشد يقول: « fatale monstrum quae generosius perire quaerens » إن كليوباترة ليست بشراً سوياً وإنما هى وحش كاسر، بعثت بها الأقدار لتعيث فى الأرض فساداً وتنشر الذعر والرعب فى أرجائه.

(٢) إسترابون. الكتاب السابع عشر من جغرافيته، ٧٩٧ — ٧٩٨

باللائمة على كليوباترة وخصها بشيء من اللوم. ذلك أن عنايتها بالإشراف على مطالب الجيش والأسطول صرفتها عن الاهتمام بشئون مصر الداخلية وإصلاح الجهاز الإدارى المتداعى، كما كانت غيبتها عن مصر ومُقامها فى روما مدة بلغت نحو سنتين من ٤٦ ق. م حتى ربيع ٤٤ ق. م ثم ترددها على الشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان لاستقبال أنطونيوس وتقديم العون له فى شتى المناسبات - كان كل ذلك مدعاة لأن تصاب الإدارة المصرية ببعض الخلل، فأُهمل تطهير القنوات المصرية، وتراكم الطمى فيها ونجم عن ذلك نقص فى مياه الفيضان وتعذر وصولها إلى الحقول والمزارع، مما أدى إلى حدوث مجاعة فى البلاد فى عام ٤٤-٤٣ق. م[١] . وهنالك من البيّنة ما يكشف عن وقوع اضطراب فى أحوال البلاد، منها نَصَبٌ أو لوحة من طيبة عرفت بلوحة تورين مؤرخة فى عهد الملكة كليوباترة، الإلهة المحبة لأبيها (Philopator) وبطلميوس وهو أيضاً قيصرون، الإله المحب لأبيه وأمه[٢] . وقد أقام هذا النّصَب كهنة آمون رع فى طيبة بالاشتراك مع شيوخ هذه المدينة وبقية سكانها تكريماً لكاليماخوس، الذى عُنى بأمر المدينة فى أوقات المحنة الشديدة التى ألمّت بها وخلّصها من المجاعة، متحملاً العبء وحده بإخلاص وبذلك استحق منحه لقب مُخلِّص المدينة . وفى وثيقة أخرى أصدرت كليوباترة بالاشتراك مع ابنها بطلميوس قيصرون، أمراً ملكياً فى عام ٤١ ق. م، يقضى بأن السكندريين الذين كانوا يعملون فى الريف، مشتغلين بحرث الأرض وزراعتها، لا يفرض عليهم من الضرائب سوى ما كان مقرراً عليهم من ضرائب عادية مستحقة على الأراضى المنزرعة غلالاً وكروماً . وكان هذا القرار الملكى استجابة لطلب تقدمت به بعثة من السكندريين مَثُلت بين يدى كليوباترة . وفيما عدا هذا المرسوم، لا توجد أدلة قاطعة على أنها كانت معنية بشئون البلاد الداخلية وساهرة على أحوال رعيتها .

(١) Appian, Bellum Civile, IV, p. 61; Pliny, Natural History, V, 58; Josephus, Apion II, 60.

(٢) Turin Stele, O G I, 194

ولما فشلت سياستها الخارجية وخابت آمالها توارت عن الأبصار على النحو المسرحي الروائي الذي أقام الأرض وأقعدها، بعد أن تأكدت أن الدنيا أظلمت وضاقت في ناظرها . وبموتها أصبحت مصر في قبضة أكتافيوس، ودخلت البلاد في حظيرة العالم الروماني فأعاد تنظيم أحوال البلاد وعمّ سلام مخيم على ربوعها ، جنت مصر من جرائه رخاءاً وخيراً وفيراً في صدر العصر الروماني .

الخاتمة

وهكذا قضى الأمر بأن تُطوى صحيفة كليوباترة بعد فترة طويلة من
حكم تربى على العشرين عاماً ، حافلة بالأحداث الجسام ، ومليئة بالأزمات
لاحقة . وفيما عدا أزمتها الكبرى التي انتهت بانتحارها ، فإن الأمر الذي
تأهل العجب أن كل أزمة من هذه الأزمات كادت بمفردها تزلزل كيانها
نضى على سلطانها . ومع ذلك فإنها استطاعت أن تخرج من كل واحدة
مظفرة ، قوية الجانب ، بفضل ما أوتيته من فطنة وكياسة ، وما توافر لها
، مواهب جمة . وكانت بحسها المرهف وكفايتها النادرة قادرة على التغلب
، ما يعترضها من صعاب وتحويل الخصوم إلى أعوان ، بل إنها كانت
خذ من بعض هؤلاء أدوات لتحقيق مآربها ومراميها . فكانوا ينبرون
دمتها في تفانٍ وإخلاص منقطع النظير . وليس من قبيل الصدف أن يجئ
يخ حكمها مليئاً بالأحداث الجسام والأزمات المتلاحقة ، ومعاصراً
حداث عالمية ، ما لبثت مصر أن وجدت أنه قد زج بها في معامعها : إما
ن مصير البلاد نفسه كان متوقفاً على النتيجة التي يمكن أن يُحسم بها ما كان
شب من خلاف بين قادة الرومان ، وما يسفر عنه حل الأزمات بين رجال
لحكم الثلاثي من أوضاع تؤثر في مستقبل مصر ، وإما لأن كليوباترة كانت
طامعة في خير مرجو تسعى إلى تحقيقه من وراء ما كانت تنصبه من شباك
و تتورط فيه من مغامرات ، كانت تُلقي فيها بدلوها في شيء كثير من الحيطة
الحذر . وفي القليل النادر كانت كليوباترة تساق لبعض هذه الأزمات بحكم
الها من صلات دون أن يكون لها فيها بطريق مباشر ناقة ولا جمل .

ولعل السر في أغلب ما كان يعترض سبيلها من أزمات هو أن ابنها
يصرون كان بمثابة همزة الوصل بينها وبين روما ، ويمثل حلقة الاتصال بين
مصر وبين ما كان يجرى على مسرح السياسة العالمية . إنها اتخذت من

قيصرون هذا فى أول الأمر تكأة للوصول إلى بغيتها وأغراضها البعيدة المرمى . ومن هنا كانت أغلب غاياتها وأهدافها تقع خارج الحدود المصرية ، فكبّدت نفسها من المشاق ما هو فوق طاقتها كيما تنال مجداً مؤثلا وسؤدداً ورفعة ، وتؤسس مُلكاً عريضاً يمت إلى قيصر وإلى حق ابنها منه فى إرث أبيه ، فكأنما هذا الابن هو الدافع والعامل الأول على إيقاظ تلك الآمال العريضة التى بنتها فى خيالها وتصورتها فى آفاق واسعة ، لم تر بأساً من تحقيقها ، إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً . وعلى ذلك كان هذا الابن عبئًا على كاهلها ، لأنها اتخذته محور تفكيرها الدائم ووجدت ألا مناص من أن تسعى إلى تصحيح وضع هذا الابن وإثبات بنوته وتثبيت مركزه على هذا الأساس . وهى فى هذا السبيل لم تكن تتورع عن شىء . فأدى هذا إلى تورطها وركوبها متن الشطط . ثم مضت بعد ذلك فى طريقها لا تلوى على شىء ، غير آبهة بما كان يجره عليها أكتافيوس أو غيره من عمالقة الرومان وساستهم الذين كانوا يبغضون الملكية فى شتى صورها ويحقدون على الملكة كليوباترة بالذات . ولعلها نسيت أو تناست أن أكتافيوس هو ربيب قيصر بحكم ما جاء فى وصية الدكتاتور العظيم ، وأنه بهذا الوصف كان ينظر شذراً إلى كل ما يقام فى مصر من ادعاء بصدد بنوة قيصرون وما يثار من أحقية هذا الابن فى إرث قيصر ، بل إن أكتافيوس كان يعتبر هذا الابن سُبّة فى جبين أبيه قيصر . وكلما تمادت كليوباترة فى إبراز هذه الحقيقة ونفخت فى هذا البوق وعمدت إلى اصطناع الأعوان والأبطال الذين يضربون على هذا الوتر الحساس ، وينتصرون سراً وعلانية لدعوى كليوباترة وما تبسطه من أحقية تدعيها لابنها من قيصر بعد أن اشتد ساعده ونما وكبر ، تكدرت العلاقات بينها وبين أكتافيوس . وازدادت العداوة بغضاً وسوءاً حتى ضاع الأمل فى عمل أى مهادنة أو مصالحة ، فكل طرف من الطرفين كانت مصالحه على النقيض من الآخر . وقد أصبحت كليوباترة آخر الأمر العـــدوة اللدودة لأكتافيوس الذى أعلنها عدوة للرومان (hostis) وخصها بشن حرب

شعواء عليها ، لا بوصفها ملكة على مصر فحسب ، وإنما لأنها أمٌّ لذلك المنافس الطبيعى لأكتافيوس فى إرث قيصر . وعندئذ لم تأل الملكة جهداً فى سبيل الدفاع عن حق ابنها ، متفانية فى ذلك ، وعاملة على كسب الحلفاء من بين صفوف الرومان أنفسهم لنصرة قضيتها . وكان على رأس هؤلاء جميعاً البطل المغوار أنطونيوس الذى كان له حتى النهاية فى نفوس نفرٍ كبير من الرومان ، منزلة مرموقة ومركز ممتاز . ولما استحكمت حلقات الأزمة ، وتكشفت نوايا الطرفين بطريقة سافرة ، لم يعد بُدٌّ من حسْمِ الخلاف فى ساحة القتال بخوض معركة برية أو بحرية أو كليهما معاً . وقد بانت أمارات كل هذا بشكلٍ واضح جلى عندما ألقى أنطونيوس القفاز فى وجه خصمه بتطليق أخته أكتافيا وإقصائها عن بيت الزوجية فى روما ، وإعلانه الزواج من غريمتها كليوباترة، واعترافه بأبنائه منها، وانتصاره لقيصرون والعمل على تثبيت وتدعيم مركز هؤلاء جميعاً ، وعلى رأسهم كليوباترة بتوزيع الهبات التى اقتطعها من أملاك الرومان فى آسيا والشام، وأسبغها على زمرة من هؤلاء الأبناء . وعندئذ اتسعت هوة الخلاف ، وضاع الأمل فى رتق الخرق وأصبح لا مفر من امتشاق الحسام لفض هذا النزاع .

وقد يحلو للمؤرخ أن يبحث وينقب فى خلفية هـذه الصورة العامة ، أملاً فى تعرف الأسباب والمسببات وكشف الأستار عن معالم هذا الخلاف المحتدم الذى قسّم العالم القديم إلى شقين : قُوى الشرق تجاه قُوى الغرب ، وقد ألبت كليوباترة الشرق الهيلينستى ضد الغرب الرومانى، واستعْدَت بلدانه، وأقامت الأرض وأقعدتها من أجل قضيتها وقضية ابنها الأكبر . وقد يكون هدف المؤرخ وبُغيته من وراء ذلك بذل محاولة تهدف إلى تلمس المعاذير والتصدى للدفاع عن الملكة، فيصوغ من حولها إطاراً من المعاذير (apologia) ليدفع عنها أوجه الاتهام، ويكون بمثابة إنصاف لقضيتها التى طلعت بها على العالم. وقد يتاح لهذا المؤرخ أن يسير شوطاً بعيداً فى البحث عن أسانيد تاريخية أو إشارات أدبية جاءت عابرة فى كتب السير وقصص الشعراء والكتاب ،

وجلّتهم من الرومان واليونان . ومما يدعو للغرابة أنه ليس من بين هؤلاء مصدر مصرى واحد، يمكن أن يُعتدّ به فى هذا الصدد . فلم يَجُدْ الزمان بشىء من هذا ليقص علينا وُجهة النظر المصرية البحتة فى هذا الصراع ، ونستطيع أن نتلمس من ثناياه أوجه الدفاع عن الطرف الثانى ، وهو المصرى ، وكان لسوء الحظ هو الطرف المغلوب . وذلك فيما عدا عبارات تقليدية مما ينقش فى مناسبات التكريم والتكريس على حوائط المعابد والمقابر والبوابات ، وما يصور على العملة التى كانت الملكة تسكها بين حين وآخر لتسجيل أحداث أو بدء حقبة جديدة فى حكمها، وكانت تضمنها صوراً لها ولأبنائها مع ذكر عبارات مقتضبة وبعض التواريخ للتوقيت ، ثم ما كان يصدر عنها من أوامر ملكية (prostagmata) صماء ، صيغت كلها فى قوالب وصور مألوفة. وكانت هذه وتلك تتناول أخص شئون الحكم ، وليس لها علاقة بتكتيل القوى الداخلية فى البلاد ولا بتنظيم شئون الدفاع . فلم ترد بها أدنى إشارة ، ولو خفية، إلى ما كان يقلق بال الملكة، ويقض مضجعها طوال هذه السنين ، مع أن الملكة لم تكن بأى حال ، خالية البال أو هادئة الفكر . وهى فى واقع الأمر كانت قد نَغّصتها الأحداث وأرّقت لياليها ، فكان خصومها عديدين ،وهم تارة من رجال البلاط المصرى الذين حرضوا إخوتها وأخواتها على التنكر لها والبطش بها ، وتارة أخرى كانوا من عظماء الرومان وأدبائهم من أمثال شيشرون الخطيب وعدد عديد من أعضاء السناتو الرومانى الذين ما فتئوا يسخرون منها ويندددون بأساليبها ويكشفون عن مآربها ويفضحون نواياها .

وفوق هذا كله لم يكن الزمان نفسه كريماً بها ، بل قسا عليها أكثر من مرة . ويوم أن سلبها يوليوس قيصر فى الرابع عشر (Ides) من شهر مارس سنة ٤٤ ق . م ، أظلمت الدنيا فى وجهها إلى حين ، إذ توارى هذا الدكتاتور فجأة ، وهو فى عنفوان قوته وأوج عظمته ، وكانت تطمع فى أن يُحقق لها بعض مآربها . ولكن القدر اختطفه منها بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من اتخاذ الخطوات الحاسمة لتصحيح وضعها ووضع ابنها منه ، وهو على أهبة

الخروج لتنفيذ برنامجه العسكرى ، وفى طياته كان يزمع تحقيق ما انتوى عليه مع الملكة ، ولكنه أخذ هذا السر الدفين معه إلى قبره . وقد فجعت فيه كليوباترة ، إذ رأته بين عشية وضحاها، يخر صريعاً فى أحد دهاليز مجلس الشيوخ الرومانى . وكانت تقيم إذ ذاك على مقربة من مكان مصرعه وتنزل بقصره على ضفاف نهر التيبر فى روما ، فوقع خبر هذه الفاجعة الأليمة عليها كالصاعقة وكاد يزلزل كيانها ويحطم قواها . ولكنها لم تيأس ولم يهن منها العظم ، وإنما صهرتها تلك الأحداث الجسام ، بعد أن كادت تودى بها . وبعد مصرع قيصر ساد الصخب فى روما وانتاب الرومان حالة من الإضطراب والأسى لهول الفاجعة الأليمة . وكشف ماركوس أنطونيوس ، وكان متولياً وظيفة سيد الفرسان (magister equitum) وهى ثانى وظيفة بعد الدكتاتور ، النقاب عن هذه الحالة فى خطبته التأبينية ، فأفصح عن المشاعر التى تملكت الشعب الرومانى وأن النفوس كانت تغلى غليان المرجل وتتأجج فيها النيران . وأخشى ما كان يخشاه المؤيدون لقيصر والموالون للملكة هو أن يتحول هذا الغضب نحو كليوباترة ، فينفجر بركانه فى وجهها ، ويلحق بها الأذى فى هذا الجو المكفهر . ولذلك رؤى أن تعجل الملكة بالفرار من روما خِفْية، وتعود إلى الإسكندريه لتعيش بمنأى عن هذه الأحداث الصاخبة . فهل طال مقامها فى أمان وسكينة ؟ كلا ، إنها كانت ترقب الأحداث العالمية بعين حذرة ، وتنتظر ما يمكن أن تتمخض عنه تصرفات الحدثان . ولا يستطيع أحد أن يقول إن التطورات التى كانت تجرى فى العالم الرومانى ، والقتال الناشب فى بلاد اليونان بين طرفى النزاع : الحزب الجمهورى والقَتَلة من ناحية ، والآخذين بالثأر من هـــذا الحزب الجمهورى من ناحية أخرى — كل ذلك لا يعنيها فى شىء أو أنه بعيدٌ عن عقر دارها . كان صالح إبنها قيصرون ، وهو لم يتخط بَعدُ سن الطفولة، إذ كان يبلغ نحو أربع سنين ، متوقفاً على مصير تلك الحرب الناشبة . ولم يقتصر الأمر على مستقبل هذا الابن وحده ، بل إن استقلال مصر نفسه وتحقيق البرنامج الذى كانت

تنتويه الملكة — كل هذا كان متوقفاً على الكفاح الذى خاض غماره طرفا النزاع من الرومان فى فيليباى ببلاد اليونان سنة ٤٣ ق . م . وهكذا قضت الملكة نحو عام فى الإسكندرية عقب فرارها من روما فى حالة شديدة من القلق والاضطراب مما كانت تخشى أن تقدم رجلاً أو تؤخر أخرى ، فتسيء إلى أحد الجانبين ، وبذا يضيع حقها وتفقد المكاسب التى كانت تعلل النفس بالأمل فى تحقيقها . وقد أتيح لها بفطنتها وكياستها أن تتلمس سبيلها ، فتخرج من هذه الأزمة منتصرة . فقد نقبت فى جعبتها فوجدت المبررات التى تشفع لها وتفسر موقف حيادها المريب ، الذى اعتبر على أقل تقدير أنه كان يتسم بالجمود وتعوزه المروءة وعدم الوفاء . ولكن اعتزازها بنفسها وبكفايتها وثقتها فى عدالة مطلبها — ساعد كل هذا على خروجها من أزمتها هذه قوية الجانب ، تبسم لها المستقبل مرة أخرى ، وتتطلع إلى تحقيق أحلامها . فكان أنطونيوس نفسه وهو بطل معركة فيليباى ، الناصر الأمين لها والعون المدخر لمستقبلها فى العشر السنين التالية ، والبطل الذى أمَّن جانبها وتبنى قضيتها علانية وفى تحدٍ للعالم الرومانى ، وكان نِعْم المدافع والحليف ثم فى آخر المطاف نِعْم الزوج الوفى والحبيب المتفانى .

وعلى هذا النحو جاء تاريخ هذه الملكة مترعاً بالأحداث المتزاحمة ، حاوياً للغث والسمين منها ، ومفعماً بالعظات والأخطاء . وفيه من الجدية الشيء الكثير ، كما أن فيه كذلك من المساخر والمظاهر البراقة والخلابة ما جعل المؤرخ يتيه فى بيداء من القَصَص التاريخى والروائى الذى قد يأخذ بالألباب ، ولكنه لا يغنى ولا يسمن من جوع . وسيبقى تاريخ الملكة كليوباترة على مر الزمان متعة القارىء ، وفيه من الخلجات والمشاعر مايستهوى الكتاب والمؤرخين على السواء . ولن يكف هؤلاء عن أن يلقى كل واحدٍ منهم بدلوه ، علّه يصيب كبد الحقيقة ، أو يكشف عن الجوانب الخفية من حياة كليوباترة بتسليط أضواء جديدة عليها . ولن يمل القارىء مطالعة هذه



أكتافيوس أغسطس

الصفحات الخالدة ، ليشبع نهمه ويستجلى هذه المشاعر الإنسانية فى أجمل وأجَلّ صورها .

أغسطس وتصويره لموضوع ضم مصر

وبعد أن انقضت سنوات عديدة على وفاة كليوباترة، أخذت الأصداء الخافتة تسمع عن مصر وأحوالها ضمن السجلات الرسمية؛ وكان منها ما دوّنه أكبر شخصية فى عصره، ذلك هو أكتاڤيوس أغسطس الذى تناول فى وثيقته الأنقيرية (Monumentum Ancyranum) موضوعات متفرقة ، أحاط فيها إحاطة شاملة بمعالم السياسة التى انتهجها ، وضمنها سجل حياته . وقد لخص فيها أهم أعماله المجيدة فى أوقات السلم والحرب على السواء (Res Gestae divi Augusti) وعرض لحروبه المختلفة التى خاضها إما بنفسه أو بوساطة قواده ومندوبيه (legati) . وكان من بين هذه الحروب بالطبع حربه ضد كليوباترة . وذكر قواعده فى البر والبحر وبيان الشعوب والأجناس التى أخضعها ، والقرصان الذين أمّن البحر من شرورهم وآثامهم ، وعدّد المنشآت العمرانية التى شيدها والمعابد المختلفة التى كرسها لشتى الآلهة فى روما وفى خارجها ، ثم الألعاب الرومانية والتقليدية (Ludi Romani et Ludi Saeculares) التى أقامها . كما سرد المناسبات المختلفة التى أغدق فيها على جنده وعلى عامة الرومان المنح والعطايا التى أجزلها لهم ، بعضها من إرث أبيه ، وبعضها من جيبه الخاص . وقد أسهب فى ذكر الألقاب والوظائف المدنية والعسكرية والدينية التى أسبغت عليه من مجلس الشيوخ الرومانى أو مجالس العامة ، منذ مطلع شبابه وهو لا يزال يافعاً فى التاسعة عشرة إلى مماته سنة ١٤م. وكان بعض هذه الألقاب والوظائف من قبيل التكريم البحت ، والبعض منها من واقع سلك الوظائف الرومانية . فأسبغ عليه الرومان لقب أب الوطن (Pater Patriae) ووكلوا اليه رعاية الأخلاق العامة والعمل على أن يجتث الفساد ويعيد العادات السليمة التى حافظ عليها الآباء وتوارثها الرومان .

وفى ثنايا كل هذا لم يغفل مصر وما أحرزه من انتصارات على ملكتها

كليوباترة ، بل كانت إشارته إلى ذلك بارعة وعابرة . وعندما عرض لحفلات النصر التى أقامها فى روما ، والمناسبات فى كل حالة ، ذكر أنها فى مرتين كانت من النوع الذى يسير فيه القائد المظفر ممتطياً صهوة جواده (bis ovans) وفى ثلاث مرات كانت من النوع الذى يجلس فيه القائد على كرسى من العاج (curulis) . وهاك نص العبارة اللاتينية التى وردت فى الفصل الرابع من هذه الوثيقة الأنقيرية : Bis ovans triumphavi , tris egi curulis triumphos . ، وفى طيات هذه العبارة المقتضبة معان كثيرة وإشارات عديدة تلقفها الكاتب الرومانى سويتونيوس ، و تناولها بالشرح والتفصيل عندما عرض لحياة أغسطس (الفصل ٢٢) ، فأفصح عن المناسبات فى كل حالة : ففى المرتين الأولتين ، دخل أغسطس روما عقب معركة فيليباى واحتفى بنصره هذا سنة ٤٠ ق.م ، ثم احتفى مرة أخرى سنة ٣٦ ق م بانتصاره فى الحرب الصقلية على سكستوس بمبى وفلول جيشه ، وقضائه على القرصان . أما فى المرات الثلاث التى كان احتفاله بالنصر فيها وهو جالس على كرسى من العاج ، فكانت أولاها فى مناسبة انتصاره فى حربه فى دالماشيا (الليريوم) وفى المرتين الأخريين كان يحتفل بنصره على كليوباترة فى أكتيوم ثم فى الإسكندرية . ومما هو جدير بالملاحظة أن أكتافيوس أغفل ذكر اسم كليوباترة هنا متعمداً ، وكان لهذا الإغفال مغزاه . على أن المؤرخ ليفى كشف لنا الستار عن هذا الغموض المتعمد ، فالمح فى صراحة فى كتابه المختصر (Epitome 33) إلى ذكر كل هذه التفاصيل على النحو الآتى : Tres triumphos egit, unum ex Illyrico, alterum ex Actiaca victoria, tertium de Cleopatra . ، وبذلك أغنانا هذا الكاتب عن الحاجة إلى التأويل والتفسير ، فذكر صراحة أن الاحتفال بالنصر الأول كان بفضل ما كسبه فى الليريوم وأنه فى الثانى والثالث كان بفضل ما كسبه فى أكتيوم والإسكندرية على كليوباترة . وهكذا لم نحظ من قلم أكتافيوس أغسطس إلا بإشارة عابرة مقتضبة إلى احتفاله بالنصر لتخليد ذكرى ضم مصر لسلطان الشعب الرومانى ، فلم يفصح عن شىء ، وإنما آثر

أن يحمل ذلك ضمن انتصاراته الأخرى . وإمعانا فى الاقتضاب وعدم الرغبة فى الإفصاح، على النحو الذى درج عليه أكتافيوس إزاء كليوباترة وأبنائها، جاء فى الفصل الرابع من الوثيقة الأنقيرية (سطر ٢٧ — ٢٨) أنه فى انتصاراته التى احتفل بها ، كان يسير فى الموكب أمام عربته ملوك وأبناء ملوك بلغ عددهم تسعاً . وقد عرفنا من مصادر أخرى أن يوليون وهيرودس وأنطيوخوس كانوا من بين هؤلاء . وذكر لنا ديو(Dio, 51, 21.) أن إبناً وبنتاً لكليوباترة كانا كذلك من بين هؤلاء التسعة .

ومع كل التفاصيل المسهبة والوظائف العديدة التى تولاها أكتافيوس أو الإشارات إلى الشعوب والأجناس التى أخضعها أو ارتبط معها بروابط الحلف والصداقة، فإنه لم يشر ولو مرة واحدة فى وثيقته الأنقيرية هذه إلى كليوباترة وأبنائها صراحة وبالاسم ، مع أن خصومته لها كانت عنيدة ، وحربه التى أعلنها عليها خصيصاً كادت تهز كيانه وتعصف به . ولكنه آثر ألا يذكر كليوباترة بالإسم، ويقتصر على الإشارة إلى ذلك الحادث الجلل وهو ضم مصر لسلطان الرومان بعبارة موجزة ، جاءت عابرة فى سياق سرده للحوادث. فقال جملته المأثورة : (Aegyptum imperio populi Romani adieci) ومعناها ضممت مصر لسلطان الشعب الرومانى [1] . وفى عبارته هذه من الإغفال والتعمية ما جعل المؤرخين يتخبطون فى تعرف ما تتضمنه من المعانى والأهداف . فقد ستر أكتافيوس وراء هذه العبارة أكثر من حقيقة يلحظها المؤرخ المدقق ، وهى أن أكتافيوس أغسطس عندما دبج هذا السجل التاريخى وأراد أن يودع فى طياته جميع أسراره ومشاعره ، لم يكن صريحاً كل الصراحة ، ولم يقصد أن يتوخى، فيما يكتب وما يصور من مشاعر ويكشف من أمور ، ذكر الحقائق دون مواربة . إنه لم يكن ناسياً لمجرى الحوادث ، على الرغم من تلك الفترة الطويلة التى مرت على أحداث أكتيوم وما تلاها ، وكانت قد انقضت عند موته سنة ١٤ م ، فترة تقدر بنحو أربعة وأربعين

---

(١) Res Gestae Divi Augusti, chap. XXVII.

عاماً منذ قيام الإمبراطورية . وهذه الفترة — على طولها — ما كانت لتنسيه
أحداث الأعوام الثلاثة المضطربة التى سبقت أكتيوم من ٣٣ حتى ٣١ ق.م
ثم عام ٣٠ ق. م بالذات وفيه وقعت موقعة نيكوبوليس بظاهر الإسكندرية
وفيه توارت كليوباترة عن الأنظار إلى الأبد . وإنما هو الأسلوب البارع
وطابع الرجل السياسى الحصيف الذى آثر أن يسيطر على الأحداث ، فلا يقيم
وزناً ولا شأناً لما عساه أن يثير هذا الماضى البغيض إلى نفسه ، فيعيد بذلك
إلى الأذهان موضوعاً حساساً طالما أقضّ مضجعه ، وشاء ألا يُذَكِّر الناس
بكليوباترة وابنها قيصرون وما كان لقيصر من علاقة بكليهما . إنه بلا ريب
كان يبغى إسدال الأستار السميكة على كل هذا . ومن هنا جاء الاقتضاب .
ولعل هذ هو السر فى إشارته البارعة إلى حادث ضم مصر بعبارة مقتضبة
كل الاقتضاب . وياليت الأمر اقتصر على الاقتضاب وحده ، بل إنه تجنى
على الواقع من ناحيتين ، فهو لم يضم مصر حقاً إلى سلطان الشعب الرومانى
ولم يجعل منها ولاية حقه على نسق غيرها من الولايات الرومانية
(provinciae) ، وإنما جعلها ولاية من طراز فريد وأحاطها بسياج خاص
واتخذ منها ضيعة خاصة له أوما يشبه الضيعة ، ووضع من الضمانات ما يكفل
له دوام حكمها والمحافظة عليها ، فاستن لها من قواعد الحكم (arcana imperii)
ما جنبها الأخطار وأبعد عنها ذوى المآرب والأطماع . وقد قصر اختيار
الحكام والولاة عليها (praefecti) على طبقة طيعة هى طبقة الفرسان الرومان
(equites) وحرم على طبقة الشيوخ النابهين وأعضاء البيت المالك فى روما
أن تطأ أقدامهم أرض مصر أو يهبطوا إليها بقصد زيارتها ، دون أن يحصلوا
على إذن خاص منه بذلك ، خشية على تلك الدرة اليتيمة فى تاج إمبراطوريته
من أن يكدر صفوها أحد أو يتخذ من موقعها الإستراتيجى الفذ وهى مفتاح
البر والبحر (claustra terrae et maris) على حد قول المؤرخ تاكيتوس،[١]
أداة يهدد منها الإمبراطورية أو يستأثر بها حاكم من الولاة . فكان حصيفا ،

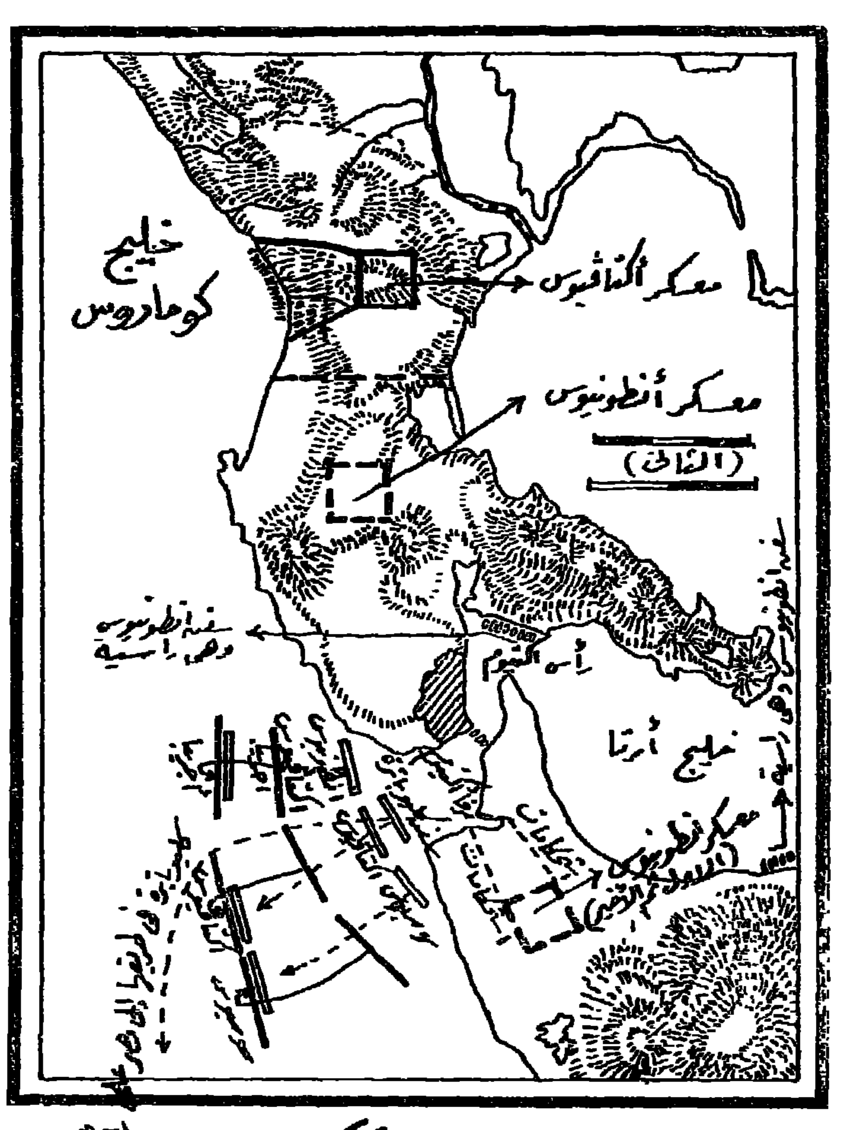
---

(١) Tacitus, Annals, II, chap. 59

بعيد النظر فيما اتخذه من ضمانات ، حرص خلفاؤه الأولون على اتباعها . .
ثم هو يتجنى مرة أخرى ، عندما يؤثر عدم الإفصاح عن شيء وهو يتحدث عن
ضم مصر ، فأغفل حقائق كثيرة فى هذه النبذ والخلاصات (breviarium) .
وكان أولى به أن يسرد أهم التفاصيل التى أدت إلى هذا الضم ، ليشبع
نهم الباحث ويوفى للأجيال التالية حقها من المعرفة . ذلك أن تفاصيل
حادث ضم مصر لسلطان الشعب الرومانى لها أهميتها البالغة ، لأن مصير
الإمبراطورية قاطبة ، بل ومستقبل العالم الرومانى برمته كان متوقفاً على
نتيجة ذلك القتال الذى دار فى أكتيوم . فكان أحرى به أن يذكر أسباب
القتال فى شىء من الصراحة ، ويفسر للأجيال التالية وجهة النظر الرومانية
وهى الوجهة الرسمية فى هذا الشأن، فيعرض للأسباب التى من أجلها شن الحرب
على كليوباترة وحدها فى إصرار وعناد وحض العالم الغربى كله على أن يصب جام
غضبه على الملكة كليوباترة بالذات . ولعل السر فى كل ذلك علمه علم اليقين بأن هذا
هو السبيل الذى يتعين عليه أن يسلكه ، ووثوقاً منه بأن هذا سيجر معه بالتبعية
حليفها الأول أنطونيوس وهو بيت القصيد . وكان حرياً به كذلك أن يكشف
عما ترامى إلى سمعه وعلمه من أسباب فرار كليوباترة من المعركة فى أكتيوم ،
فيقضى إلينا بملخص ما تواترت به الإشاعات فى ذلك الحين ، ويوفر بذلك
علينا ما عسانا نقع فيه من تخبط فى دياجير الحدس والتخمين .

* * *

تلك صفحات من مأساة كليوباترة ، عرضنا لها بشىء من الشرح
والتفصيل . وهذا هو موقف العالم من هذه الملكة المصرية التى قسا عليها
الدهر ، فأثخنها بالطعنات والجراح حتى خرت كليمة . وهى الآن أحوج
ما تكون إلى كلمة عدل وإنصاف .



موقعة أكتيوم
(سنة ٣١ ق.م)

فهرس الأسماء والأعلام

(أ)

[illegible] للطبع والنشر
مؤسسة البيان [illegible]
٢٣ [illegible]

[illegible] البيان [illegible]
[illegible]
[illegible] ٧٠٧٩